الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري - قسنطينة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربيــة وآدابهـــا

الرقم التسلسلي:...............

رقم التسجيل:................

ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة (دراسة فنية)

مذكرة ماجستير في أدب الحركة الوطنية الجزائرية

إعداد الطــالب:

إبراهيم لقان

إشراف الأستاذ الدكتور:

يحي الشيخ صالح

لجنة المناقشــة:

1- محمد العيد تاورته	جامعة منتوري قسنطينة	رئيسا
2- يحي الشيخ صالح	جامعة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
3- عليمــة قادري	جامعة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا
4- جميلــة قيسمون	جامعة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1427 - 1428هـ 2006 - 2007 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة:

إن اختيار موضوع معين للبحث عملية صعبة،لا تتم بسهولة،إنما هي رغبة تنمو تدريجيا حـــتى تكتمل في الأخير،وهكذا كان شأني مع هذا البحث.

وعلى الرغم من اهتمامي بالأدب الجزائري الذي يمتد إلى أكثر من عشرين ســـنة،من خـــلال النصوص الشعرية الوطنية والسياسية والثورية، التي كنت أدرّسها وأحرص على انتقائهـــا وتقـــديمها نماذج امتحانات لطلبة السنة الثالثة ثانوي ،وكان معظمها لمحمد العيد،وأحمد سحنون ومفدي زكريا وغيرهم من شعراء العرب،على الرغم من هذا، لم أستطع تحديد عنوان للبحث،إلا بعد أن أوشـــكت السنة الأولى ما بعد التدرج على الانتهاء،وبعد ما درسناه من طرف أساتذة كبار عن مصادر الحركة الوطنية الجزائرية،و عن أبرز أعلامها في مقاومة الاستعمار ،تشرفنا بالدراسة على أيديهم أدب الحركة الوطنية،وبعد ما اقترحوه علينا من عناوين للبحث،أدركت حجم الهوة بين العطاءات الثقافية لكثير من المثقفين الجزائريين عبر مراحل الحركة الوطنية حتى قيام الثورة فالاستقلال،وبين البحوث و الدراسات التي تعرضت لتلك العطاءات،وتناولتها بالبحث و التحليل بشكل أو بآخر من طرف باحثين جزائريين أو غير جزائريين.

بناء على ما سبق اكتملت صورة البحث عندي بأن يكون بعنوان(ملامـــح المقاومـــة ضـــد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة)دراسة فنية.

وهو في اعتقادي موضوع ذو أهمية كبيرة،لأنه يتناول شاعرا تعرض لمرحلة تاريخيـــة عصـــيبة كابدها الشعب الجزائري،فكان صورة حية،لمعاناته الاجتماعية والاقتصادية ونشاطاته السياسية،وكان دليلا على مقاومة لغة الضاد للغة الاستعمارية،وساهم مساهمة كبيرة في حفظ تراث الشعب الجزائري وأصالته، كما كان صدى للأحداث السياسية،وحمل أصوات الرفض لسياســـة الاستعمار،وشـــحذ النفوس الخامدة،وأحيا الضمائر الميتة،وأرهص للثورة قبل وقوعها،وإن لم يعتمد لغة القوة التي اعتمدها نظيره مفدي زكريا.

ولعل ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو مجموعة من الدوافع الذاتية والموضوعية.

أولها: أن هذا البحث – في حدود علمي – هو أول مساهمة من نوعها في دراسة هذا الجانب — جانب المقاومة - من شعر محمد العيد يضاف إلى جهود الباحثين الجزائريين الذين كان لهـــم عنايـــة كبيرة بجوانب أخرى من شعر الشاعر.

وثانيها:إنصاف الشاعر،ووضعه في صف شعراء المقاومة، الذين عرفوا بمواقفهم الـــتي لا تقـــل ثورية عن غيرهم،وتفانيهم في الإعداد للثورة ببناء الجيل الذي يقوم بها وتصويرهم لمراحـــل كفـــاح الشعب الجزائري،على مختلف الأصعدة،لأن النظرة السائدة إلى الشاعر و إلى كثير مـــن أمثالـــه – في حركة الإصلاح – محصورة في كونهم قصروا حياتهم على الدين،و التربية،والتوجيه،ووقفوا شـــعرهم على الدعوة إلى الإصلاح.

ثالثها:أن ثمة بعض الدراسات التي أنجزت في أدب المقاومة الجزائرية اقتصـــرت علـــى الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية مثل: كتاب المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر لـــ(عبـــد العزيـــز شرف)، وكتاب الأدب الجزائري المعاصر لـــ(محمد سعاد خضر)،كما أن هناك دراســـات أخـــرى اتسمت بالعرض التاريخي منها شعر المقاومة الجزائرية لـــ(صالح خرفي)، والأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير لـــ(نور سلمان).

ورابعها: التأكيد على حقيقة هي أن تبني الشاعر للمنهج القديم في اللغة والأسلوب،والصـــورة الشعرية،والوزن والموسيقى،جعل شعره همزة وصل بين ماضي الأمة وحاضرها،وساهم مساهمة كبيرة في حفظ تراث الجزائر وأصالتها وامتدادها التاريخي.

ومع علمي أنه لا يخلو جهد من مشقة، و أنه لابد دون الشهد من إبر النحل -كمـــا يقـــول الشاعر- فقد واجهتني صعوبات في جمع مادة هذا البحث.

أولها:صعوبة التوفيق بين مقتضيات العمل في الطور الثانوي وفق المناهج الجديدة التي تتطلـــب التحضير اليومي للدروس،وبين متطلبات البحث العلمي التي تقتضـــي التفرغ،والبحـــث المتواصـــل الدؤوب عن مصادر المادة وجمعها.

وثانيها:هو كون قصائد الشاعر في الديوان غير مرتبة زمنيا لأنها كانت متناثرة في الجرائد التي نشرتها، وهي لا تحمل غالبا تواريخ صدورها عن الشاعر – على الرغم من محاولة القائمين على جمعه مراعاة ذلك- وهذا ما كان حجر عثرة أمام تتبع دبيب القصيدة المقاومة،وكيفية تطور الحسن الثوري لدى محمد العيد.

وثالثها: أن جل الجرائد والمجلات التي تضمنت شعر محمد العيد،نادرة جدا ومحدودة بـــالكم والمكان،وهو يجعل التعامل معها أمرا صعب المنال.

ولهذا كان الاعتماد الأول في هـــذا البحـــث - المتواضـــع- علـــى أول ديـــوان للشـــعر الجزائري(شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي الزاهـــري ،وعلـــى ديـــوان الشـــاعر،وعلى تكملته،منها تستقى النصوص الشعرية محل الدراسة،لأنه لا يوجد - فيما أعلم - من البـــاحثين مـــن تناول ملامح المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في شعر محمد العيد،وأحاط بمختلف جوانبه ومراحلـــه وكل ما هو موجود حول محمد العيد من الدراسات الأكاديمية المختصة ثلاث رسائل جامعية تناولت قضايا أخرى من شعر الشاعر هي:

- (الصورة الشعرية عند محمد العيد آل خليفة)، لمبروك بن غلاب جامعة القاهرة 1988.
- (الألفاظ السياسية في ديوان محمد العيد آل خليفة)،لفاطمة ولد حسين جامعة قسنطينة 93/92.
- (الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة)، لـــ بن زروق نصر الدين،جامعة الجزائر 96/95.

بالإضافة إلى بعض المقالات في بعض الجرائد والمجلات الوطنية التي تناولت بعض شعره الثوري.

ويحسن بي أن أشير أنني استعنت كذلك بالدراسة التي قـــدمها (أبـــو القاســـم ســـعد الله) عن الشاعر بعنوان محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث.

وبدراسة (محمد بن سمينة)،محمد العيد آل خليفة،دراسة تحليلية لحياته،كما اســـتعنت بـــبعض الدراسات الشاملة عن الأدب الجزائري منها:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاتـــه وخصائصـــه الفنيـــة لـــ (محمد ناصر)،والشعر الجزائري الحديث لـــ (خرفي صالح).

وأنا أقدر وأثمن هذه الجهود التي أعتبرها محدودة،ومهمة كل فيما اتجه إليه،وقليلـــة لأنهـــا في مجملها تتناول جوانب معينة من شعر الشاعر.

كما استعنت في دراسة الأدوات الفنية عند محمد العيد ببعض الدراسات النظرية منها(الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب)لجابر عصفور،و(الصورة في الشعر العربي حتى أواخـــر القرن الثاني)لعلي البطل، و (القافية والأصوات اللغوية) لعوني محمد عبد الرزاق،و(موسيقى الشـــعر العربي بين الثبات والتطور) لصابر عبد الدايم.

ولقد أفدت من جهود هؤلاء،كما أفدت من جهود الكثيرين سواهم فيما دبجوه من بحـــوث ومقالات،وكان لي إلى جانب ذلك اجتهادي.

ولمعالجة هذا الموضوع أيقنت أنه من الصعوبة التقيد بمنهج واحد،كما أنه من الأصعب تطبيق أكثر من منهج،بيد أنني رأيت أن كلا من المنهج التاريخي والفني ضروريان سواء في تتبـــع واســـتقراء أفكار الشاعر ومضامين قصائده وتحليلها،أو في رصد الأدوات الفنيـــة الـــتي اعتمـــدها في صـــياغة

أفكاره،كما اضطرني هذا البحث في بعض منعطفاته إلى اعتماد المنـــهج النفســـي، والاجتمـــاعي ، والإحصائي مع اقتناعي بعدم ملاءمة هذا الأخير في الدراسات الأدبية.

ولتحقيق الهدف الذي توخيته من هذا البحث رأيت أن أقسم مضامينه على ثلاثة فصـــول تسبقها مقدمة،وتتلوها خاتمة تتناول أهم النتائج التي قادتني إليها رحلتي مع هذا البحث.

أما الفصل الأول فقد رأيت أن أربط فيه بين الشاعر وبين مجتمعه إبان فترة الاســتعمار مـــن خلال الحديث عن نشأته،وتحديد الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية الـــتي عـــاش في ظلـــها، وعايشها طوال حياته،وعن طابع ثقافته العربية الإسلامية،كما تحـــدثت عـــن مكانتـــه في الســـاحة الأدبية،كل ذلك في إطار الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائـــريين خاصـــة،والحركة الوطنية الجزائرية عامة،معرجا في نهاية هذا الفصل على وصف ديوان الشاعر،وبيان أقسامه.

وفي الفصل الثاني رصدت مضامين المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد منـــذ مطلـــع العشرينيات حتى قيام ثورة التحرير المباركة،وهي مقاومة لا تتعدى – في نظري – مضامين ثلاثة:

أولا:مقاومة ثقافية انبثقت من واقع الشعب ومبادئه،وتجلت في التأكيد على عروبة الجزائر،من خلال استلهام أمجاد الماضي،والدفاع عن العروبة والإسلام،وذلك بالتوعيـــة ونشـــر العلم،ومحاربـــة الانحراف والجهل.

وثانيا:مقاومة سياسية واضحة انطلقت من القهر المسلط علـــى الشـــعب،وتجلت في الـــتغني بالأرض والوطن،وفي التعبئة السياسية على صعيد جمعية العلماء،من خـــلال الحـــديث عـــن النيابـــة والأحزاب، وعن المؤتمر الإسلامي،والدعوة إلى الوحدة، وفي الحديث عن الحرية والاستقلال وعـــن قضايا العروبة كتقسيم فلسطين،واستقلال ليبيا والسودان.

ثالثا:مقاومة ثورية بدأت تجلياتها بصوت خافت في العشـــرينيات ممزوجـــة بطـــابع الحـــيرة والتساؤل، ثم تجلت بشكل أكثر في الثلاثينيات بعد أن اشتد ساعد الحركة الإصـــلاحية،والحركات السياسية،كما تعرضت في هذا الفصل لموقف محمد العيد من مأساة الثامن ماي 1945،ومـــن ثـــورة التحرير،مع الإشارة إلى أسباب ندرة شعره في تلك الفترة.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن بعض الظواهر المعنوية والأسلوبية في شعر محمد العيد،كظاهرة اقتباسه من القرآن الكريم لفظا ومعنى،وعن أدوات تشكيله الفني كالصـــور الأدبيـــة، أنواعها ومصادرها، والموسيقى الشعرية وجذورها.وختمت بسرد جملة من النتائج التي انتهى إليها هذا البحث المتواضع.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أرى أنه من الوفاء، ومن الواجب أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من يستحقه.

فأتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور:يحي الشيخ صالح الذي عاملني معاملة القرابة،وغمرني بتوجيهاته،وملاحظاته المنهجية القيمة،والتي أقول بصراحة إنه لولاها ما كنت لأصل إلى تحقيق الحد الأدنى مما تتطلبه مني هذه الدراسة.

كما انحني تواضعا أمام جميع أساتذتي الذين كان لي شرف التمدرس على أيديهم مرتين،يـــوم كنت طالبا بمعهد الآداب في مطلع الثمانينيات،ويوم انتميت إلى السنة الأولى من دراسات مـــا بعـــد التدرج في شعبة: أدب الحركة الوطنية الجزائرية،التي أعبر عن امتناني وتقديري لـــرئيس مشـــروعها الأستاذ الفاضل محمد العيد تاورتة على تفانيه في ترسيم هذا المشروع.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدني على إنجاز هذا البحث من قريب،أو من بعيـــد، ماديا، أو معنويا، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرين على ما بذلوه من جهد في قراءة هذه المذكرة،وتقويمها،وتوجيه صاحبها الوجهة الحسنة السليمة.

ولئن أخذ هذا البحث صيغته النهائية، فإنني لا أدعي كماله أو خلوه من كل عيب، وأنا أول من يعترف بما قد يكون فيه من نقائص وعيوب،وأتمثل بقول الشاعر موضع الدراسة:

ولا أدعي منك عيب خلوه   فإن كمال العبد يستصحب النقصا

وأقر مع العماد الاصفهاني بأنه « لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن،ولو زيد كذا لكان يستحسن،ولو قدم هذا لكان أفضل،ولو ترك هذا لكان أجمل،وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر».

ولئن أصبت فبتوفيق من الله - جل من لا يخطئ- وإن أخطأت فمن نفسي ،وعذري الوحيد أنني كنت أروم إلى الصواب،واجتهدت لتحقيقه،وعزائي أنني فتحت مجالا للبحث ليكمله غيري.

فرجيوة في:2007/04/22

إبراهيم لقان

الفصل الأول

محمد العيد وحركة المجمع الجزائري إبان الاستعمار

I- لمحة عن حياة الشاعر

II- المؤثرات الاجتماعية في حياة الشاعر

III- المؤثرات الثقافية في حياة الشاعر

1- التعليم(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

2- الصحافة

3- الأندية والمراكز الثقافية والجمعيات

أ- نادي الترقي

ب- مركز قسنطينة

ج- مركز تلمسان

د- الجمعيات الثقافية والخيرية

IV- المؤثرات السياسية في حياة الشاعر

1- حركة الأمير خالد

2- حزب نجم شمال افريقيا

3- الحزب الشيوعي الجزائري

V- مكانة الشاعر في الساحة الأدبية:

1- مكانة محمد العيد بين معاصريه(أثناء الاستعمار)

2- مكانة محمد العيد بعد الاستقلال

VI- ديوانه الشعري

1- مصادر الديوان.

2- محاوره (مضامينه).

I- لمحة عن حياة الشاعر:

حياة الشاعر محمد العيد، ودراسة شعره من مختلف الجوانب،لا يمكن أن يحيط بها دارس أو كاتب، مالم تتظافر الجهود،ويتكاثف الباحثون كل في مجال تخصصه لدراستها، والإحاطة بها،و أملا في تحقيق هذا الهدف، أضيف هذا الجهد المتواضع ليأخذ مكانه إلى جانب ما سبقه من جهود، بغية تنوير بعض الجوانب من حياة هذا العلم،وتسليط الضوء على بعض القضايا التي لم تأخذ حقها بالدراسة من شعره، وأدعو الله العلي القدير أن يوفقني في هذا الجهد البسيط، وأن يجد فيه القارئ ما يشدّه إليه.

ولبلوغ شعر محمد العيد رأيت أن سبيل الدخول إليه لا يكون إلا من خلال حياة صاحبه نظرا لما للعوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية من تأثير على الأعمال الأدبية.

الشاعر هو محمد العيد بن محمد علي بن خليفة، ولد بمدينة عين البيضاء (ولاية أم البواقي) بتاريخ 27جمادى الأولى 1323هـ - الموافق لـ 28 أوت 1904 م ،في أسرة محافظة على تقاليدها الإسلامية وثقافتها العربية،وقد عُرف والده محمد علي بميله وحبّه للصوفية وللعلماء،فكان يحتك بهم دائما،ويحسن إليهم « وتنحدر أسرته من القبيلة العربية (المحاميد) التي سكنت ليبيا في العهد الفاطمي»[1]،وانتقلت إلى الجزائر في العهد العثماني واستقرت(بواد سوف) جنوب شرق الجزائر ثم انتقلت هذه الأسرة أواخر القرن التاسع عشر إلى مدينة عين البيضاء.

وأقام والد الشاعر،الحاج(محمد علي خليفة) بالمدينة المذكورة، وفي أحضان عين البيضاء وفي أسرة عريقة التدين نشا محمد العيد في جو أسري مليء بالتقوى والورع ،حيث استهل التعليم بحفظ القران الكريم في الكتّاب، ثم تعلم بمدرستها الابتدائية«حيث بدأ يتلقى المبادئ الأولى في العلوم الدينية واللغوية على يدي الأستاذين الشيخ(أحمد بن ناجي الصائغي)،و(محمد الكامل بن الشيخ المكي بن عزوز) ».[2]

وعندما انتقلت أسرته إلى مدينة بسكرة حوالي سنة 1918 كان الشاعر لا يزال لم يكمل حفظ القرآن الكريم،فأتمه على يد أحد أئمة مساجدها، وهو في سن الرابعة عشر«حيث تابع

1- ابن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته- ديوان المطبوعات الجامعية 1992 ص07.

2- ابن سمينة محمد:المرجع نفسه، ص 09.

دراسته على المشايخ (علي بن إبراهيم العقبي) (الشريف والمختار بن عمر اليعلاوي) و (الجنيدي أحمد مكي)»[1].

وقد قضى الشاعر ثلاث سنوات ببسكرة أخذ فيها الكثير من أصول التوحيد والفقه والنحو والمنطق،وغيرها من العلوم الدينية عن المشايخ السابقين،مترددا على حلقات الدروس التي كانوا يقدمونها في المساجد،كمسجد الزاوية القادرية والمسجد العتيق.

وفي سنة 1920 شد الشاعر الرحال إلى تونس،ليلتحق بجامع الزيتونة وينال شهادة التطويع،من هذه المنارة العلمية التي كانت لها شهرة دينية وثقافية في المغرب العربي،على غرار الأزهر في مصر. فأكبّ الشاعر على الدرس والتحصيل،وأخذ يتعمق في الثقافة قديمها وحديثها،ويجمع بين الحياة الدينية التي تشبع به في أسرته وفي بسكرة،وبين الحياة المادية التي يعيشها ويواجهها في تونس،كما كان يداوم «بصفة حرة على بعض الدروس في المواد العصرية كالحساب والجغرافية بالمدرسة الخلدونية،التي كانت مكملة للزيتونة باهتمامها بالعلوم الحديثة».[2]

وقد دامت دراسته على هذا النحو سنتين،على أيدي شيوخ كبار أمثال (عبد العزيز الباوندي) (محمد مناشو)،(محمد الدامرجي)،وغيرهم من علماء تونس،فكان يأخذ عنهم العلم كما يأخذ عنهم«المؤثرات الشرقية التي كان يسمع عنها وهو صغير،فازداد ـــ عن طريقهم ـــ تأثرا بها،وبما كان يدور في أروقة الزيتونة من صراع حول المحافظة والإصلاح،وبما كان يشيع في الحياة العامة من تيارات سياسية،وثقافية وأدبية».[3]

وفي السنة الثانية من دراسته،أصيب الشاعر بمرض أرغمه على العودة إلى بسكرة سنة 1923،يقول الشاعر في ترجمته:« وما كاد ينقضي عام 1342هـ،حتى خارت قواي،وضعفت عزيمتي،بما طرأ علي من الآلام،التي كانت حجر عثرة في سبيلي،فاضطررت للرجوع إلى بسكرة » [4].

1- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ط2 (د ت)،دار المعارف بمصر،ص 86 .

2- ابن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة ،دراسة تحليلية لحياته، ص11.

3- ابن سمينة محمد:المرجع نفسه، ص12.

4- الزاهري محمد الهادي:شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1 ط1، المطبعة التونسية 1926،ص 12.

هكذا اضطر الشاعر للعودة إلى الجزائر،واستقر ببسكرة وهو ما يزال متعطشا لطلب العلم،فاتصل بالشيخ (المختار اليعلاوي) الذي كان يدرس بالمسجد العتيق،فدرس على يديه الفقه والحساب والفلك « كما اختلف إلى دروس الشيخ (البشير الإبراهيمي العقبي)»[1] أحد كبار العلماء بزاوية سيدي عقبة،وهو من أقارب الطيب العقبي بالزاوية التيجانية،وإلى دروس الطيب العقبي التي يقدمها في مسجد بكار ببسكرة،وكانت تدور حول التفسير والبلاغة.

وهكذا شب محمد العيد على الثقافة العربية الإسلامية،ونهل من منابعها الصافية،وبالرغم من صوفية والده،وميله هو إليها،فإنه كان بعيدا عن الانحرافات التي أدت بالطرقيين إلى الغلو،والتمسك بالطقوس التي ليست من الإسلام في شيء،كما كان بعيدا عن الردة الثقافية التي تعرض لها كثير من معاصريه«ولا شك أن الشاعر كان يرى أن الطرقيين قد خرجوا عن أصل الشريعة،وابتعدوا عن روح الإسلام،وشوهوا جوهر العقيدة، وأصبحوا عامل انحطاط،وهم يشعرون أو لا يشعرون،وقد وقف العيد من هذه الانحرافات موقف استنكار». [2]

ومنذ ذلك أخذ يشارك في النهضة الفكرية وينشر في الصحف والمجلات،«فعرفته صدى الصحراء للشيخ (أحمد بن العابد العقبي) و المنتقد،والشهاب(لعبد الحميد بن باديس)،والإصلاح للشيخ (العقبي)»[3].

وفي عام 1927 دعي محمد العيد إلى العاصمة ليقوم بمهمة التدريس بمدرسة الشبيبة الإسلامية،وظل مدة اثني عشر عاما بين مدرس مرة،ومدير مرة أخرى،وقد شهد له بهذه المهمة بعض تلاميذه الذين درسوا على يده في تلك الفترة،ففي حوار أجري مع الكاتب الجزائري محمد مختار اسكندر قال في معرض رده عن سؤال«... وانتسبت إلى مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية، وكان لي شرف الدراسة فيها على يد شاعر الجزائر الفذ محمد العيد آل خليفة،وبعد انتقال الشاعر إلى مدينة بسكرة أثناء الحرب العالمية الثانية خلفه في إدارة المدرسة الأستاذ أحمد جلول البدوي». [4]

1- ابن سمينة محمد: محمد العيد آل خليفة ،دراسة تحليلية لحياته، ص 13.

2- ابن سمينة محمد:المرجع نفسه، ص 17.

3- دوغان أحمد:شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989،ص15

4- محمد مختار اسكندر: البصائر،سلسلة4 ،سنة6،العدد 262، (14-21 نوفمبر2005)، ص10.

وخلال وجوده بالجزائر العاصمة أسهم الشاعر في« تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،وكان عضوا عاملا فيها،وأغلب شعره آنذاك كان ينشره في صحف جمعية العلماء(الشهاب، السنة،الشريعة،البصائر)، إضافة إلى صحيفتي(المرصاد والثبات)لمحمد عباسة الأخضري»[1].

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1940 ترك الشاعر الجزائر العاصمة، وعاد إلى بسكرة،وقضى بها مدة يمارس التعليم في المدارس الحرّة،ثم انتقل إلى باتنة للإشراف على مدرستها العربية، وبقي هناك من حوالي1941 إلى غاية1947،وفي هذه الفترة يبدو كما يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أنه (الشاعر) عانى من قسوة الحياة وجفاء الأصدقاء،« ما جعله يشك في قدرة الإنسان على تحقيق رسالة الحق،والفضيلة،ومع ذلك لم يحنِ رأسه للعاصفة،ولم يبال بهذه القسوة،وذلك الجفاء بل استمر في كبريائه وشموخه يكافح من أجل العيش الشريف والحرية الكاملة»[2].

ومن باتنة انتقل الشاعر بأسرته إلى عين مليلة حيث بقي ثماني سنوات مديرا لمدرستها الحرة،« حيث عاش يناضل بإيمان الواثق بالانتصار لنفسه على الحياة القاسية،ولشعبه على الاستعمار والاضطهاد»[3].

وقد استمر إشراف الشاعر على مدرسة العرفان التي كان يديرها والده حتى سنة1954،حيث ألقي عليه القبض لكونه من رجال النهضة والإصلاح،وأحد وأبرز أعضاء جمعية العلماء،وبعد إطلاق سراحه،ما لبثت السلطات الاستعمارية أن اعتقلته عند بداية الثورة،وزجت به في سجن الكدية بقسنطينة،وعن تاريخ اعتقاله ومدة ذلك يقول ابن سمينة أنه تم إيقافه،وهو يقدم دروس تحريضية على الثورة بالمسجد المجاور لمدرسة عين مليلة،و اقتيد موثقا إلى سجن المدينة في شهر جوان1955،ثم نقل منه إلى سجن الكدية بقسنطينة في اليوم الرابع من الشهر المذكور فمكث به حوالي(14)يوما[4].

1- دوغان أحمد:شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر ،ص15.

2- سعد الله أبو القاسم: محمد العيد آل خليفة ،رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص88.

3- سعد الله أبو القاسم:المرجع نفسه،ن ص.

4- ينظر ابن سمينة محمد: محمد العيد آل خليفة:دراسة تحليلية لحياته،ص73.

أما عن سبب إطلاق سراحه فقد تم إثر مجموعة من التدخلات من بعض المدافعين الفرنسيين،ومن شيخ التيجانية(أحمد التيجاني)[1].وهو الموقف نفسه الذي يراه أبو القاسم سعد الله،أن محمد العيد بعد القبض عليه«سيق إلى الموت ثم عفي عنه بتدخل محتمل من الزاوية التيجانية بينما نفذ الإعدام في غيره »[2].وبعد محاكمته أطلق سراحه،وفرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة،وظل معزولا عن الناس،وخلال السنين السبع للثورة خضع إلى رقابة صارمة،فحضر عليه مغادرة مترله،معرضا في كل لحظة للاستنطاق[3].

ففي إحدى المحاكمات التي جرت للشاعر في قسنطينة سنة 1957، كانت التهمة الرئيسية الموجهة إليه هي:« المساهمة في الإعداد للثورة،وكان المدعي العام يستمد كل حججه من أشعار (محمد العيد) حتى صرخ فيه محامي الشاعر:ما عهدنا فرنسا تحاكم على حرية القول بهذه الصورة؟».[4]

وبقي الشاعر على هذه الحال،حتى أشرقت شمس الحرية على الجزائر.وقد واصل دوره في ثورة البناء والتشييد،ولكن صوته بدأ يخفت، وإنتاجه يقل لأسباب صحية،حتى وفاته في 31 جويلية 1979 بمستشفى باتنة.

وقد عاش محمد العيد ـــ رحمه الله ـــ أكثر من سبعين سنة مجاهدا بالقول والفعل،جهادا متواصلا،دؤوبا،مخلصا للمبدأ،أبيا،وفيا لوطنه وشعبه،وتجلى هذا في كل أشعاره التي تركها « وفي حياة محمد العيد،وشعره وجهاده،وحياة إخوانه من المجاهدين الأوائل،أولئك المخلصين البررة... الذين وحدهم درب الجهاد الطويل...قدوة مثلى،وعبرة بعيدة الغور،عميقة المغزى... في حياة أولئك الأبطال الرجال،صفحات مجيدة وضاءة مشرقة يحق لجيل الاستقلال أن يعتز بها مرفوع الرأس».[5]

1- ينظر ابن سمينة:المرجع السابق، ن ص.

2- سعد الله أبو القاسم:تاريخ الجزائر الثقافي(1830-1954)،ج8،ط1،دار الغرب الاسلامي1998،ص238.

3- ينظر ابن سمينة:المرجع نفسه، ص74.

4- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 ،(هامش)ص 308.

5- يحياوي الطاهر،توامي محمد:شعراء وملامح ط1، مطبعة أمزيان الجزائر 1984 ص41.

وقد ترك محمد العيد حياة حافلة بالأعمال المجيدة،هي بحق سيرة جديرة بالتسجيل،والاقتداء،كما ترك سجلا هائلا من الأعمال الأدبية الجليلة التي تخلد ذكره في قلوب الأجيال،وتكون معينا صافيا للأدباء هي:

1- ديوان شعر ضخم يفوق 600 صفحة،من القطع الكبير،طبع أول مرة سنة 1967، وصدرت طبعته الثالثة سنة 1992،تناول فيه قضايا سياسية واجتماعية وطنية، وعربية إسلامية.

2- مسرحية شعرية بعنوان (بلال بن رباح، طبعت بالمطبعة العربية الجزائرية سنة1938م.

3- بعض الخطب والمقالات الصحفية التي نشرها في بعض الجرائد والصحف كصحيفة(صدى الصحراء،الإصلاح،المنار) وغيرها.

4- ملحق شعري بعنوان (العيديات المجهولة) وهي تكملة لديوان الشاعر جمعها وحققها بن سمبنة محمد، تضم مجموعة كبيرة من الشعر المجهول للشاعر ، قصائد ومقطوعات وأناشيد وأبيات مفردة،« وتمتد مادة هذا الشعر المستدرك على مساحة زمنية توشك أن تغطي جميع مراحل حياة الشاعر ما بين (1920-1974) »[1].

1- ابن سمنية محمد:العيديات المجهولة، ص20.

II- المؤثرات الاجتماعية في حياة الشاعر:

لقد تعرضت الجزائر لأعنف استعمار عرفته الإنسانية،إنه استعمار لم يكتف بتشريد الشعب الجزائري،ونهب خيراته وتجويعه وحرمانه من أبسط حقوقه الإنسانية،فهو استعمار شخصية عمل على طمس معالم هوية الشعب الجزائري،وحاول تذويب انتمائه التاريخي والديني واللغوي. وهذا الشكل من أشكال الاستعمار هو الأخطر،لأن تلك العوامل هي أساس بقاء الشعوب واستمرارها.

لهذا فمن بين الأهداف التي كان الاستعمار الفرنسي يروم إلى تحقيقها ليضمن بقاءه على أرض الجزائر نشر التفرقة بين أبناء الشعب الجزائري، وإحياء النعرات القبلية بين السكان،وتشجيع اللهجات المحلية، عملا بمبدأ(فرق تسد).كما عمل على التمكين لأصحاب البدع في الدين الذين عاثوا فيه فسادا بنشر الخرافات والأباطيل، وتضليل الشعب بالترويج لأفكار ومعتقدات تكرس الاستعمار وتبقي دار لقمان على حالها.

وقد أمدّ الاستعمار أعوانه بكل ما يريدون من دعم مادي ومعنوي، لأنه يدرك تمام الإدراك أن الدين الصحيح الطاهر من الشوائب يتعارض مع مصالحه ويكشف نواياه،ويعرف الناس بالحقوق وكيف تؤخذ،وبالظلم وكيف يرفع،ويولد في النفوس الكرامة وفي الرؤوس الشهامة.

وقد علق محمد البشير الإبراهيمي على دور الطرقيين في مساعدة الاستعمار قائلا: « إن المرابطية هي الاستعمار في معناه الحديث المكشوف،وهي الاستعباد في صورته الفظيعة»[1].

إن هذه السياسة الاستعمارية قد نجحت ردحا من الزمن،لأن الانحراف الديني قد بلغ أقصى ما يطمح إليه المستعمر،فالظلم قد فاق الحدود، والفقر أصبح السمة الغالبة على الشعب، حيث بلغت حالة الجزائر آنذاك كما يقول ابن باديس حدا لا يطاق:« كانت الجزائر في تلك الأوقات تعاني أزمة من أغرب الأزمات،فالحقوق معدومة،و المظالم مرهقة،والضرائب فادحة،والأحكام الزجرية قاسية رهيبة،ولا يكاد يجتمع ثلاثة من المسلمين

1- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص34.

حتى يكون البوليس رابعهم،وقد انحطت الأخلاق تجاه هذه النكبات وألفت النفوس الخنـــوع والانزواء،ومن تكلم وتحرك عدّ ثائرا مقاوما للسلطة»[1].

وهذا الوضع المتردي،قد أرهق الشعب الجزائري حيث عبر عن ذلك أحد أدبـــاء تلـــك الفترة(هو إبراهيم أبو اليقظان):«لقد تسلط على الأمة الجزائرية عوامل ثلاثة،لو تسلط عامـــل واحد منها علىأمة كبيرة لزعزع ركنها،وهدّ بناءها،ألا وهي: الجهل والفقر والفرقـــة،فالجهل أفقدها شعورها بوجودها،وكيف تدب عنه،والفقر أقعدها عن العمل، وشل أعضـــاءها عـــن الحركة،والافتراق أذاب قوتها وذهب بريحها،فبقيت الحالة هذه عرضة للتلـــف والاضـــمحلال والهلاك،وهي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جر إليها الظلم والاستبداد»[2] .

وقد وصف الصحفي أبو اليقظان تأثير هذه الظروف على النفســـية العامـــة للشـــعب الجزائري إثر جولة قام بها في أنحاء القطر الجزائري في سنة 1937م « في سياحتي هذه شاهدت أينما حللت كلحا في الوجوه،وتعقدا في الألسنة،وتبرما في النفوس،وحرجا في الصدور،وتذمرا عاما،وقلقا شاملا،وعداوة متمكنة من غير علة،وبغضا مستحكما من غير سبب،ونفورا من كل شيء،وريبة في كل أحد... حتى كان من الناس لهذه الأزمة العصيبة من يفكر في الهجرة تمامـــا من هذه البلاد»[3].

هذه الظروف التي سببها الاستعمار أدت بالجزائيين إلى الهجرة خارج الوطن خاصة إلى فرنسا التي كانت في أمس الحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة لتعويض نقص العمال في المصـــانع الناتج عن الحرب العالمية الأولى، وقد شجعت السلطات الاستعمارية هذه الهجرة لتفرغ الجزائر من سكانها الأصليين،وتحل محلهم المعمرين من جنسيات أروبية مختلفة.

ومن المصائب التي بلي بها الشعب الجزائري كذلك،عمليات التبشير الـــتي تركـــزت في مناطق معينة مثل الجنوب الجزائري،ومنطقة القبائل، وقد كانت العملية تســـتهدف الشـــعب

1- وزارة الشؤون الدينية:آثار ابن باديس ،ج3، ط 1، 1984دار البعث قسنطينة، ص103.

2- أبو اليقظان : جريدة وادي ميزاب،نقلا عن حمادي عبد الله: أصوات من الأدب الجزائري الحديث،دار البعث قسنطينة 2001 ،ص27.

3- أبو اليقظان : جريدة الأمة،عدد 135 نقلا عن:ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط1،دار الغرب الإسلامي بيروت 1985، ص 92.

جسما وروحا،ومن تصريحات قادة الاحتلال المؤيدة لهذه الحقيقة، ما قاله الكاردينال لا فيجري:

«علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه،وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم،فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء،بعيدين عن العالم المتحضر»[1].

وقال كاتب الجنرال (بيجو) «آخر أيام الإسلام قد دنت،وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح،أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا،ونحن إذا أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا،فإننا لا نشك في أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد».[2]

إن الملتفت إلى الناحية الاجتماعية في العشرينيات ليجد أنها مأساة حقيقية،وهذا أصدق وصف يطلق عليها.

ولئن كان هذا الوضع قد طال، وخطة الاستعمار قد نجحت،فإن دوام الحال من المحال،إذ سرعان ما بدأ العملاق النائم يتململ،بعد ظهور عوامل سياسية،واجتماعية وثقافية أعطت تباشير عن حدوث نهضة شاملة،وقد تمثلت هذه النهضة في بروز سياسيين ومصلحين حاولوا لمّ شمل الشعب وذلك«بتجميعه،وتوجيهه وجهة واحدة،وعمل المصلحون للقضاء على الشعوذة والمتاجرة بالعقول والعواطف،كما ساعدت الآمال المشتركة على تقوية الإحساس بالوحدة الوطنية،وبغض الاضطهاد بكافة ألوانه ».[3]

وعلى صعيد آخر عاد الطيب العقبي سنة 1920 من الحجاز إلى الجزائر،« وقد ظل العقبي في بسكرة ومنها كان يبث أفكاره عن النهضة العربية والجامعة الإسلامية والإصلاح الديني والاجتماعي،والتفّ حوله جماعة من الأدباء والمصلحين مثل الشاعر محمد العيد آل خليفة، وقد اشتركوا في إنشاء جريدة (صدى الصحراء) سنة 1926 في مدينة بسكرة »[4].

1- المدني أحمد توفيق:عثمان باشا،نقلا عن خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، ص11.

2- خرفي صالح: المرجع نفسه،ن ص .

3- بن زروق نصر الدين:الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة (رسالة ماجستير،غير منشورة)،جامعة الجزائر 1996/1995 ص20.

4- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981،ص416.

وكان للكلمة الفنية صوت مسموع في هذا المضمار،فالأديب حامل الثقافة كان الضحية الأولى للمأساة، فهو العدو اللذود للمستعمر يفسد عليه خططه،ويفضح نواياه ولهذا كما يرى صالح خرفي:«طغت على الشعراء،وهم مقياس الإحساس القومي موجة من التشـــاؤم،والقتامة والتذمر،والشكوى حتى أنك لتعجب وأنت تتصفح تراجمهم بأقلامهم في(شعراء الجزائر) »[1].

بيد أن موجة اليأس التي سيطرت على الشعر الجزائري في العشرينيات بدأت تتلاشى بعد تأسيس جمعية العلماء التي انضوى تحت لوائها جل الشعراء،فقد أخذت الحركة الإصلاحية منذ 1931 تسجل الانتصار تلو الانتصار في الميدانين الاجتماعي و الثقافي،فقد« أسسوا المـــدارس العربية الحرة،والنوادي الثقافية،والمجلات الأدبية،وحاربوا الأمراض الاجتماعية مثـــل الخرافـــات الغليظة»[2].

وهذا المجهود كان له الأثر المباشر في بعض الشعراء الذين دب فيهم روح الأمل،فأخذوا يتخلون عن كآبتهم ويأسهم إلى التغني بهذه الجهود التي أخذت تحققها جمعيتـــهم،وعن هـــذا التحول يقول محمد العيد آل خليفة:«كنا إلى أمد غير بعيد ننظر إلى هذه الحياة الدنيا في هـــذه البلاد الجزائرية نظرة الآسف الكاسف...أما اليوم،واليوم غير الأمس،أما اليوم وقد بدت طلائع النهضة وطوالعها في الجزائر،وتجلى فيها نور نهار الإصلاح،وأشرق مدّ نـــور العلم،وأصـــبحنا بفضل الله نستقبل عصرا جديدا،ونبعث من مراقدنا بعثا جديدا...»[3].

من غير شك أن محمد العيد في هذا النص يشير إلى التطور الذي بدأت تظهر بواكيره على الحياة الاجتماعية، والثقافية بفضل جمعية العلماء المسلمين.

هذا التغيير لم يكن خافيا على أحد، فقد يراه الذي يذهب إلى الجزائر العاصمة كعينة عن هذا النشاط،أو يلمسه من حديث العامة،وقد أكد هذه الحقيقة مالك بن نبي حين عـــاد مـــن فرنسا،بمجرد حديثه مع الشيال الذي يحمل حقائبه، وبمجـــرد رؤيتـــه لافتـــة نـــادي الترقـــي بالعاصمة،تلك اللافتة« المكتوبة بالخط العريض التي لا تعني إلا شيئا واحـــدا هـــو أن موجـــة الإصلاح قد وصلت إلى هنا،وأيقنت أن هذا التغيير البسيط ستتلوه تغييرات جذرية»[4].

1- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص17.

2- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،ص 419.

3- ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه،ص89،90.

4- ابن نبي مالك:مذكرات شاهد القرن(الطالب)،دار الفكر بيروت (د،ت)،ص82.

هذا هو الوجه الجديد للحياة الاجتماعية،بعد تأسيس جمعية العلماء،وبداية جهودها في الإصلاح الجذري لحال الأمة التي بدأت تجتاز أدق وأصعب مراحلها إلى الحياة الحرّة الكريمة.

III - المؤثرات الثقافية في حياة الشاعر:

لقد لجأت فرنسا منذ وطئت أقدامها أرض الجزائر إلى وسائل مختلفة لمحو تاريخها،وطمس شخصيتها،وقطع حبال اتصالها بالعروبة و الإسلام،وتفننت في ابتكار الوسائل لتحقيق ذلك،وأهم ما ركزت عليه هو التدمير المعنوي للشعب الجزائري وإشعاره بأنه دون مستوى المحتل،ومن ثم القبول بفرض إرادته وسيطرته عليه.وكان من بين وسائلها توظيف الأدب لهذه المهمة القذرة،وبهذا«ظهر فن جديد من فنون الأدب في اللغات الغربية لا يُعنى إلا بتحري الصفحات السود من تاريخ الشعوب المغلوبة،والغوص على مثالبها،وتشويه حسناتها، وطمس آثارها،ونسبة ما شهرت به من منجزات حضارية إلى شعوب أخرى »[1].

وبهذه الطريقة ينشأ الجيل متنكرا لماضيه،خجلا من انتمائه القومي أو الحضاري،سهل الانقياد للعدو.

وهكذا نجحت سياسة الاستعمار أحيانا،وكان من ثمارها للعدو ظهور بعض الأدباء والزعماء مستسلمين للمنطق الاستعماري،مروجين لأفكاره،والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية،ولعل هذا يبدو بشكل أوضح في قول أحد أبناء المدرسة الفرنسية،فرحات عباس«ولو أني اكتشفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين،ولما خجلت من ذلك فالرجال الذين ماتوا من أجل مثلهم الوطنية مكرمون محترمون،ولا تساوي حياتي أكثر من حياتهم ومع ذلك فلن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن ذلك الوطن ليس له وجود.لقد سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات،فلم يحدثني أحد عنه،ولا يمكن البناء على الهواء،ولقد استبعدنا تماما جميع هذه الأوهام لنربط نهائيا مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذه البلاد »[2].

وفي هذا القول أبلغ تأثير للحملة العنيفة التي شنها أدب الاستعمار لزعزعة النفوس،وخلخلة الثوابت.وقد تصدت جمعية العلماء لدعاة الاندماج، ورد الإمام ابن باديس على فرحات عباس:«إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ،وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا

1- سلمان نور:الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط 1،دار العلم للملايين بيروت 1988،ص46.

2- جريدة الوفاق:1963/02/23نقلا عن خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث، ص96، 97.

الأمة الجزائرية المسلمة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا،وهذه الأمـــة الجزائريـــة الإسلامية ليست فرنسا،ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت »[1].

ومن وسائل الاستدمار كذلك،الإبادة الثقافية التي مارسها على الثقافة الجزائرية،فقد أغلق المدارس،والمراكز الدينية التي كانت تنبعث منها هذه الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة«ونهـــب جنوده الكثير من المخطوطات العربية القيمة وأتلفوا بعضها»[2].

وهذا الخراب الفضيع الذي منيت به الثقافة الجزائرية، و الاستلاب الفكري الذي تعرض له بعض الجزائريين،جعل حالة الجزائر الثقافية يرثي لها الصديق،ويشمت بها العدو،وهذا المـــآل أدى إلى تعاطف بعض المفكرين والمؤرخين وراء الحدود الجزائرية،فالمؤرخ التونســـي(عثمـــان الكعاك) يصدر في سنة 1925 كتابيه(بلاغة العرب في الجزائر) و(موجز التاريخ العام للجزائـــر) « ويؤكد الكعاك أن باعثه على ذلك ما لمسه في أبناء الجزائر من انفصال عن الماضي، كـــاد يفقدهم كل إحساس بالشخصية والذاتية»[3].

ومن أخطر أسلحة الاستعمار كذلك تغريب الجزائريين عن اللغة العربية ففـــي أواخـــر القرن التاسع عشر زار أحمد شوقي الجزائر،وعندما عاد إلى القاهرة تناقلـــت الصـــحف قولـــه المشهور « ولا عيب فيها(أي الجزائر) غير أنها قد مسخت مسخا،فقد عهدت مساح الأحذية يستنكف عن النطق بالعربية،وإذا خاطبته لا يجيبك إلا بالفرنسية»[4].

مع العلم أن مساح الأحذية لا يصلح معيارا للحكم على حالة الجزائر الثقافية،ولكن ما يؤكد تردي حالة العربية،وانفصال الجزائر النسبي عن المشرق، أن محمد عبده رائد النهضـــة في مصر زار الجزائر سنة 1904،ولم يثر مروره انتباها « وقد تحدث مفتي القاهرة أمام جمع صـــغير بمسجد متواضع في حي بلكور،ولم يخطر ببال أحد على ما يظهر أن ذلك العالم المفسر كـــان باعث النهضة السياسية والدينية،والثقافة الإسلامية»[5].

1- الشهاب، أفريل1936، نقلا عن خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، هامش ص109.

2- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص 53.

3- الكعاك عثمان:موجز التاريخ العام للجزائر نقلا عن خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص99.

4- ا لشهاب،مجلد 10 مارس 1934 نقلا عن سلمان نور:المرجع نفسه،ص58،57.

5- جوليان شارل أندري:أفريقيا الشمالية تسير،الدار التونسية للنشر 1976،ص125.

وقد زار أحد الصحفيين المصريين الجزائر مطلع القرن العشرين،وأفزعه وضعها العلمي،وتقهقر الفصحى فيها،فكتب:«إن حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدا،ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات،بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن،فلا الحكومة تسعى في حفظها،ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح مدارس »[1].

هكذا إذن حارب الاستعمار اللغة والثقافة العربية،وضيق عليها الخناق في عقر دارها،في حين وفر كل الظروف لتعميم استعمال الفرنسية في جميع الميادين،وفرضها بمنطق القوة،والقوانين التي سنها.

ولكن على الرغم من هذا فإن الشعب الجزائري يُعرف بالتحدي،فقد تخبو فيه جذوة المقاومة،ولكنها تعود إلى الظهور بهبوب أول نسمة عليها،فبمجرد نهاية الحرب الكونية الأولى،وما رافقها من أحداث،شعر الجزائريون ببصيص الحرية،وبدأت ردّات الفعل في وجه محاولات المسخ والتشويه على أكثر من صعيد،واتخذت أنواعا من المظاهر،واعتمدت فنونا من الوسائل المتكيفة حسب الظروف،ومن هنا نراها بارزة حينا في الاعتراض القانوني المهذب،الذي أثبت الجزائريون من خلاله أنهم شعب متحضر عكس ما يدعي الاستعمار،ومرة تبرز ردات الفعل في الصدام المسلح كما حدث فيما وقع من ثورات،ومرات أخرى تتجلى في إنشاء الجمعيات الدينية والسياسية التي اعتمدت على وسائل مختلفة للمقاومة.

وللحديث عن الإصلاح الثقافي في الجزائر خلال مسار الحركة الوطنية يجب الوقوف عند:

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لقد بعث الله للجزائر رجلا عقائديا مصلحا هو الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي نذر حياته لبعث النهضة القومية والثقافية في الجزائر مع مجموعة من كبار العلماء والأدباء والشعراء،وقد أسفرت مجهودات هذه الجماعة عن تأسيس جمعية العلماء،وكانت مبادئها ومواقف أعضائها ونشاطهم يعطي صورة واضحة عن التمسك بثوابت الأمة الجزائرية،ورفض

1- الشهاب، مارس 1934، نقلا عن سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص58.

الإدماج والاحتلال باسم الثلاثي المقدس:الدين والثقافة والوطن« فكانت أعمالهـــا المطبوعـــة بطابع تربوي تثقيفي مدخلا إلى موقف سياسي »[1].

وقد تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مـــاي1931 بنادي الترقـــي بـــالجزائر العاصمة،وتولي الإمام ابن باديس رئاستها حتى وفاته سنة 1940،وقد كانت مرجعية أصـــحابها مستمدة من حركة محمد عبده الإصلاحية.

وكان دورها طلائعيا رياديا لم يسبق له مثال في تاريخ الحركة الوطنية ويتمثـــل ذلـــك في:«إثارة النخوة الوطنية،والعزة القومية،وتنمية الوعي الـــديني والاجتماعي،فـــأثرت الحيـــاة الفكرية والاجتماعية،والسياسية بمفاهيم مازالت تمد الحياة الجزائرية بمدد لا ينفذ مـــن الطاقـــة الحية، والإدراك السليم للأمور »[2].

وقد اتفق أعضاؤها على إخفاء البعد السياسي والثوري وراء المقاصد الدينية والثقافيـــة المعلنة في قانونهم الأساسي، وقد كان نشاطهم في المجال الاجتماعي والديني هو بعـــث نهضـــة فكرية دينية قائمة على القرآن،والسنة النبوية،وهدي السلف الصالح، وفي المجال السياسي تهدف إلى بعث شخصية وطنية أصيلة لا تتأثر بتيارات التغريب.وقد ركزت أعمالها منذ تأسيسها إلى قيام الحرب العالمية الثانية في العمل علـــى تثقيـــف الشـــعب بجميـــع فئاته،وتوعيتـــه دينيـــا واجتماعيا،ويمكن تحديد أهم ما تركز عليه الإصلاح لدى جمعية العلماء في العناصر الآتية:

1- التعليم

على الرغم من الحرب الشرسة التي شنها الاستعمار على الثقافة العربية في الجزائر،وبالرغم من قلة الإمكانيات المتاحة لأصحابها،ووسائل المحافظة عليها،فقد حافظت علـــى مكانتـــها في نفوس الجزائريين وذلك لأن «الأمة الجزائرية كانت من الحصانة اللغوية والوطنية ما لم تكن من السهولة واليسر أن يؤثر فيها وجود الاستعمار ولو دام قرونا طويلة »[3].

1- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص130.

2- رمضان محمد الصالح: (جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي)،مجلة الثقافـــة،وزارة الثقافـــة والسياحة الجزائر عدد 83 ، سبتمبر أكتوبر 1983،ص359-360.

3- مرتاض عبد الملك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر(د.ت)،ص17.

كما يعود الفضل في صمود هذه اللغة في وجه رياح الاستعمار العاتية إلى اهتمام جمعيـــة العلماء بإنشاء المدارس الحرة،«وقد بلغ عدد المدارس التي انتظمت في سلك الجمعية ما يزيد عن مائة وخمسين مدرسة يقوم بالتعليم فيها بضع مئات من المعلمين، والمديرين أما عدد التلاميـــذ فقد أربى عن 50 ألفا »[1].

وقد كان للشاعر محمد العيد دور كبير في الدفاع عن اللغة العربية، سواء مـــن خـــلال تدريسه لها بالمدارس التي أنشأتها جمعية العلماء وهو طرف فيها،أومن خلال ما كان يدبجه من مقالات ينشرها في الصحف و الجرائد،أومن خلال القصائد الغرّ التي كان يلقيها مطلـــع كـــل مناسبة في الأندية والمدارس.

وقد اهتمت هذه المدارس بتعليم وتربية البنين والبنات اللغة العربية والدين الإســـلامي ومبادئ العلوم والمعارف الأخرى، كالتاريخ والحساب والجغرافية لمن لم يكن لهـــم حـــظ في التعليم الرسمي.

كما قامت الجمعية ببناء المساجد الحرّة –بعدما تم منع رجالها من التدريس في الجوامـــع الرسمية التي تشرف عليها الإدارة الاستعمارية اللائكية- لتعليم الكبار،وتثقيفهم دروس الـــوعظ والإرشاد،حتى يتفقهوا في دينهم،ويتعلموا لغتهم ،وتاريخ بلادهم ليتمسكوا به .

وقد كانت الجمعية تهدف في حركتها التربوية إلى مرامي بعيدة هي تكوين جيش صالح وقائد في الجزائر يعمل على إحداث النهضة، وقيادتها في الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى تحرير البلاد. ولطالما حاولت السلطات الاستعمارية عرقلة جهود جمعية العلماء لمنعها من أداء دورها، بوضع القوانيـــن«القانون الذي صدر عن وزير الداخلية الفرنسي ويقضي بتعطيل جريدة السنة لسان حال الجمعية »[2].

كما تم منع أعضاء الجمعية من إلقاء الدروس في المساجد،وتم منع تعليم القرآن،واللغـــة العربية إلا برخصة من السلطات الاستعمارية،فقد«طلب من ابن باديس أن يقدم رخصة تتـــيح له التدريس بالجامع الأخضر مع العلم انه كان يمارس هذا العمل منذ سبعة عشر عاما خلت و لم يطلب منه تقديـــم هذه الرخصة »[3].

1- رمضان محمد الصالح: (جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي) مجلة الثقافة، ص359-360.

2- قليل عمار:ملحمة الجزائر الجديدة: ط1،ج1،دار البعث قسنطينة1991،ص143.

3- قليل عمار:المرجع نفسه،ص143.

وعلى الرغم من هذه العراقيل فإن الجمعية استطاعت أن تؤدي رسالتها كاملة «حتى أن كثيـــرا من المؤرخين يعتبرون جمعية العلماء المسلمين المعول الأول الذي وجه الضربات الأولى لصرح المستعمرين في الجزائر »[1].

وقد استطاعت جمعية العلماء في وقت قصير أن تقوم بنشاط واسع يغطي معظم التراب الوطني في تحقيق الأهداف التي تصبو إليها،كما أثمرت جهودها في تكوين الجيل الذي يتـــولى القيادة عبر أنحاء الوطن« فكان عماد النهضة،وطليعة المناضلين من أجل تحريـــر الـــبلاد مـــن المستعمر»[2].

2 - الصحافة:

لقد أدرك زعماء الإصلاح في الجزائر ما للصحافة من أهمية في تنوير الرأي العام.وبـــث الوعي الاجتماعي والقومي والسياسي فأسسوا صحفا «كانت مدرسة كبرى للوطنية،ومصلحا عظيما للمجتمع،ومثقفا كفءً للشعب،ومنبرا للخطباء والأدباء ،ولعبت دورا كبيرا في إحيـــاء اللغة،،وإعطائها المرونة والحيوية»[3].

وكانت هذه الصحافة من بواعث النهضة الشاملة التي شهدها الجزائر في العقود الأولى من القرن العشرين،فضلا عن دورها الكفاحي والبطولي في معركة التحرر الوطني.

ومن أشهر تلك الصحف(الشهاب) التي أصدرها الإمـــام ابـــن بـــاديس وأتباعـــه في 1925/11/12،وكانت من أهم الوثائق التي حافظت على الشخصية الوطنية«وقد اســـتطاعت خلال خمس عشرة عاما،والتي كان يديرها ابن باديس،استطاعت أن تظهر للوجود،وان تحـــدد لها نظرية اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية،وكان للشهاب مكانـــة عالميـــة لـــيس فقـــط في الجزائر،بل وفي مصر وسوريا»[4].

وهذا الحكم على الجريدة نابع من الظروف الصعبة التي نشـــأت فيها،وكـــذلك مـــن المستوى الأدبي الرفيع الذي تميزت به مقالاتها،والقصائد الشعرية التي كانت تتصدرها للشـــاعر محمد العيد أو لغيره.

1- قليل عمار:ملحمة الجزائر الجديدة،ن ص.

2- درار أنيسة بركات: أدب النضال في الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 ص 45.

3- الطمار محمد:تاريخ الأدب الجزائري،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981 ص 432.

4- خضر سعاد محمد:الأدب الجزائري المعاصر،المكتبة العصرية بيروت 1967 ص 51.

ومن هذه الجرائد جريدة البصائر التي صدر أول عدد منها بالجزائر العاصمة يوم الجمعة 1935/12/27،وانتقلت إلى قسنطينة بعد أربع سنوات،وكان لها دور كبير في الدفاع عن العروبة والإسلام.

وكانت تلك الصحف منبرا للأدب الذي صور أحداث ومآسي الشعب الجزائري في تلك الفترة المظلمة من تاريخ الجزائر،ولمعت أسماء كتاب وشعراء كبار في مجال الكفاح من أجل الحفاظ على الجزائر عربية مسلمة،ومن هذه الأسماء اللامعة في فن المقال ابن باديس،الإبراهيمي،الطيب العقبي،العربي التبسي،وفي مجال الشعر مفدي زكريا،رمضان حمود،إبراهيم أبو اليقظان،السعيد الزاهري،ومحمد العيد آل خليفة الذي كان له دور كبير في النضال الصحفي،حيث كانت قصائده تتصدر الصفحات الأولى معبرة عن مختلف الأحداث الوطنية،وكمثال على ذلك محاولة الاغتيال التي تعرض لها الإمام بن باديس من طرف بعض المرتزقة في بداية جانفي 1927.وأمام هذا الحدث الجلل«صدح الشيخ محمد العيد بقصيدة توشحت عنوان(حمتك يد المولى) نشرت في العدد الأول من الشهاب الصادرة في 27 جانفي 1927»[1]. وظل ينشر فيها شعره.

أما صحف الجمعية فقد أخذت حصة الأسد من الأعمال الإبداعية للشاعر لاسيما البصائر في سلسلتها الأولى (1935 - 1939) والثانية التي استمرت في الصدور من (1947 إلى 1956) وفيها لا نعثر على شعر محمد العيد فقط بل نجد له مقالات نثرية.

ونظرا للدور الريادي الذي لعبته الصحافة،فقد واجهت عقبات كثيرة كانت تخلقها السلطات الفرنسية لعرقلة ظهور وانتشار الصحف حيث كانت « توقف أية صحيفة لا ترضيها لهجتها واتجاهها،وكان سيف الرقابة مسلطا على أصحاب الصحف العربية »[2].

ومن المضايقات التي تتعرض لها الصحافة ما ورد في جريدة الصراط معللا تأخرها عن القراء بعنوان:قانون جديد « يوجب على مدير الصحيفة أن يقدم طلبا مع نسختين من جريدته لمدير البريد طالبا منه الإذن بتوزيعها،ومدير البريد لا يأذن بتوزيع الجريدة إلا بعد جواب وكيل

1- مصمودي فوزي: (محمد العيد آل خليفة الوجه الآخر لنضاله الصحفي)،البصائر سلسلة 4 سنة 6 عدد 264 ، 28 نوفمبر إلى 5ديسمبر 2005 ص10.

2- درار أنيسة بركات:أدب النضال في الجزائر،ص55.

الحق العام بكون هذه الجريدة قائمة بواجب القانون الصحافي،ولانتظار هذا الإذن من مـــدير البريد قد تتأخر الجريدة أياما »[1].

وإن المتصفح للإحصائيات الكثيرة التي أوردت عدد الصحف الجزائرية التي كانت تصدر ثم تصادر بعد عددين أو ثلاثة ليدرك مدى تضييق الاستعمار للخناق على الصـــحافة العربيـــة الجزائرية،كما يدرك ثبات الجزائريين واستماتتهم في المقاومة القلمية.ففي سنة 1934 نشـــرت جريدة الأمة للشيخ أبي اليقظان إحصائية بعيدة الدلالة في تجسيم استماتة الشعب الجزائـــري في كل ما من شأنه أن ينهض بدينه،«وهذه الإحصائية تؤرخ لثلاثين سنة تمتـــد مـــن (1904 إلى 1934) وتعدد ما صدر فيها من جرائد عربية وأسس من مدارس ومعاهد ونوادي،ولن اعمـــد إلى سرد الأسماء وإنما اكتفى بالأرقام »[2].

33 جريدة ومجلة.

18 جمعية.

14 ناد.

150 معهد ومدرسة.

ويصف الدكتور إحسان حقي حالة هذه الصحافة قائلا: « إن حرية الصحافة مصـــونة في بلاد الجزائر ما دامت هذه الصحف تسبح بحمـــد فرنســـا،وما دامـــت تصـــدر باللغـــة الفرنسية،وأما إذا كانت صحيفة عربية،أو أرادت أن تقول الحق فسيف الظلم مسلط عليها،ولا تعدم الحكومة ألف حيلة للقضاء على صحيفة أو على صاحبها أيضا »[3].

ولكن هذا الاضطهاد لم يكن ليثن الجزائريين عن عزمهم وتصميمهم حـــتى أن بعـــض الصحف كانت تطبع بتونس وتوزع بالجزائر.انه التحدي الصحيح لكل منـــاورة اســـتعمارية « فلا يتوارى المشروع باسم حتى يطالعنا بآخر،ولا تختفي الجريدة (منتقـــدا) حـــتى تعانقهـــا (شهابا) ولا نفتقدها (نورا) حتى تفاجئنا(نبراسا) »[4].

1- مجلة الصراط:دار الغرب الإسلامي عدد 3 الاثنين 25 مارس 1933.

2- خرفي صالح:شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى) جامعة الدول العربية،معهد البحوث والدراسات 1969 ص19.

3- دار أنيسة بركات:أدب النضال في الجزائر،ص55.

4- خرفي صالح:المرجع نفسه،ص20.

وأصبحت ظاهرة صدور الجريدة أو اختفاؤها السريع لا تستلفت حتى النظر عند محمــد العيد «وهو يتحدث إلى القراء متقمصا مجلة الشهاب بعد احتجاب المنتقد سنة 1926 »[1].

خليا عنكما حديث احتجابــي عرجا بي إلى العلا،عرجــا بي

فلئن رحنا غيلة لافتراءات فإني قد أبت خــير مآب

وتفاديا لشر الاستعمار لجأ العديد من الكتاب بهذه الصحف إلى استعمال الحيلة للإفلات من الرقابة،فينشرون مقالاتهم وأشعارهم بأسماء مستعارة.

3 - الأندية و المراكز الثقافية والجمعيات:

بالإضافة إلى الدور الريادي الذي لعبته الصحافة في النهضة الفكرية،هناك النوادي الأدبية والجمعيات الثقافية،فبين سنوات (1890 ــ 1914)كان هناك عدد من هذه المراكز التي كانت تؤدي وظيفة المدرسة،وخلوة الأحاديث،وتعد ملتقى اجتماعيا للرياضة،والإسعاف والكشــافة ومقرا للنشاط السياسي. وأكثــر أسمــاء هــذه المراكــز تــدل علــى روحهــا وبرامجهــا ونشاطها،مثل:التوفيقية،ودادية العلوم الجديدة،نادي التقــدم،نادي الشــباب الجزائري،نــادي الاتحاد،الرشيدية،نادي صالح بأي.

ومع بداية العقد الثالث من القرن العشرين،حين دعا ابن بــاديس إلى اليقظــة العلميــة والثقافية،وإلى إنشاء المدارس ونشر التعليم،و إلى بناء مجتمع جزائري عربي مسلم له كيان قوي - أمام هذا الوضع - ظهرت الحاجة إلى الاجتماعات و إلى منتديات تأوي إليها النخبــة،وإلى خلايا تساعد على التنظيم الداخلي للشعب،بناء على هذه الحاجة أنشأ العلماء الأندية والمراكز الثقافية:« ففي سنة 1934 كتبت جريدة (لالوت سوسيال) الصراع الاجتماعي عدد 1- 15 جوان تقول:إنه لا يوجد مكان في الجزائر لم ينشئ فيه العلماء منظمة بطريقة أو بأخرى»[2].

وهذه النوادي كثيرة لا يمكن تفصيلها،وإنما نكتفي هنا بالحديث عن أهم المراكــز الــتي عرفت نشاطا أدبيا كبيرا في تلك الفترة.

أ - نادي الترقي:

هذا النادي هو أول نادٍ أنشئ على النظام الحديث،وكان له من الاتساع،وحسن الإدارة ما جعله يسهم بدور فعال في تاريخ الجزائر الحديث «فقد احتضن الحركة الوطنية منــذ 1927

1- خرفي صالح:شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى)،ص19.

2- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية ج2،ص423.

حيث عقدت فيه المؤتمرات الهامة،وانبثقت عنه كثير من الأفكار الوطنية،كفكرة جمعية العلماء،والمؤتمر الإسلامي،ومشروع البصائر »[1].

وقد كان هذا النادي ملتقى السياسيين، وجمهور العلماء «وكان ابن باديس يلقي المحاضرات في هذا النادي كلما مرّ بالجزائر العاصمة،كما كان النادي مركز لقاء الطبقة الجزائرية المثقفة،والزائرين الأجانب،ولا سيما من الشرق الأدنى »[2].

إلى جانب ذلك كان محجة الأدباء والشعراء تلقى فيه الخطب الحماسية،والقصائد الرائعة «ومن الأدباء والشعراء الذين لمعوا فيه وذاع صيتهم منه محمد العيد الذي قال فيه»[3]:

صفت بساحتك الوجوه   ورددت فيك الحكم
فرأيت ما يجلو العمى   وسمعت ما يجلو الصمم
ودخلت ظلك أستجير   به و أنعم من أمم
واتيت ميدان اللسان   به و ميدان القلم[4]

«ويمكن اعتبار هذا التكتل الجماعي في تلك النوادي والجمعيات نواة للتكتل الجماعي الأكبر في وطن واحد تشكل الثقافة الوطنية فيه قاسما مشتركا بين أبنائه »[5].

وعن مكانة هذا النادي الأدبية آنذاك يقول عبد الملك مرتاض « لا يغالي الباحث في جوانب نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر أثناء العقد الرابع من هذا القرن أن يعدّ نادي الترقي بالجزائر،بل في مجموع الوطن كعكاظ في الجاهلية في جزيرة العرب،و كالمربد في البصرة أثناء القرن الأول الهجري »[6].

ويعتبر ديوان الشاعر محمد العيد خير شاهد على ذلك فهو يحتوي على كثير من القصائد التي ألقاها في مناسبات وطنية أو دينية في النوادي أو الجمعيات وعلى سبيل المثال القصائد الواردة في الصفحات(247- 250- 258).

1- سعد الله أبو القاسم:دراسات في الأدب الجزائري الحديث،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985،ص 116.

2- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية ج2 ص423 – 424.

3- سعد الله أبو القاسم: دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص116.

4- العيد محمد:الديوان،ص99.

5- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص160.

6- مرتاض عبد الملك:نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ص33-34.

و لم يكن دور هذا النادي يقتصر على المسائل الدينية أو الاجتماعية الإصلاحية كما يعتقد البعض،بل كان يتخطى ذلك إلى القضايا السياسية كما يتجلى من خلال تصريح مؤسسه أحمد توفيق المدني:«لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسي،وكانت قوانين(الانديجينا) تحرم الاجتماعات،فكانت كل الحركات الجزائرية تتسم بقلة النظام، إلى أن وفقنا الله لوضع معقل بعاصمة الجزائر كان له تأثيره العظيم على الحياتين السياسية والاجتماعية،وذلك هو نادي الترقي الذي تمكنا من تأسيسه بعد جهود عظيمة»[1].

ب- مركز قسنطينة:

لا شك أن أول ما بعث الحركة الثقافية بهذه المدينة هو نادي (صالح باي) الذي يقول عنه محمد الهادي الزاهري،وهو بصدد الترجمة للشيخ محمد المولود بن الموهوب «إنه لم يأل جهدا في بث العلم بين طبقات الأمة بجد ونشاط إلى أن تأسس نادي (صالح باي) فكان أحد المؤسسين له، ولئن سألت عما كان يلقيه فيه من المسامرات الأدبية والاجتماعية وغيرها فدونك من حضروا ذلك،بله هؤلاء وراجع أعداد جريدة (الدييش القسنطينية) و(كوكب أفريقيا) ففيهما الجواب الكافي»[2].

غير أن هذا النادي توقف عن النشاط مع نشوب الحرب العالمية الأولى فقد أشار إليه محمد العيد آل خليفة في محاضرة بعنوان (سير النوادي وحظ الجزائر منها) فقال: «فهل لنا معشر الجزائريين من هذه النوادي حظ ونصيب؟ أما قبل الحرب الكبرى فلا،إلا ما وصلنا من نبأ نادي (صالح باي) بمدينة قسنطينة منذ زمان، وهو اليوم في خبر كان»[3].

وما لا شك فيه أن الحركة الثقافية بقسنطينة بعد الحرب العالمية الأولى مدينة لرائد الإصلاح الإمام ابن باديس الذي كان«يمضي نهاره في الدرس،وقد بلغ عدد طلابه سنة ثلاثة وثلاثين من هذا القرن العشرين ثلاثمائة وستين طالبا،وكانوا جميعا يستمعون إليه ويحضرون دروسه التي كان يلقيها بالجامع الأخضر»[4].

1- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث- ص 140.

2- محمد الهادي الزاهري:شعراء الجزائر في العصر الحاضر،ج2 نقلا عن حمادي عبد الله :أصوات من الأدب الجزائر ي الحديث، ص 24 -25.

3- خرفي صالح:المرجع نفسه،ص 139.

4- مرتاض عبد الملك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص41.

وقد كان لابن باديس جهودا لا تعرف الملل، فهو يعلم الصغار في الصباح والشباب في النهار، والكبار في المساء، في المساجد أو في النوادي،وعن طبيعة هذه الدروس، ورد في مجلة الصراط سنة 1933 إعلان مفاده «تفتح إن شاء الله الدروس الإسلامية بقسنطينة التي يقوم بها جماعة من جمعية العلماء المسلمين،تشتمل الدروس على تفسير الكتاب الحكيم وتجويده،وعلى الحديث الشريف،وعلى الفقه في المختصر وغيره،وعلى العقائد الدينية، وعلى الأخلاق الإسلامية، وعلى العربية بفنونها من نحو وصرف، وبيان ولغة وأدب، وعلى الفنون العقلية كالمنطق والحساب وغيرهما »[1].

وبالإضافة إلى ذلك ففي هذه المراكز كانت تناقش السياسة ويلقى الشعر، ويسمر الأدباء، وتمثل المسرحيات،وقد اشترك محمد العيد في ذلك بإلقاء القصائد الخالدة في أكثر من مناسبة،وقصيدة (ختمت كتاب الله)[2] خير شاهد على ذلك وقد ألقاها سنة 1938 عندما ختم الإمام ابن باديس القرآن الكريم تدريسا وتفسيرا، ومما جاء فيها هذه الأبيات التي تتضمن إشادة بجهود ابن باديس في ميدان التربية والتعليم:

بمثلك تعتز البلاد و تفخر   وتزهر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئا   بمخبر صدق لا يدانيه مخبر
ودرسك في التفسير أشهى من   الجنى وأبهى من الروض النظير وأبهر[3]

ج- مركز تلمسان:

بعد الثلاثينيات انتشرت نوادي كثيرة في كل أنحاء الجزائر خاصة بعد ظهور الأحزاب السياسية، وتنافسها على احتضان الرأي العام، فلم تعد تخل مدينة من نادٍ أو أكثر يرتاده المصلحون وغيرهم يناقشون فيه الشؤون الاجتماعية والثقافية والسياسية «وقد قال الإبراهيمي إنه كان لدى جمعية العلماء وحدها أكثر من سبعين ناديا تحمل رسالتها وتضم أتباعها »[4].

ففي تلمسان كان (النادي الإسلامي،ونادي الشبيبة) وكان معا ميدانا للدعوة الإصلاحية والانبعاث القومي، والذي ندب لتنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة هو الإبراهيمي،وها هو يتحدث عن جوانب الحركة الثقافية التي كان يقوم بها في تلمسان التي كان الإمام ابن باديس

1- مجلة الصراط :العدد5، السنة الأولى،الاثنين 1933/10/16،ص3.

2- العيد محمد:الديوان ص156.

3- العيد محمد:المصدر نفسه،ن ص.

4- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،ص117.

يكثر التردد عليها،يقول الإبراهيمي: « كان رحمه الله يشتد علي في اللوم،ويصمني بالتقصير في حق البصائر الأولى، فإذا زارني بتلمسان،ورأى الدروس تنتظم الساعات، وسمع درس التفسـير بالليل، ودرس الموطأ في الصباح الباكر،ورأى إقبال الجماهير وتأثرهم ابتهج ابتهاج الظافر»[1].

كما كانت دار الحديث بتلمسان ناديا ثقافيا نشيطا يستقبل العلماء من الجزائـر ومـن غيرها،وبلا شك أنه كان للشعر حظ كبير في هذه الدار.

فمناسبة افتتاحها عدت حدثا تاريخيا هاما سنة 1937، ذلك الافتتاح الذي عُدّ مـؤتمرا للحركة الإصلاحية،و أبى ابن باديس إلا أن يعتبره عيدا للنهضة الجزائرية: «فقد ألقـى محمـد العيد في الاحتفال بدار الحديث الذي استمر أسبوعا كاملا ثلاث قصـائد هـي (تحيـة دار الحديث،استوح شعرك،دعاك الأمل) »[2].

وتعتبر القصيدة الثانية(استوح شعرك) «رحلة عبر التاريخ الإسلامي العربي، وجولـة في الجزائر الحديثة،ودستور العمل الإصلاحي الوطني»[3].

وهي قصيدة مؤثرة،حركت أوتار القلوب،وهزت مشاعر المستمعين وهي مـن عيـون الديوان.

إن هذه النوادي والمراكز الثقافية كان لها شأن كبير في اليقظة الفكرية حيـث كانـت تحتشد بها الجماهير طالبة العلم،وكان لها الفضـل في حفـظ الثقافـة العربيـة مـن ريـاح التغريب،وكانت المرتع الخصب للأدب الرفيع،ففيها تلقى الخطابة الرائعة،والشعر الجميل،والمقالة الشيقة.ومن هذه الأندية انطلقت الإرهاصات الثورية التي حملت للشعب الجزائري بوادر الأمل بإشراق فجر جديد.

1- مرتاض عبد الملك:نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر،ص 47.

2- العيد محمد:الديون،الصفحات (79 ــ 143 ــ 233).

3- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص158.

د ـ الجمعيات الثقافية والخيرية: تنوعت الجمعيات،وتعددت،ومنها ما أنشاه الاستعمار لتكريس سياسته،ومنها ما أنشاه الجزائريون لتحقيق مرادهم وكانت في الغالب تقتصر على المهام الاجتماعية والدينية.

وعن نشأتها يقول سعد الله: «بإمكاننا أن نزعم أنها قد سبقت النوادي في التكوين وبالخصوص تلك النوادي التي أشرنا إليها والتي كانت تحمل رسالة وطنية ضخمة»[1].

ومن هذه الجمعيات(التوفيقية والرشيدية)،فالأولى «ودية خيرية تهذيبية أدبية علمية،والثانية وطنية مؤلفة من قدماء تلامذة المكاتب العربية الفرنسية في الجزائر،بقصد نشر العلوم وبثها في عقول الأفراد،وتساعدها الولاية العامة وبلدية الجزائر بمبلغ له بال كل سنة»[2].

ويمكن التعرف بسهولة على أن هاتين الجمعيتين من صنع الاستعمار وتعملان بأوامره،لأن سلطاته تدرك مدى تعلق الجزائريين بلغتهم ودينهم،فهي تتظاهر بالعمل على ما يبدو خيرا للجزائريين في الظاهر ذرا للرماد في العيون.

وحسب ما جاء في مقال أبي القاسم سعد الله في جريدة الآداب اللبنانية سنة 1959 أن الجمعيات التي أسسها الجزائريون تنقسم إلى فرعين،الفرع الأول جمعيات للإصلاح،ونشر الثقافة وأعمال البر،والفرع الثاني جمعيات تخدم الآداب والفنون،غير أن أغلبية الجمعيات كانت من الفرع الأول حتمها وضع الجزائر آنذاك حيث كانت الحاجة ملحة إلى نجدة الشعب أخلاقيا وبدنيا أكثر من حاجته إلى النجدة في الذوق والوجدان[3].

ولهذا السبب كثرت الجمعيات الإصلاحية الخيرية وتألف منها عدد كبير في أهم المدن الآهلة،من ذلك جمعية الشبيبة بالعاصمة،والجمعية الخيرية التي يقول فيها الشاعر محمد العيد:

دامت لنا حرما آمنا وجامعة   كبرى نلم بها الأحزاب والشيعا
خيرية تحت حزب ظل يكلأها   في جانب الله لا خوفا ولا طمعا
على اسمها التف كالدوحات محتفلا   وباسمها اقترح الخيرات و اقترعا[4]

1- سعد الله أبو القاسم:(الجزائر رسالة النوادي)،مجلة الآداب عدد 11 نوفمبر 1959 دار المعارف بيروت ص75.
2- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص139.
3- ينظر:سعد الله أبو القاسم:(الجزائر رسالة النوادي)،مجلة الآداب ص 76.
4- العيد محمد: الديوان،ص257.

وفي قسنطينة فإن طلاب ابن باديس قد أنشأوا سنة 1928 جمعيتين(الجمعية الخيرية الإسلامية،وجمعية النيابة العربية).

ومما لاشك فيه أن الذي يطالع الظروف التي رافقت تأسيس النوادي والجمعيات الثقافية التي كانت تهتم بالإصلاح الفكري، والأدبي(المعنوي) والجمعيات الخيرية التي تعنى بالإصلاح المادي للتخفيف من ظروف الفاقة المؤدية إلى الانحراف الخلقي، يدرك تمام الإدراك أن الذين قاموا بذلك،كانوا يعرفون حق المعرفة أولويات العمل الذي يجب أن يقوموا به، ألا وهو إعداد الإنسان الذي يمكن أن يتحمل المسؤوليات الكبرى.

بيد أن أكبر جمعية أسست هي جمعية العلماء التي سبق الحديث عنها،والتي كانت وراء كل نشاط بعد ذلك،وقد قال عنها الأستاذ محمد الطيب العلوي: «إذن فإنشاء جمعية العلماء المسلمين كان في الوقت المناسب وكان ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديات»[1].

أما الدكتور سعد الله فيقول عنها: «فكانت جمعية العلماء من الناحية الفكرية على الأقل عبارة عن دولة داخل دولة،وكان العاملون فيها يحسبون بكل صدق أنهم ليسوا أناسا كالناس، ولكنهم كانوا جنودا في معركة وراءها- إذا كسبوها- النصر والعزة للوطن وللإسلام و للعروبة »[2].

تلك إذن هي الظروف الثقافية التي نشأ فيها الشاعر محمد العيد،وتفاعل معها ايجابيا، وتلك هي الجمعية التي قضى فيها عمره الذهبي جنديا يناضل ويقاوم بسلاح الكلمة، لا يبغي إلا العزة للوطن وللإسلام وللعروبة.

IV- المؤثرات السياسية في حياة الشاعر:

من غير شك أن الشعب الجزائري على الرغم من طول فترة الاستعمار، لم يكن بعيدا عن الأحداث،وأن مظاهر الحركة الوطنية التي انبثقت سياسيا وثقافيا وثوريا، لم تكن وليدة الصدفة، ولا من صنع الظروف الطارئة،فمن غير المعقول أن يكون ذلك النشاط السياسي،والانبثاق الثقافي المرافق له في العشرينيات دون ممهدات داخلية أو خارجية،ويبقى فقط البحث عن الظروف الذاتية والموضوعية التي كانت سببا في خروج تلك الحركات إلى العلن.

1- العلوي محمد الطيب: مظاهر المقاومة الجزائرية،ط1،دارالبعث،قسنطينة 1985،ص110.

2- سعد الله أبو القاسم: أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1988 ،ص49.

غير أن العارفين من المعاصرين للحالة العامة في الجزائر آنذاك شهدوا «أن الجزائر كانت نقطة هادئة وسط منطقة هائجة وأنذر آخرون بأن هناك تحركات في الخفاء قد تسبب قريبا تلاطمات على السطح»[1].

وأكثر الكتاب متفقون بأن الوعي السياسي الذي أظهر عنه الجزائريون قد تأثر كثيرا بالحرب العالمية الأولى،لأنهم شاركوا فيها بأعداد هائلة «سواء كانوا جنودا على الجبهة الأوربية، أو عمالا في المصانع الفرنسية، أو أقرباء في الوطن،فإن الجزائريين كانوا مندمجين في الحرب متأثرين بها بعمق»[2].

وكان لهذه المشاركة وقع كبير على النفوس حيث اطلع الجزائريون على الحالة السياسية والفكرية في العالم «وتأثروا بالأفكار الليبيرالية التي كانت نشيطة في هذه الفترة»[3].

يضاف إلى ذلك عوامل أخرى أثرت في الحركة الوطنية الجزائرية وأعطتها أبعادا جديدة، ووجهتها في اتجاهات عقائدية مختلفة منها: «تبلور القومية الإسلامية،ومزاحمة ألمانيا لفرنسا في شمالي افريقية،وقيام الثورة البلشفية 1917،وقانون الرئيس الأمريكي ولسون(1924- 1956) الذي حدد به الديمقراطية و نادى بتثبيت دعائمها»[4].

تلك العوامل مجتمعة أدت إلى تشكيل حركات سياسية اختلفت توجهاتها،تبعا لثقافة وتكوين زعمائها،وكان لها تأثير كبير على خط سير الأدب شعره ونثره.

1- حركة الأمير خالد(حزب الشباب الجزائري):

الأمير خالد هو حفيد الأمير عبد القادر،بطل المقاومة الجزائرية وشاعر السيف والقلم،كان ضابطا في الجيش الفرنسي،رفض التجنس بالجنسية الفرنسية،وبعد مرضه وتقاعده فضل الإقامة بالجزائر متفرغا للنشاط السياسي دفاعا عن قومه وبلاده «كان في مطلع العشرينات المتحدث الرسمي باسم الحركة الوطنية الجزائرية، وكان حزبه امتدادا لحركة حمدان خوجة في حزب المقاومة»[5] .

1- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية ج2 ،ص 299.

2- سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه،ص300.

3- الخطيب أحمد: جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي،المؤسسة الوطنية للكتاب1985 ،ص38.

4 - سلمان نور:الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص138.

5 - سلمان نور: المرجع نفسه، ص140.

وهو من الأحزاب السياسية التي ظهرت نتيجة لانتخابات1919 البلدية،والتي جذبت إليها أنظار المعاصرين،«وهو الحزب المعادي للاندماج، الذي سنطلق عليه من الآن (حزب الإصلاح)،والذي كان تحت قيادة الأمير خالد»[1].

وقد أظهر هذا الحزب فعلا أنه وطني في مواقفه،له شجاعة نادرة ومواقف قوية، والحزب يعتبر ثمرة للإصلاحات الفرنسية التي تمنح الجزائريين حق المشاركة في الانتخابات البلدية،مكافأة لهم على الدور الذي لعبوه إلى جانب فرنسا في الحرب، وصار زعيمه على المسرح السياسي الجزائري تدريجيا رمزا للحركة الوطنية الإسلامية، الإصلاحية، على المستوى السياسي،«وأصدر الأمير جريدة (الإقدام) باللغتين،فكانت تنشر لجيل جديد من الكتاب والشعراء ذوي الطموح الإصلاحي ومن هؤلاء محمد العيد»[2].

وهكذا فتح محمد العيد عينيه على النشاط السياسي في سن مبكرة مساهما بالقلم فمن إنجازاته وأعماله في هذا الميدان «منذ أول مقال له يجد طريقة للنشر، و لم يتعد عمره17 عشر عاما متمثلا في مقال فضح فيه الشباب المتفرنج نشره بجريدة الأقدام للأمير خالد في عدد 44 الصادر في 16سبتمبر1921»[3].

وراحت (الإقدام) تعرب عن اتجاهها الوطني الواضح رافضة التجنس، مقاومة نزعة المعمرين الكولون العنصرية الحاقدة، كما تندد بالعائلات البورجوازية الجزائرية المتفرنسة التي كانت محمية بالإدارة الفرنسية،«فحوكم الأمير خالد وجريدته بتهمة ثلب الأعراض، فتوقفت قليلا وذلك في أكتوبر 1922،ومن هنا فإن (الإقدام) تعد أول جريدة عربية تصدر في الجزائر بمثل هذه الروح الوطنية الخالصة»[4].

ومن غير شك أن مواقف هذه الجريدة هي مواقف الأمير خالد فقد عرف عنه أنه وطني مخلص تصدى في مقاومته للمنسلخين عن دينهم، المنتمين لفرنسا،وللمعمرين،وللنواب الحاقدين على الإسلام،فكانت جريدته منبرا للوطنية وقد دفعه إلى ذلك اعتزازه بكفاح آبائه وأجداده

1- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية ج2، ص308.

2- سعد الله أبو القاسم: أفكار جامحة، ص90.

3- مصمودي فوزي(محمد العيد الوجه الآخر لنضاله الصحفي)،البصائر:سلسلة 4 سنة 6 عدد 263 ليوم 21-27 نوفمبر 2003- ص10.

4- ناصر محمد:الصحف العربية الجزائرية(1847-1939) المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980 ص48.

وأصالته، وكان الشاعر محمد العيد من أنصار هذه الطائفة الوطنية المدافعين عنها «وقد أشاد بمواقفه الوطنية في رثائه له بعد أن توفي في دمشق منفيا»[1].

2- حزب نجم شمال أفريقيا:

بعد الاضطهاد الذي تعرض له الجزائريون، وضيق سبل العيش بهم،بعدما جفت منابعه،اضطر الكثير ممن أتيحت لهم الفرصة إلى الهجرة هذا على الصعيد الاجتماعي، أما على الصعيد السياسي فكان على الحركة الوطنية أن تعمل في الخفاء،أو تخرج من الجزائر.

وهكذا أصبحت باريس ملاذا للجزائريين،عمالا ومثقفين تكتلوا فيها بمساعدة بعض الشيوعيين الفرنسيين، الذين استغلوا ظروفهم الاجتماعية،«ونظموا في فرنسا تجمعات سياسية، وشكلوا المنظمات الاجتماعية والمدنية، وخلقوا ووزعوا الصحف الوطنية،وعقدوا المؤتمرات الصحفية»[2].

ويصف المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان كيفية نشأة النجم قائلا:« فقد استمد نجم شمال أفريقيا قوته من مزاج خطيب شعبي هو مصالي الحاج،وبالرغم من عنوانها، فقد كانت حركة النجم تنحصر في جموع العمال بمعامل باريس،وتأسست في مارس 1920 في ظل الحزب الشيوعي،...من أجل الدفاع عن مصالح مسلمي شمال أفريقيا المادية والأدبية والاجتماعية »[3].

وقد ساعد على ظهور هذا الحزب عدة عوامل، منها:مناخ الحرية الذي ساد فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى،وأفكار الأمير خالد الاستقلالية والنشاط الذي قام به بعد نفيه إلى فرنسا.وتكريما له على نشاطه،تم تعيينه رئيسا شرفيا للنجم بعد تأسيسه في مارس1926.

وآخر العوامل هو دور الحزب الشيوعي الفرنسي في استقطاب العمال الجزائريين واستمالتهم لأفكاره.

وقد أدرك مصالي الحاج ذلك،فانفصل عن الشيوعيين مستقلا بأعماله الوطنية لصالح شعبه ووطنه،وسبب له هذا كثيرا من المتاعب،حيث حل الحزب بإيعاز من الشيوعيين الذين

1- سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص 72.

2- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية ج2 ص 394.

3- جوليان شارل أندري: أفريقيا الشمالية تسير،ص 139.

كما يرى عمار بوحوش« كانوا يعتبرون مصالي وحزبه منظمة انفصالية تعمل ضد فرنسا»[1].

وبعد أن حل الحزب سنة 1929 دخل العمل السري،وأصدر زعماؤه جريدة الأمة التي يديرها مصالي الحاج،وركز عمله على فكرة الوطنية الجزائرية والاستقلال التام،ورغم القمع والاضطهاد والنفي الذي تعرض له مناضلوه تمكن من الاستمرار،ثم ما لبث أن بدا عمله في 1936 باسم حزب الشعب.

وقد لعب هذا الحزب-على الرغم من الضغوط- دورا كبيرا في النهضة السياسية والثقافية للجزائر، وفتح طريق الأمل الذي يتطلع إليه الجزائريون وهو الاستقلال،وقد تحلى مناضلوه بالصلابة والثبات على المبدأ،وهذه المزايا أفصح عنها الشعراء في أكثر من موقف،وخاصة مفدي زكريا شاعر الحزب وأبرز مناضليه،وواضع نشيده الرسمي.

أما عن علاقة الشاعر محمد العيد بهذا الحزب،فعلى الرغم من تغنيه بالوطنية مبكرا لم تبد علاقته واضحة بحزب الشعب في العشرينيات،وعلى الرغم من انضمامه إلى جمعية العلماء،وتكريس جل نشاطه في إطارها فإن أقرب حزب إليه كما يرى أبو القاسم سعد الله «هو حزب الشعب طبعا،فالمبادئ الثورية التي كان يؤمن بها،والأهداف (الحرية والاستقلال للجزائر)التي كان يعمل لها تتفق تماما مع مطامح الشاعر التي حملها منذ نعومة أظافره»[2].

يصدق هذا القول على الشاعر خاصة في الفترة الممتدة بين (1936-1954)حيث صار محمد العيد داعية إلى الوحدة بين الأحزاب عندما دبّ بينها الشقاق يقول في قصيدة نشرها سنة1948:

هذه الأرض سوف تنبت عِزا إن تصافت في ظلها الأحزاب
كلنا إخوة من الدين والجنس عليها وكلنا أحباب

ويضيف سعد الله أنه: «بعد سنتين(1950) نشر قصيدة سياسية أيضا في هذا المعنى في جريدة المنار التابعة لحزب الشعب وقد جاء فيها على الخصوص هذه الأبيات التي هي نظم لشعارات الحزب وليس لشعارات جمعية العلماء »[3].

1- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى النهاية 1962،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1997 ص282.

2- سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري،ص46 .

3- سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه ،ن ص.

يا قوم هبوا لاغتنـــام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم فطـــال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تحميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظـــلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا
من فوق جند بالعتيد من القـــوى يلقى العدو ويصمد استبسالا[1]

وهي فعلا دعوة حارة إلى الشعب ليغتنم ما بقي من عمره ويتمـــرد علـــى الاســـتعمار ليحطم قيوده،ويحقق حريته لأنه لا أمن له إلا في ظل وطن حر يرفرف فـــوق ربوعـــه علـــم النصر،ويحميه جيش قوي باسل.

3 ـ الحزب الشيوعي: كما سبقت الإشارة،فإن الحرب العالمية الأولى خلقت أوضاعا دفعـــت بالجزائريين للهجرة المكثفة إلى فرنسا،وهذه الظروف جعلـــت الحـــزب الشـــيوعي الفرنســـي يستقبلهم لاستمالة قلوبهم. «وقد أولى الحزب الشيوعي الفرنسي اهتماما كبيرا لهؤلاء العمال - مستغلا ظروفهم - بإشراكهم في التقاليد الكفاحية للنضال النقابي والسياسي الـــذي تخوضـــه فئات البروليتارية في البلدان الرأسمالية المتطورة»[2].

هذه هي القناة الأولى التي ظهر فيها الفكر الشيوعي بين الجزائريين أما القناة الثانية فهي الحركة الشيوعية العالمية الثالثة (الكومنترن) التي كانت تهتم بتقرير مصير الشعوب المســـتعمرة «إن عمال وفلاحي الجزائر لن يحصلوا على إمكانية وجود مستقل إلا يوم يتخلص عمال فرنسا من كليمنصو ويأخذون مقاليد السلطة بأيديهم»[3].

و لم يتمكن الجزائريون من تشكيل حزب شيوعي جزائري لكون الأفكـــار الشـــيوعية غريبة عن المجتمع الجزائري العربي المسلم،فاكتفى بعضهم بالانضـــمام إلى الحـــزب الشـــيوعي الفرنسي الواقع تحت ضغط المعمرين،وبين تعاليم باريس وموسكو،ولإرضاء هذه الفئة المنضمة إليه سمح لهم بتأسيس الفيدرالية الشيوعية الجزائرية،ولكنها لم تستطع أن تقدم شـــيئا للشـــعب الجزائري فهي تحت سيطرة الحزب الشيوعي الفرنسي المعارض لكل شكل من أشكال الوطنيـــة

1- العيد محمد:الديوان،ص339.

2- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي:تاريخ الأقطار العربية، ج2، دار التقدم موسكو (د.ت)،ص 319،320.

3- سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية،ج2 ،ص338.

الجزائرية،وهذه الفيدرالية كانت لا تهتم إلا«بالعمال الفرنسيين في المدن الرئيسية مهملة الجزائريين الذين كانوا يعيشون في الأرياف»[1].

وهذه المواقف من الحزب الشيوعي الفرنسي،وفيدراليته الجزائرية أبعدته عن الشعب الجزائري وتطلعاته الحقيقية،فأدى به الأمر إلى التنازل للشيوعيين الجزائريين ليؤسسوا الحزب الشيوعي الجزائري المستقل سنة 1935.

ويجمع المؤرخون على أن هذا الحزب لم يتخذ مواقف صريحة من القضية الجزائرية،وظل ينادي بتحسين الظروف الاجتماعية المادية،وإن دعا إلى الاستقلال ففي إطار الاتحاد مع الدولة الفرنسية«لا يمكن أن يكون هناك أمن لشعوب المستعمرات خارج الاتحاد- الذي لا غنى عنه - مع الديمقراطية الفرنسية»[2].

هذه المواقف من الحزب الشيوعي جعلت علاقته مع الأحزاب والتنظيمات الأخرى غير مستقرة،وأحيانا عدائية،خاصة مع حزب الشعب.

وليحسن هذا الحزب صورته أمام الجزائريين كان دوما«أول من يسارع للتجمعات الجزائرية حيثما وجدت وأينما بدرت»[3].

ولهذا لا غرابة أن نجده يتفق مع جمعية العلماء رغم اختلاف مبادئهما ومنطلاقاتهما الفكرية، ويقوم بدعاية واسعة في الترويج للمؤتمر الإسلامي الذي انعقد في جوان 1936،والذي قال فيه الإبراهيمي:« هبت الأمة الإسلامية الجزائرية بجميع طاقاتها على تلك الدعوة الجامعة التي أذاعها الأستاذ (عبد الحميد بن باديس)...فأعلنت يقظتها وشعورها واستعدادها وتضامنها واتحادها،لم يمض على الجزائر الإسلامية في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا يوم أغر محجل تمثلت فيه الأمة روحا وجسما،وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية كهذا اليوم... »[4].

1- سعد الله أبو القاسم:المرجع السابق،ص353.

2- مناصرية يوسف:الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية بين الحربين العالميتين(1919- 1939)،(د.ت) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،ص25.

3- بوصفصاف عبد الكريم:جمعية العلماء وعلاقتها بالحركات السياسية الأخرى(1931 ــ 1945) ط1، دار البعث قسنطينة 1981 ،ص 295.

4 - الإبراهيمي محمد البشير:(المؤتمر الإسلامي الجزائري)،البصائر العدد23 ليوم 12 جوان 1936،دار البعث ط1 قسنطينة1984.

ولكن أبعاد هذا المؤتمر كما يرى صالح خرفي تتجلى في«التلاحم القومي الذي شـــهدته الجزائر ذات يوم،ولقد كان الشعر أصدق صورة لهذه الأبعاد»[1].

وقد قرر المؤتمر بإجماع الحاضرين تشكيل وفد يتوجه إلى باريس«يحمل نسخة من مطالب الأمة الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية»[2].

وقد ترك المؤتمر تأثيرا كبيرا على الشاعر محمد العيد فألقى قصيدة «يخاطب بهـــا الوفـــد ويودعه ويتيمن بهذه الوفادة،وفيها أبيات كانت معانيها سائغة في ذلك الوقت الـــذي كـــان الشعب الجزائري يقنع فيه ببعض الحق»[3].

ومما جاء في هذه القصيدة:

صادف رضا والق رفدا   يا وفد بوركت وفدا
وأم باريس ركبا   باليمن تحدو وتحدى
باسم الجزائر فاســـأل   باريس لا تخش ردا
إن الجزائـــر ترجـــو   باريس ألا تصـــدا
خاب الذين أقامـــوا   بين البلادين ســـدا
غدا بباريس تلقـــى   عطفا وتكسب حمدا[4]

كما كان لمحمد العيد قصيدة أخرى في الذكرى الأولى لهذا المؤتمر الذي انعقد بالعاصمة في أوت 1937،هذا المؤتمر الذي التقى فيه كما يرى الإبراهيمي:« ففيه التقى – عـــن فكـــرة وعقيدة - الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني،وفيه اجتمع – على تلك الفكرة- المصلحون والطرقيون و علماء الدين ورجال السياسة»[5].

ومما جاء في تلك القصيدة:

شهدت اليوم مؤتمرا عظيما   أغر لمثله يجب الشهود

1- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص 202.

2 - الإبراهيمي محمد البشير:نقلا عن:العيد محمد،الديوان،هامش الصفحة 301.

3 - المرجع نفسه،ن ص.

4 - العيد محمد : الديوان،ص299.

5 - الإبراهيمي محمد البشير:(المؤتمر الإسلامي الجزائري)،البصائر العدد23 ليوم 12 جوان 1936،دار البعث ط1 قسنطينة1984.

به تبنى الجزائــر من جديــد وتستحيا المآثر والجدود
ونبعث صوتنا الشعبي حــرًا يدوي مثلما دوت رعود
ونقتحم السدود إلى حقــوق حرمناها، وإن علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهــد وأدركنا فأذعــن يا وجود
متى توفى العهود فقد مللنــا تساؤلنا،متى توفى العهــود؟
فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض بلا مهل فقد طال القعــود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا تظللك البنود أو اللحــود[1]

و هذه القصيدة أظهر الشاعر من خلالها عن تطور في الموقف من الاستعمار،وعن حــس سياسي كبير،وعن ثورة تكتمها النفوس مراعاة لظروف المرحلة الحرجة،انفلت التعبير عنها من خلال ما تضمنته القصيدة من ألفاظ التهديد مثل(نقتحم الســدود،إلى حقــوق،وان علــت السدود،بلغنا رشدنا،أذعن يا وجود،قم يا ابن البلاد،خض، البنود،اللحود).ويعلق صالح خرفي على القصيدة قائلا:إن روح الاعتدال التي سادت المؤتمر،غير صــبغة التهديــد الــتي ســادت الأبيات...وإن المرء ليكاد يصدمه التناقض بين التيمن بالمؤتمر من جهة،والإختيار بــين البنــود واللحود من جهة أخرى.[2]

V - مكانة الشاعر في الساحة الأدبية:

إن الدراسات الشرقية عن الأدب الجزائري قليلة جدا إذا ما قورنت بالاهتمام الجزائري بالأدب المشرقي.ومن غير شك أن هذه النظرة لها منطلقات تاريخية مصدرها اعتقاد المشارقة أن الجزائر أرض غير عربية أصلا،وعملت فيها يد الصليبية الحاقدة ممثلة في الاستعمار الفرنسي على إزالة أثر الإسلام عنها،ومن ثم فهي ليست بمترلة المشرق في علاقتها باللغة والأدب.

وقد تغذت هذه النظرة من جهود المستشرقين في إحياء اللغــة والآداب العربيــة الــتي اقتصرت على المشرق« حتى المستشرقين فاتهم هذا أيضا،فالمستشرق كارل بروكلمان في كتابه (الآداب العربية) لم يكن للمغرب في كتابه نصيب»[3].

1- العيد محمد: الديوان،ص 303.

2 - ينظر خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص202،203.

3- فؤاد نعمات:خصائص الشعر الحديث،دار الفكر العربي1971، ص81.

بينما تختلف نظرة كتاب الجزائر عن ذلك،فهم يعتقدون أن للجزائر امتـــدادا مشـــرقيا وشائجه العروبة والإسلام،وكل ما هو مشرقي فهو محل اهتمام لأنه يعد من التراث.

ولتأكيد الحقيقة الأولى أنه قلما التفت نقاد المشرق إلى الأدب المغربي،وبالأخص الأدب الجزائري،وإن فعلوا ذلك فبإشارات سريعة.«فلم يلم المشرقيون إلماما وافيا بـــالأدب المغـــربي عامة،والأدب الجزائري بنوع خاص»[1].بينما تزخر المكتبات الجزائرية بالدراسات عن المشارقة، «لقد حفلت المكتبة العربية كما يقول الأستاذ حنا فاخوري بالكتب تلدها المطابع في خصـــب عجيب،وفي زحمة هذه الثروة الأدبية لبث المغرب العربي مطوي الصفحات مجهول الآثار،وكأنه بعيد كل البعد عن الحركة الفكرية والفنية،وكأنه لا وجود له في التيار العربي الزاخر»[2] .

ولتأكيد الحقيقة الثانية أن جل الدراسات في الجامعات الجزائريـــة مرتبطـــة بـــالأدب المشرقي.

وأدرك نقاد الجزائر هذا الأمر،وعبر عنه أبو القاسم سعد الله بمرارة «وقد كان يـــؤلمني حقا ما عليه المكتبة العربية من فقر في الكتب الأدبية والثقافية الشاملة عـــن الجزائر،حاضـــرها وماضيها.وكان يعز علي كذلك حقا أن أرى الباحثين العرب يقدمون بعـــض مـــن كتبـــوا بالفرنسية من الجزائريين على أنهم أدباء الجزائر العربية،وقصاصوها وشعراؤها،ومفكروها»[3].

ويضيف بكل أسف«وكنت آسف أيضا حقا حين أرى بعض المتخصصـــين في الآداب العربية من أساتذة الجامعة والمعاهد العالية لا يتعرضون لأدب الجزائر القـــديم أو الحـــديث،ولا يستشهدون لأدبائها وشعرائها حين يدرسون قضية عربية هامة شملت الوطن العربي جميعا»[4].

ونظرا لهذا فإن منزلة الأديب الجزائري لا يمكن الوقوف عليها من خـــارج الحـــدود،بل بمقدار ما قدمه لشعبه،أو للإنسانية،أو للفن وهذا يفرض معرفة الدور الذي يجـــب أن يلعبـــه الشاعر في مجتمعه. «كان الشعراء في العرب يتولون قيادة النفوس،كما كان العلماء في الإسلام يتولون قيادة العقول،وبتلك القيادة استطاع الشعر أن ينشر فيهم مكارم الأخـــلاق ومحامـــد الشيم»[5].

1- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ، ص325.

2 - فؤاد نعمات:خصائص الشعر الحديث،دار الفكر العربي 1971، ص81.

3- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص 16.

4- سعد الله أبو القاسم:م ن ،ن ص.

5- الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الإبراهيمي ط1،ج2 ،دار الغرب الإسلامي بيروت 1997 ،ص 380.

1 - مكانة محمد العيد بين معاصريه(قبل الاستقلال):

محمد العيد كان له الفضل الكبير في الحفاظ على مقومات شعبه من عمليــات المســخ المنظمة التي شنها عليه الاستعمار،وقد تحمل قسطه من المسؤولية مقابل ذلك، وتعرض لكل ما تعرض له كل من حمل هم الجزائر وشعبها من مضايقات كان آخرها السجن ثم الإقامة الجبرية.

وقد أدرك معاصروه قيمة الرجل،فأنزلوه المترل الذي يليق به،لأنهم عرفوا مثلــه حجــم المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

وإذا بحثنا عن سر المترلة التي تبوءها محمد العيد خلال مسيرة الحركة الوطنية يرى ســعد الله أنه«لا بد أن نذكر هنا شخصين كبيرين كان لهما الفضل الواضح في صعوده إلى الــذروة (يقصد محمد العيد) التي يقف عليها وهما الشيخان عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي،الأول كرائد عظيم والثاني كصديق حميم،وكلاهما أديب وشاعر،وكلاهما حظي من العيــد بالشــعر الجيد والذكر الجميل»[1].

أما عن الإبراهيمي،فقلما خلت قصيدة ألقاها الشاعر،من تعليق لــه عليهــا أو تقــديم لها،ولنقرأ هذا التقديم: «إننا نعيش بالاستمداد من الماضــي والعمــل للحاضر،والاســتعداد للمستقبل،ولعلكم في هذا المجلس سترتفعون بالذكريات إلى الماضي الخالد حين تستمعون مــن الشعر ما يمثل لكم زهيرا والنابغة في الأولين،وأبا العتاهية والمتنبي في المحــدثين،حين تســمعون الوصية ممزوجة بالحكمة... من شاعر الجزائر،بل شاعر العروبة والإسلام ــ ولا أحابي ــ محمد العيد آل خليفة»[2].

ويضيف الإبراهيمي في موضع آخر: «رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها،وله في كل ناحية من نواحيها و كل طور من أطوارها وفي كل أثر من آثارهــا القصــائد الغــر، و المقاطع الخالدة،فشعره - لو جمع - سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها»[3].

هذه الشهادة من الإبراهيمي الذي ملك زمام اللغة- وشهد له بذلك أدباء كبــار مــن المشرق- تجعل من محمد العيد شاعرا عاش قبل عصره،ثم تجاوزه إلى المستقبل،فشعره همزة وصل بين الماضي والمستقبل،جمع خصائص المتقدمين والمتأخرين.

1- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،ص 127 - 128.

2- الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الإبراهيمي، ج2 ،ص360.

3- الإبراهيمي أحمد طالب:المرجع نفسه، ج1،ص369.

ولا يكتفي الإبراهيمي بذلك فيلتفت إلى الحاضرين قائلا:« إني أجاهركم بأنكم جهلتم قدر شاعركم،و واطأكم على هذا الجهل الجزائريون جميعا،ولو كان محمد العيد في أمـــة غـــير الأمة الجزائرية،لكان له شأن يستأثر بهوى النفس،وذكر يسير مسير الشمس»[1].

أما قائد النهضة الفكرية في الجنوب،الطيب العقبي فشهادته لا تختلف عن سابقاتها،ولا تقل أهمية عنها،فقد وقف أمام الحاضرين،بعد انتهاء الشاعر من إلقاء قصيدة (استوح شعرك) وقال: «إني لم أقبل رأس مخلوق في حياتي،غير أنني هذا الأسبوع قبلت رأس شاب أجاد فن الخطابة هو الفضيل الورتلاني،واليوم أقبل رأس شاب آخر نبغ في فن الشعر حتى وصل الغاية منه وهو الأستاذ محمد العيد»[2]. وهذا الموقف من الطيب العقبي لا يعني إلا شيئا واحدا هو أن القصيدة بلغت ما يريده المتكلم من السامع،وهو إصابة مواطن التأثير من العقل والقلب،وتركت أثرا كبيرا لدى الحاضرين،وهذا حد البلاغة.

ويؤكد شهادة العقبي هذه فرحات بن الدراجي زميل الشاعر الذي كتب مقـــالا عـــن القصيدة والمناسبة والحاضرين جاء فيه: «كان للقصيدة تأثير عميق على نفوس الحاضرين فبكى الناس،وبكى الشاعر معهم...هذه هي أول مرة شاهدت فيها شاعر العروبة والإسلام في الجزائر يَبكي ويُبكي»[3].

هذه الشهادات رغم كونها انطباعات حميمية متبادلة ناتجة عن الصداقة القوية التي متنتها المسؤوليات المشتركة،فإنها تحتمل في طياتها أحكاما نقديـــة صـــادرة عـــن شـــعراء أجـــادوا الشعر،وكتاب ذواقين أتقنوا كل فنون الأدب التي مارسوها بمهارة بالغة.

وهؤلاء الثلاثة هم مدرسة الشاعر وجامعته بأخلاقهم السامية،وبإيمانهم الراسخ،وبســـحر بيانهم،وقد جاء في شعر محمد العيد الكثير من النماذج في الإشادة بمواقفهم.

هذه منزلة محمد العيد بين أهله،فما هي منزلته عند غيرهم؟

للإجابة عن هذا السؤال لنقرأ هذا القطعة للأمير شكيب أرسلان: «كلما قرأت شـــعرا لمحمد العيد الجزائري تأخذني هزة طرب تملك علي جميع مشاعري وأقول:إن كان في هذا العصر شاعر يحق أن يمثل البهاء زهيرا[4] في سلاسة نظمه وخفـــة روحـــه ودقـــة شـــعوره وجـــودة

1- الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الإبراهيمي، ج2 ،ص360.

2- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،ص41.

3- سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه ،ص 41.

4 - البهاء زهير شاعر حجازي عاش ما بين (1185 و 1257)،ينظر سلمان نور،ص545.

سبكه،واستحكام قوافيه التي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها،وأن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه فيكون محمد العيد الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاثة ولا أمل،وتمضي الأيام وعذوبتها في فمي»[1].

ثم يضيف«كان يظن أن القطر الجزائري تأخر عن إخوته سائر الأقطار العربية في ميدان الأدب ولا سيما في الشعر،ولعله بعد الآن سيعوض الفرق،بل يسبق غيره بمحمد العيد»[2].

ذلك هو محمد العيد في عهد الاستعمار،فهو شاعر الشباب،وشاعر الجزائر الفتاة في العشرينيات،وشاعر الشمال الإفريقي و العروبة في الثلاثينيات،و شاعر الحكمة والمثل في ذروة النضج الشعري والمعاناة والمقاسات الوطنية في الأربعينيات و ما تلاها.

وهذه النعوت التي كانت تتصدر قصائده في الجرائد والمجلات طيلة أربعة عقود « لم تكن تصدر عن هوى،وإنما عن قناعته بموهبة الرجل وتمكنه من أدوات التعبير الشعرية،والصدق في القول،والإيمان العميق بوحدة أمته العربية الإسلامية»[3].

وهذا يعني أن إنتاج الشاعر الغزير الموسوم بالصبغة الوطنية المتوثبة هو الذي أهله أن يستحق هذه الألقاب بجدارة.

2 ــ مكانة محمد العيد بعد الاستقلال:

وإذا كانت الشهادات السابقة تعطي صورة واضحة عن مترلة محمد العيد بين معاصريه،فأين نحن منه اليوم في عهد الحرية والعزة والكرامة التي كان يقاوم من أجلها؟

يرى عبد الله الركيبي أن «محمد العيد كان صوتا فريدا متميزا في التعبير عن الحركة الإصلاحية وأهدافها،وسياستها وتوجهها،واستطاع أن يطبع القصيدة العربية في هذا الاتجاه بطابع خاص...وضوح في الرؤيا،وثبات في المواقف»[4].

1- العيد محمد:الديوان، ص (يا).

2- العيد محمد:المصدر نفسه، ن ص.

3- ابن قينة عمر: في الأدب الجزائري تاريخا،وأنواعا وقضايا وأعلاما،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1995 ،ص65.

4- يحياوي محمد الطاهر:أحاديث في النقد والأدب، ص 64.

لكن هذا التصريح لا يتطابق مع وضع الشاعر الذي عبر عنه سنه 1965 «لي أمنيتان في هذه الدنيا،ومرحبا بعدهما بغفوة القبر،أن أحج بيت الله الحرام،وأرى ديواني مطبوعا بين أيـــدي القراء»[1].

فمن غير الإنصاف لشاعر كمحمد العيد حمل هم الثورة،وتنبأ بها قبل أن تقع بأكثر من عقدين كما يتجلى في قوله:

فطر وابن وكرك بين الصخور   مع العصم في الشاهقات العلية[2]

ومن غير الإنصاف ألاّ يرى شعره- الذي سخره لخدمة شعبه - النور إلا بعــد خمــس سنوات من الاستقلال.

والمحزن أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أواخر حياته سأل محمد العيد عن حاله فــرد بهذين البيتين:

يا سائلا عنا وعن أحوالنـــــا   هذا لسان الحال عنــا يخبر

أصحابنا رحلوا،وصرنا بعدهم   غرباء،تنكرنا العيون وننكر[3]

وما أتعسهـــا غربـــــة أن يصير الإنسان غريب الدار في وطنه.

ومن الأخلاق الحميدة أن تفتح الثورة صدرها لأحرار ناصروها وقت المحنة لا تـــربطهم بالجزائر عقيدة ولا قومية ولا دين،إلا العاطفة الإنســـانية،فتلتفت إلـــيهم لتكـــرمهم أحيـــاءا أو موتى،فتخلع على الحي أوسمة التقدير،ولكن لها أبناء تنبؤوا بثورتها ودعوا إليهـــا في مختلــف مراحل حياتهم،ثم لا تلتفت إليهم حتى يشعروا بالغربة والتنكر لفضلهم.

ولعل أول احتفاء بالشاعر هو ما قام به اتحاد الكتاب الجزائريين الذي«كـــرّم الشـــاعر وقلده وسام الأدب سنة 1966 عند تأسيسه،وهو اعتراف بالجميل للشاعر الذي أشاد بالجزائر وكفاحها »[4].

ويلخص أبو القاسم سعد الله المواقف المتداولة حول شخصية الشـــاعر زمـــن تأليفـــه رسالته(فترة الستينات) «أعرف أن هناك رأيين يتحـــدث بهمـــا النـــاس،ولا ســـيما الأدبـــاء

1- خرفي صالح:صفحات من الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر 1972 ص192.

2- العيد محمد:الديوان،ص418.

3- خرفي صالح:محمد العيد آل خليفة(سلسلة في الأدب الجزائري الحديث)،المؤسسة الوطنية للكتـــاب الجزائـــر 1984،ص 133.

4- محمد مختار اسكندر: البصائر،سلسلة4 ،سنة6،العدد 262، (14-21 نوفمبر2005)، ص 10.

والنقاد،أحدهما يرفعه إلى مصاف المبدعين والمجددين،ويضفي عليه الألقاب الكبيرة كالإمـــارة ونحوها،والآخر يعارض الأول ويقول إن هذا الشاعر لم يكن أكثر من نظّام بارع،ويفضل عليه بعض زملائه ممن يعترفون هم أنفسهم له بالسبق والصدارة »[1].

وأيا كانت هذه الآراء والمواقف التي تداولتها الصـــحافة في شـــكل مناقشـــات بعـــد الاستقلال،فإنها لا تعكس المكانة التي يجب أن يكون عليها محمد العيد نظرا للدور الذي قام به في الحركة الوطنية.

ومن المواقف العربية المشيدة بمكانة الشاعر ،وبأهمية شعره هذا الموقف للدكتور شـــكري فيصل الأمين العام لمجتمع اللغة العربية بدمشق «من الصعب أن نتحدث عن الالتزام الفكـــري وحده،وعن الإنتـــاج الفـــني وحـــده،وعن الحـــدود النفســـية وحـــدها، إن كـــل ذلـــك متصل،متشابك،معقد،يقود بعضه إلى بعض،ويتكامل بعضه مع بعض ليؤلف هذا النسيج الذي اسمه في أذهاننا،وصورته في عيوننا محمد العيد، ليكون هذا الإنسان المكافح والشاعر،أو هـــذا الشاعر الإنسان المكافح»[2].

ويضيف الدكتور شكري فيصل: «الإنسان الذي التزم في الشعر أن يكون لخير الجزائـــر ونهضتها،والذي عرف رأي القرآن في الشعر عن طريق المفهوم النقيض وأنهم أولائـــك الـــذين يقولون ما يفعلون »[3].

ومن غير شك أن هذا الحكم النابع من كفـــاءة الشـــاعر الأدبيـــة والتزامـــه الـــوطني والإنساني،هو ما جعل الدكتور يراسله ليعلمه بأن: «مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق قد قـــرر في جلسة السادس من أفريل 1972 انتخابكم عضوا مراسلا في الجمهورية الجزائرية»[4].

و ببسكرة النخيل لا ينكر المرء أن هناك التفاتات حسنة من طرف مســـؤولي الولايـــة ورجال الثقافة في الاعتراف بقيمة الرجل، وخير دليل على ذلك المهرجان الشعري الوطني الذي يقام بهذه المدينة منذ 1982.ولرفيق درب الشاعر،محمد الشبوكي قصيدتان في الـــديوان الأولى بمناسبة المهرجان الشعري الثاني (محمد العيد آل خليفة) ببســـكرة بتـــاريخ 03 مـــارس 1983 بعنوان(شاعر التقى) ومما جاء فيها:

1- سعد الله أبو القاسم: سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص231.

2- بن سمينة محمد: العيديات المجهولة ،ص 248.

3- بن سمينة محمد: م ن،ن ص.

4- بن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلة لحياته ،ص 159.

عاش للشعر والأدب عاش يستنهض العرب
عاش للشعب نافحا ثائـــــرا دونما صخب
أنفق العمر داعيا قـــومه للـــذي وجب
إنما الشعـــر عنـــده من حمـــى الصدر يجتذب
إنما الشعـــر عنـــده شعلة العقل تلتهب
واكب النهضـــة التي قد عـــدا في مدارها وخب
فإذا الشعب ثائر عاقـــد العزم لم يهب[1]

والقصيدة الثانية ألقاها بمناسبة المهرجان الشعري الثالث للشيخ محمد العيد بتـــاريخ 18 مارس 1984 بعنوان (ماعاش قط لنفسه...؟) ومما جاء فيها:

بلد النخيل تحية وسلاما من زائر قلبه بك قد هاما
أني ببسكرة النخيل متيم عشق الفؤاد جمالها لبـــساما
بلد به طلع العباقرة الألى شقوا الطريق و أنهضوا النواما
ولقد عرفت العيد يوم لقيته فعرفت فيه شاعـــرا وهماما
الشعر عند العيد صرخة ثائر يفدي الحمى والضاد والإسلامـــا
كانت قصائده لنا نور يضـــ ـــيء لنا الطريق وللعدو سهامـــا[2]

VI- ديوانه الشعري:

إن جمع شعر محمد العيد آل خليفة يعد من بواكير الأدب الجزائري ذلك لأن الظـــروف التي تم فيه كانت تقتضي هدم ما خلفه الاستعمار،ورفع الأنقاض ثم بناء صرح ثقافة جديـــدة نقية صافية من شوائب المسخ والتضليل الاستعماري، الذي ضرب على معظم التـــراث الأدبي والعلمي الذي وضع في معتقل النسيان حتى لا يبعث من جديد.

وقد حمل الشيخ الإبراهيمي هم طبع ديوان محمد العيد منذ 1938 حينما ألقى قصـــيدة الشاعر نيابة عنه في حفل ختم ابن باديس القرآن تفسيرا وتدريسا بقسنطينة.

وقبل أن يلقي القصيدة قدّم لها بكلمة جاء فيها: «وإذا كان في النهضة العلمية الأدبيـــة بالجزائر نواحي نقص،فمنها أن يبقى شعر محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع »[3].

1- الشبوكي محمد:الديوان المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر1995 ،ص 89.

2- الشبوكي محمد: المرجع نفسه، ص 91.

3- الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الابراهيمي، ج1 ص 369.

ولكن هذه الأمنية لم تتحقق،وكرر الشاعر هذا الطلب في حسرة سنة1951 «حـــرام أن تحرم الجزائر من نفثات شاعرها،حرام أن يبقى شعر ذلك الشاعر الفحـــل غـــير مـــدون ولا مطبوع.

من المسؤول عن ذلك؟ المسؤول الأول هو الشاعر نفســـه،فقد أردنـــاه علـــى جمـــع شعره،وكفيناه مؤونة التصحيح،والتعليق والإنفاق،فأبى وتصعّب »[1].

وقد تم بذل جهود كثيرة قبل الاستقلال لجمع شعر الشاعر المتناثر في الجرائد والمجـــلات بشهادة بعض تلاميذ الشاعر «وقد جمعه لأول مرة تلميذه السيد أحمد بوعـــدو،ثم ســـلمه إلى الشاعر في عين مليلة سنة 1952،وهذا سلمه بدوره إلى الشيخ الإبراهيمي نزولا عنـــد رغبتـــه بهدف طبعه »[2].

لكن الديوان لم ير النور لأسباب تبقى مجهولة،ولم تتحقق إحدى أمنيات الشيخ البشـــير الإبراهيمي قبل الاستقلال وبعده،يقول أحد تلامذة محمد العيد: «كان لي الشرف المشاركة في إنجاز هذا المشروع الأدبي (يقصد جمع الديوان)،حيث كان محمد العيد يود من صميم فؤاده أن يظهر الديوان بأية وسيلة كانت، وهي أمنية من أمنيات الشيخ محمد البشـــير الإبراهيمـــي ،إن أكبر أمنياته ثلاثة: استقلال الجزائر،وعودة مسجد كتشاوة إلى حضرة الإسلام،وطبع ديـــوان الشاعر محمد العيد آل خليفة »[3].

وقد استقلت الجزائر،وعاد مســـجد كتشـــاوة إلى حضـــرة الإســـلام بعـــدما كـــان كنيسة،وخطب العلامة الإبراهيمي أول جمعة فيه ولكن الديوان لم يطبع.

ووفاء لأمنية الوالد حمل الولد(أحمد طالب الإبراهيمي) الأمانة فأسس لجنـــة لمراجعـــة الديوان للمرة الأخيرة،واستكمال ما ينقصه في التعليق على النصوص، ضمت هذه اللجنة(حمزة بوكوشة،جلول البدوي،صالح خرفي،ومحمد الطاهر فضلاء) فوضعت اللمسات الأخيرة للديوان، «ورحبت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق بطبعه »[4].

ولكن ذلك لم يتم وبقي الديوان يرواح مكانه أكثر من سنة،وبعد جولة من طرف أحد أعضاء اللجنة(صالح خرفي) إلى دمشق لاستجلاء الموقف، تبين أن سبب عدم نشر الديوان هـــو

1- خرفي صالح:صفحات من الجزائر، ص 29.

2- بن سمينة محمد: محمد العيد آل خليفة(شخصيات لها تاريخ)، ص55.

3- محمد مختار اسكندر: البصائر،سلسلة4 ،سنة6،العدد 262، (14-21 نوفمبر2005)، ص 10.

4- خرفي صالح: محمد العيد آل خليفة(سلسلة في الأدب الجزائري الحديث)،ص35.

تضمنه لقصيدتين:الأولى في رثاء الغازي(كمال أتاتورك مقتطع لواء الاسكندرون من سورية)، والقصيدة الثانية في رثاء(غازي الأول) ملك العراق.

وهي كما نرى أسباب سياسية رسمية،ويؤكد صالح خرفي «ومع القناعة بموضوعية الاعتراض...فإنه لم يكن من الممكن- وفاءا للتاريخ- استبعاد بيت واحد من ديوان محمد العيد »[1].

وهكذا عاد الديوان المخطوط إلى الجزائر، ولم تخرج طبعته الأولى إلى الوجود إلا سنة 1967، عن منشورات وزارة التربية الوطنية، وأعادت طبعه ثانيا سنة 1979،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في سلسلة (شعراء الجزائر) ثم طبع للمرة الثالثة سنة 1992 من نفس الشركة وهي باسمها الجديد(المؤسسة الوطنية للكتاب).

1- مصادر الديوان:

الحديث عن المصادر التي تم استقاء ديوان الشاعر منها، يجرنا إلى الإشارة للوضع الذي كانت عليه الثقافة في تلك الفترة، حيث كانت منابعها مجففة بموجب القوانين الجائرة التي وضعها الاستعمار للتعامل مع كل ما هو مكتوب بالحرف العربي، وهذا ما لم تتعرض له الدول العربية الأخرى التي خضعت لداء الاستعمار الفرنسي،حتى أن أول كتاب عن الشعر الجزائري ظهر بتونس (سنة 1926-1927) وهو (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) بجزئيه لمحمد الهادي الزاهري.

هذا ناهيك عن ظروف الطبع البدائية السيئة، حيث حدثنا أحد أساتذتنا بما بلغه عن الذين عاصروا الأحداث،أن طابع الصحيفة بمطبعة قسنطينة كان يعيد ترتيب وتصفيف حروف المطبعة،التي كانت تتساقط إثر طباعة كل صفحة،مع ما في هذا الأمر من مشقة،مع العلم أن الصحيفة إذا رأت النور قد يتم مصادرتها وتوقيفها لأتفه الأسباب.

على الرغم من هذا كان التحدي،واستمرت الصحف،وتساقطت في الميدان كما تساقط الشهداء،وكان محمد العيد من الأقلام المتميزة التي ناضلت بالقصيدة الشعرية وبالمقالة الصحفية،بل كان من مؤسسي بعض الصحف،وقد تسابقت هذه الصحف والجرائد على نشر قصائده والتصدير لها.

1- خرفي صالح: محمد العيد آل خليفة(سلسلة في الأدب الجزائري الحديث)، ص37.

ولهذا فإن مصادر ديوان الشاعر الأساسية هي تلك الصحف التي ظهرت مابين(1920-1955)،يقول مختار اسكندر أحد تلاميذ الشاعر:«جمعت القصائد من الجرائد والمجلات التي نشر فيها الشيخ محمد العيد نتاجه الشعري بمجهودي الخاص »[1].

أما مقدم أول دراسة عن الشاعر وهو أبو القاسم سعد الله فيقول في معرض دراسته: «لذلك اعتمدت على شعره،وعلى المشافهة والرواية، ومع ذلك أذكر أن (الشهاب) و(البصائر) كانتا أهم مرجع لي – بعد الديوان- إذ فيهما نشر شعره،وعرفه القراء...وقد استفدت من كتاب شعراء الجرائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي فوائد جمة »[2].

وعلى هذا الأساس نشير إلى بعض المصادر التي تضمنت شعر محمد العيد على سبيل المثال لا الحصر.

أما بالنسبة لكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر فيضم بين متنيه ست قصائد هي (في ذمة التاريخ) التي تضمنت مأساة ضحايا الهجرة المفروضة على الجزائريين و(أسطر الكون) التي تحدث فيها عن وضعه الخاص وأوضاع الجزائريين العامة،(مابال آشيل يهذي...)التي رد فيها على أعداء الإسلام،(رثاء رشيد)التي تحدث فيها على نموذج من ضحايا الاستعمار(الشهاب يحيي الشباب) التي تحدث فيها عن توقيف الاستعمار للصحف وتحدي العلماء له بخلق صحف أخرى،و(حياة نشاط) التي ألقاها بمناسبة صدور جريدة صدى الصحراء.

وهذه الأخيرة كان محمد العيد من المشاركين في تأسيسها ببسكرة مع الشيخ أحمد بن العابد العقبي،منذ أول عدد لها في 07 ديسمبر 1925 وقد أتحفها بقصيدة(حياة نشاط من صدى الصحراء إلى الشعب) حيث هنأ القائمين عليها و هو منهم.

و على الرغم من أن محمد العيد لم يصدر جريدة باسمه فإنه كان ينشر بالجرائد والمجلات الوطنية ذات التوجه الإصلاحي،الصادرة عن الأحزاب كجريدة (الإقدام) للأمير خالد، (والأمة) لمصالي الحاج،أو في تلك الصادرة عن جمعية العلماء التي ينتمي إليها،فقد نشر في جريدة الشهاب في العدد 11 الصادر يوم 21 جانفي 1926 قصيدة(أسطر الكون)،

وفي العدد 13 ليوم 03 فيفري 1926 قصيدة ،(ما بال آشيل يهذي...؟)،

وفي العدد 28 ليوم 27 ماي 1926 قصيدة (أيام الزفاف)،

1- محمد مختار اسكندر: البصائر،سلسلة4 ،سنة6،العدد 262، (14-21 نوفمبر2005)، ص 10.

2- سعد الله أبو القاسم، محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،ص18.

وفي العدد 81 ليوم 27 جانفي 1927 قصيدة (حمتك يد المولى) عن حادثة اغتيال ابن باديس الفاشلة.

وبعدما تحولت الشهاب إلى مجلة في شهر فيفري 1929،ظل وفيا لخطها الافتتاحي،حيث نشر مثلا في العدد الصادر في جانفي 1932 الجزء الأول،المجلد الثامن قصيدة بعنوان(يا نفس) وقصيدة(تحية ووصية) في الجزء الرابع،المجلد الثامن لشهر أفريل 1932،وقصيدة(ألا أيها النادي تحية شاعر) في عدد ديسمبر 1935 الجزء السابع المجلد الحادي عشر،«وقد أحصيت له أكثر من خمسين قصيدة في الشهاب الأغر»[1].

أما بجريدة السنة التي صدر العدد الأول منها سنة 1933 يوم 03 أفريل فقد نشر قصيدة(ولا صبح إلا سنة نبوية) في العدد الثاني ليوم 17 أفريل 1933،وقصيدة(إلى العامين الراحل والنازل)في العدد الخامس ليوم 08 ماي 1933،وقصيدة(ليس سوى القرآن من حكم) في العدد 13 ليوم 03 جويلية 1933.

أما بجريدة (الشريعة النبوية المحمدية) التي صدر أول عدد منها في 17 جويلية 1933 فقد وردت في العدد السابع والأخير ليوم 28 أوت 1933 قصيدة(في الله نحتمل الأذى) وقد صدرت بتعليق هذا نصه: « القصيدة الغراء التي ألقاها شاعر الشباب في مأدبة جماعة نادي الترقي بالعاصمة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين،يدعو الجمعية إلى العمل في سبيل الله لنشر العلم والفضيلة ومقاومة أعدائهما،واقتلاع قلل الجهل والرذيلة وقهر أنصارهما»[2].

أما جريدة (الصراط السوي ومن اهتدى) فقد تصفحت جميع أعدادها السبعة عشر الصادرة ما بين 11 ديسمبر 1933 و08 جانفي 1934 و لم نعثر له على قصيدة فيها.

أما الصحف التي أخذت حصة الأسد من الأعمال الإبداعية للشاعر هي جريدة البصائر خاصة في سلسلتها الأولى الصادرة ما بين (1935-1939) والثانية التي استمرت في الصدور من 1947 إلى غاية 1956 عندما اشتد لهيب الثورة التحريرية«حيث تم توقيفها من طرف المشرفين عليها»[3] .

1- مصمودي فوزي: (محمد العيد آل خليفة الوجه الآخر لنضاله الصحفي)،البصائر سلسلة 4 سنة 6 عدد264،28 نوفمبر إلى 5 ديسمبر 2005،ص10.

2- الشريعة النبوية المحمدية:دار العرب الإسلامي بيروت،عدد 07 ليوم 28 أوت 1933.

3 - مصمودي فوزي: (محمد العيد آل خليفة الوجه الآخر لنضاله الصحفي)،البصائر،ص10.

فمن العدد الأول إلى العدد الخمسين الصادرة مابين(1935-1937) أحصـــيت اثـــنين وعشرين قصيدة.

ومن الجرائد التي احتضنت درر محمد العيد الخالدة جريدة (المنار) لصـــاحبها الـــوطني الصميم محمود بوزوزو وهي جريدة تابعة لحزب الشعب كما سبقت الإشارة،صـــدر العـــدد الأول منها يوم 29 مارس 1951،والعدد الأخير في جانفي 1954.

«وقد أتحفها محمد العيد ببيتين من شعره الرصين اتخذهما شعارا لها ابتداءا من عـــددها العاشر،وسجلتا تحت العنوان وهما»[1].

طوينا للمطالب كل بحـــر طمى وبدت معالمها الكبار

فحيتنا الشواطئ من بعيد و أومأ بالشعاع لنا(المنـــارُ)

وقد نشر بها قصيدة (يـــا قـــوم هبـــوا لاغتنـــام حيـــاتكم)بالعـــدد التاســـع ليـــوم 5 اكتوبر 1951،وقصيدة (ســـر في ســـبيلك رائـــدا) في العـــدد الثـــاني ليـــوم 5 افريـــل 1952،وقصيدة(إلى الثقافة) بالعدد العاشر ليوم 24 أكتوبر 1952،وقصيدة (الوحدة الجزائرية) بالعدد الثامن عشر ليوم27 فيفري 1953،وأخيرا قصيدة (فقدنا مليكا عادلا) بالعدد 51 ليوم 01 جانفي1954 مع تعليق عليها.

هذه عينة من المجلات والجرائد الكثيرة التي تصدرها غالبا قصائد محمد العيد،وليس المجال هنا لسردها،ولا شك أن ندرة هذه المجلات والجرائد وعدم تعميمها كان من الأســـباب الـــتي عطلت ظهور الديوان،أو جعلته ناقصا لا يشمل جميع إنتاج صاحبه،وقد تم تدارك الشعر المهمل منه بنفض غبار الكثير من هذه المجلات من طرف الباحث محمد بن سمينة حيث توصل إلى جمع الكثير من النصوص في كتاب (العيديات المجهولة) تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة.

1- جريدة المنار :عدد 10،ليوم:24 أكتوبر 1952، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر ص3.

2- محاور الديوان (مضامينه):

يعد ديوان محمد العيد من بين التراث الأدبي الذي حفظ للجزائر كيانها،ودعم بنيانها في الفترة التي ظهر فيها، ذلك أن صاحبه سلم من الردة الثقافية التي مسخت كثيرا من الأدباء في عصره،وصمد أمام أهم الزوابع الثقافية،وتحدى مغريات الثقافة الاستعمارية فعد بحق من القلة المميزة المتشبعة بالثقافة العربية الأصيلة،كما تدل على ذلك المضامين التي احتواها شعره.

هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبه شعره في المجالات النضالية والثقافية والاجتماعية والسياسية في حياة الشعب الجزائري خاصة والشعوب العربية عامة.

فقد صور شعره آلام شعبه،وعبر عن أمانيه،وأرهص لثورته قبل أن تقع بزمن طويل،وشارك فيها بسلاح الكلمة المتشبعة بالصمود والتحدي،والرؤية المستقبلية المتفائلة التي تحققت.كما حرض على مقاومة الظروف الاجتماعية التي عاشها الشعب الجزائري،من اعتداء على الحقوق،وسلب للحريات.كما قاوم محاولات التشويه لصورة الإسلام،ودافع عن اللغة العربية،وعقد بين الإسلام والعربية وبين الشعب الجزائري عروة لا تنفصل.

فديوانه غزير المادة،متعدد المواضيع،متنوع القضايا التي عبر عنها في أوقات شتى وظروف مختلفة،«ونحن نتصفح الديوان الزاخر تجدنا أمام ألوان شتى من الصور المختلفة من التعبير عما هو وطني،وما هو إنساني وديني وشخصي وغيره».[1]

وإذا تصفحنا الديوان نجده يتضمن المحاور الآتية:

أ ـ أدبيات وفلسفيات: وهي قصائد مختلفة تحدث فيها عن الأدب،وعن وظيفة الشعر في مفهومه،وفيها تحية الشعب الجزائري الثائر ومباركة ثورته المجيدة،وفيها حديث عن المعاناة الشخصية والجماعية المتعددة الوجوه،وهي تتميز بأنواع من المناجاة وأصناف من التأمل كما هو في قصيدتي:(أسطر الكون،بحر الجزائر)،وفيها بث أفكار و مواقف لعل الشعب يفقهها كما في قصيدة(صدى الصحراء)،وفيها تهنئة صاحب كتاب شعراء الجزائر على صدور كتابه الذي يعد أول خطوة في سبيل إحياء الأدب الجزائري آنذاك.

1- بن قينة عمر:مقدمة ديوان محمد العيد آل خليفة ط3،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1992،ص (ي).

كما عبر عن شكوكه وحيرته،وبث شكواه،وتحدث عن الصحو بعد انقشاع العواصف مع ما في هذا من رمزية،وتساءل عن تعاقب السنين وما عساها تسفر عنه،ووصف المناظر التاعسة الناعسة،وأشاد بالشاعرية عند الرصافي الذي يلتقي وإياه في القضايا العربية الإسلامية،وعبر عن شوقه إلى الحرية،وخوفا من الاستعمار غازلها متخفيا في قصيدة (أين ليلاي)، ثم أعقبها بالحديث عن الليل الذي طال ظلامه،وناجى هزازه في حوار هادئ،وهي قصائد رموزها بسيطة أحيانا يفهمها شعبه البسيط،ثم خرج الشاعر من هذه المواضيع الحزينة إلى الطبيعة الرحبة على شاكلة الرومنسيين،فوصف عينا فوارة بباتنة،وتحدث عن جمال الريف،واستقرأ في(صوت قادم من الغيب) نهضة كبرى وعصرا زاهرا قادما من الشرق،ولكن زلزالا يهز الأصنام،فيتحول الشاعر إليه ويصفه،ويحذر الناس من غضب الله،ويعتبر هذا الزلزال معادلا موضوعيا لأفعال البشر.

ب - إسلاميات و قوميات: تحتل القضايا الإسلامية والقومية جزءا هاما من ديوان الشاعر،«وأن الذي يمعن النظر فيه ليعرف أهم قضية تشغل بال محمد العيد،وتدور حولها مضامين شعره يمكن ردها إلى أربعة لا يكاد الشاعر يغادرها إلا ليعمقها،ويمكّن لها تلكم هي:الوطن،الإسلام،العروبة والإنسانية ».[1]

يستهل الشاعر هذا المحور بالحديث عن ذكرى المولد النبوي الشريف،وأثره على البشرية،ويهنئ مؤسسي دار الحديث - و هو منهم- (تحية دار الحديث)،متحدثا عن دور طاقم جمعية العلماء في الوعظ والإرشاد،ويقارع أعداء الإسلام بالحجة ويتحداهم في(هذيان آشيل) ويشيد بجهود الجمعية في التعليم،وفتح المدارس والنوادي والجمعيات ويهنئ بتأسيس الصحافة،فيقدم لها ويبشر الشعب بها.

ويستغل المناسبات الدينية فيتحدث عن شهر الصيام،و عن ختم ابن باديس تفسير القران،ويودع الحجاج ويرحب بهم في قصائد عصماء.

كما يتناول المناسبات السياسية والأحداث الوطنية والعربية،فمن المناسبات الوطنية انتخاب المجالس الإدارية لجمعية العلماء،ومن الأحداث حادثة محاولة اغتيال ابن باديس،وحادثة سجن الطيب العقبي بتهمة قتل المفتي كحول.

---

1 - بن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة(شخصيات لها تاريخ)، ص 58.

ومن القضايا العربية الإسلامية القصائد الآتية(هيهات يخزى المسلمون،في أذن الشـــرق،يا أمة الخير،ويخلد الإسلام،سلوا التاريخ،تهنئة الأزهر،وتحية الرئيس عبد الناصـــر،والعروبة أمتنـــا الكبرى).

كما يتحدث عن العلم وفضله في القصائد الآتية:(إلى العلم،يا فتية العلم شدوا العـــزم)، و لا ينسى محمد العيد دوره كمعلم،فينشئ الأناشيد لطلابه(أنشودة الوليد،دعاك الأمل).

ج - أخلاقيات وحكميات:

هذا المحور يعد امتدادا للمحور الذي يليه وفيه(تحية العلماء) و قـــد ضـــمنها نصـــائح وتوجيهات،وحديث عن الماضي،وعن الوحدة،تليها قصيدة (أيها الرافعون القصور) وهي بكائية صور من خلالها حالة الشعب الجزائري الفقير،ودعا المتطاولين في العمران إلى الالتفـــات لهـــذا الشعب وجبر كسره.ثم تأتي القصائد (دار الخيرية،إذا كان صـــوت الحق،قمـــة الفتوة،تـــارك الصلاة،تارك الزكاة،وعظ دقات القلوب،متى أنت راجع،فتاة العصر،الخمر يا بن الليل) وهـــي كلها قصائد لا تخرج عن كونها مواعظ دينية وأخلاقية شعرا،موجهة لكـــل فئـــات المجتمـــع الجزائري ذكورا وإناثا،شبابا وكهولا وشيوخا.

د ـــ اجتماعيات وسياسيات:

يتضمن هذا المحور كثيرا من القصائد ذات المدلول السياسي والاجتماعي،فبالنســـبة للقضـــايا الاجتماعية فإن محمد العيد شاعر اجتماعي،دقيق الملاحظة مرهف الإحســـاس،تناول قضـــايا اجتماعية كثيرة،بدافع إصلاحي،فنافح عن القيم الوطنية والاجتماعية لشعبه وجعل موضـــوع شعره هو الشعب:

أيها الشعب أنت موضع شعري　　　وشعوري لا زينب والربـــابُ
لا تلمني على اطّر احي للشعـــ　　　ـرِ فعذري مستوضح منجـــاب
أيها التاعبون في عمل الخيـــــ　　　ـر ستأتي باجـــرها الأتعـــابُ[1]

1 - العيد محمد،الديوان، ص 261.

ومحمد العيد يرثي لحال الفقراء ويواسيهم،ويكفكف دموع المحرومين البائسين،ويؤبن موتى الوطنية المظلومين بقلب جريح وعيون دامعة:

يناغي البائسين كما يناغي ... لعمري العندليب العندليبا
ويحيي في رثائهم الليالي ... وينهض في مصارعهم خطيبا
بقلب يلفظ الأنفاس حرى ... وعين تذرف الدمع الصبيبا[1]

و لم يمر محمد العيد بمنظر اجتماعي يثير عواطفه إلا و يلتقط له صورة مشخصة للوضع:

ما بال سير فتاة العصر منحرفا ... يهوي بها في مهاوي الإفك والزور
ما بالها هجرت آداب ملتها ... ما بالها أعرضت عن خير دستور[2]

أما بالنسبة للقضايا السياسية فقد حفل شعره بالقصائد السياسية المحضة،والمقطوعات الوطنية الحارة،فقد تحدث عن المؤتمر الإسلامي، وخاطب لجنة البحر العليا، وعبر عن مأساة فلسطين أكثر من مرة،وعن مصر والعدوان الثلاثي،وعن استقلال ليبيا والسودان،وعن مأساة الثامن ماي وسنتناول هذا بشيء من التفصيل في الفصل الثاني -إن شاء الله – في مبحث(المقاومة السياسية).

هـ ـــ اللزوميات:

وهي عبارة عن مقطوعات وقصائد ومواعظ وخواطر كما هو الشأن مع (يا دار،الدنيا،خلا القلب،ولّيت نحوك وجهي)أو هي مواقف من الناس والحياة والكون كما هو في هذه العناوين(لو،جولة طرف،الحق،سر الكون،الناس،ابن آدم).

و ـــ الإخوانيات:

الشاعر كما سبق الذكر اجتماعي وفيٌّ لوطنه ولأمته ولأصدقائه،لذا كثرت في شعره الإخوانيات أو(المجاملات).فللشاعر معارف وأصدقاء وأساتذة يبادلونه الآلام ويشاركونه الآمال،ومن واجبه أن يردّ عليهم بقصائد مجاملة،وهذه القصائد صدرت عنه في كثير من المناسبات الاجتماعية والمواقف وفاء لبعض أصدقائه من أعضاء الجمعية.

1 - العيد محمد:الديوان،ص287.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص 279.

وبعضها قيل في مناسبات عامة كما هو شان(باقة شعر) التي هنأ فيها العقبي وعباس التركي بعد إطلاق سراحهما. و(قدوة للشباب)التي وجهها لمحمد الصالح الصديق بمناسبة صدور كتابه(أدباء التحصيل)،و(إن الحجى نعم العطاء) التي هنأ بها مواطنا على مواهبه في الصناعة تشجيعا معنويا له.ولا ننكر أن للشاعر قصائد تهاني في مناسبات خاصة،كتهنئة صديقه فرحات الدراجي بمولد توأمين،وتهنئة صديقه بشير كاشة على نجاحه في الامتحان،والشيخ لخضر بن الحسين بتعيينه عميدا للأزهر.

ز - الثوريات:

لم يكن الشاعر بعيدا عن طائفة الحركة الوطنية التي تؤمن بأن الثورة هي الحل الوحيد الذي يمكّن من استعادة الحق المغصوب،فقد عبر محمد العيد عن الثورة وهي في مهدها أكثر من مرة،مع اختلاف مستويات هذا التعبير شدة وهدوءً تبعا لظروف البلاد،وأكتفي هنا بالإشارة إلى القصائد الثورية،وأتناول ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني - إن شاء الله – في مبحث (المقاومة الثورية).

أول قصيدة تحمل بوادر الثورة هي (صرخة ثورية) مع القصيدة التي تليها(من للجزائر؟)،تليهما قصيدتان يمكن اعتبارهما من أدب السجون قالهما الشاعر وهو تحت الإقامة الجبرية وهما:(مناجاة بين أسير وأبي بشير) و(أبا المنقوش).وللشاعر قصائد أخرى سواء قبل الاستقلال أو بعده منها(صوت جيش التحرير)و(ثورة بنت الجزائر) وبعد الاستقلال نجد له (تهنئة الجيش وتحية العلم و وقفه على قبور الشهداء) ، وقصائد أخرى في ذكريات الاستقلال.

ح - المراثي:

تم التعرض لبعض المراثي في قسم(اجتماعيات وسياسيات). ورثاء الشاعر لم يكن بمفهوم الرثاء القديم المرتبط بالعلاقات الذاتية،فهو عنده مرتبط بأسباب موضوعية،هي منزلة المرثي وما قدمه لأمته،لذا لم يرث الشاعر إلا زعماء كان لهم الفضل على الوطن والأمة، فقد رثى رائد النهضة الجزائرية بن باديس،وسرد أعماله،وذكر فضله على البلاد والعباد.كما رثى صديقه رشيد بطحوش أحد أعضاء الجمعية منوها بأعماله.ورثى فتاة منتحرة وجعل منها عبرة للآخرين.كما رثى شعراء كبار أمثال حافظ إبراهيم وأحمد شوقي،لما كان لهما من فضل على اللغة والأدب العربيين، ورثى الزعماء (الأمير خالد) و (غازي الأول) ملك العراق،كما رثى بعد الاستقلال رائد الثقافة العربية بالجزائر(محمد البشير الإبراهيمي).

ط ــ الذكريات:

الذكريات في ديوان محمد العيد لها صلة وثيقة بالمراثي،وتحمل سماتها العامة،وهذا القسم يسير جدا في الديوان،يتضمن قصائد تتناول مواقف عاشتها الجزائر أو الأمة العربية،وصارت مناسبة لاستحضار الماضي بما يبعثه في النفس من أصالة واعتزاز وانتماء.من ذلك (عاش وقفا للجزائر) في إحياء ذكرى وفاة المرحوم البشير الإبراهيمي - طيب الله ثراه - و(أهلا وسهلا بالأمير) التي ألقيت بمناسبة نقل رفات الأمير عبد القادر رمز المقاومة المسلحة من سوريا إلى الجزائر في شهر جويلية 1966.

ي - متفرقات:

هي عبارة عن مقطوعات مختلفة لا تتجاوز أحيانا البيتين (يتسم معظمها بالقصر) وردت في شكل خواطر وانطباعات شخصية عن أشخاص مثل قصيدة (كدر)التي قالها في بعض أصدقائه منكرا عليه فراقه الطويل،و(5 يوليو1830)،و (الضيف الثقيل) عن الاستعمار،ومنها ما هو صادر عن أحداث مثل (العيد،الرحالة،المسلم الكبير،الرحالة التركي،مناجاة شعرية).

ك - الألغاز:

وهي قسم صغير يتكون من تسعة ألغاز بسيطة بين قصيدة ومقطوعة « لم يكن الشاعر مرتاحا لإدراجها في الديوان عندما طبع أول مرة،لأنه يعتبرها محاولات بسيطة،أملتها مناسبات عارضة مع تلامذته ».[1]

يقول محمد العيد معبرا عن موقفه من هذه الألغاز: « الألغاز فوجئت بوجودها في الديوان،هي دون المستوى العام للشعر الذي ضمه الديوان،وقد قلتها في مناسبات عارضة مع تلاميذي».[2]

ل - الأناشيد:

وهي القسم الأخير من الديوان،وهي أناشيد موجهة للأطفال أو للفرق الكشفية قدمها الشاعر في مناسبات مختلفة منها(نشيد الرجاء،نشيد الشباب،نشيد كشافة الإقبال،نشيد نساء الجزائر).

1 - بن قينة عمر:مقدمة ديوان محمد العيد،ط3 المؤسسة الوطنية للكتاب،ص (ي).

2 - بن قينة عمر:صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث،أعلام وقضايا ومواقف، ص 344.

وهذه الأناشيد هدفها غرس القيم الخلقية والفضائل في النفوس. كما تضمن هذا القسم قصيدتين الأولى بعنوان(نشيد عقبة)،والثانية في تهنئة الملك المغربي(محمد الخامس) بمناسبة عودته من منفاه سنة 1955، بعنوان (أمير المؤمنين غنمت نصرا).

تلكم هي محاور الديوان وهي موضوعات ثرية متنوعة،مع العلم أن هذا التصنيف لـــيس دقيق التحديد ولا منطقي العرض،ولا متسلسل الزمن،وهي محاور تتقاطع وتتداخل في الكثير من الأحيان،فقد نجد المحور امتدادا للآخر،أو القصيدة تصلح لأكثر من محور،وهذا الحكم ينطبـــق كذلك على (العيديات المجهولة) المتداركة التي تضم الكثير من النصوص الشعرية المغمورة،وقد صنفت في محاور ثلاثة لا تحيد عن مثيلاتها في الديوان الأم من حيث موضوعاتها،وهذه المحـــاور هي(إسلاميات،إخوانيات،متفرقات).

الفصل الثاني

مضامين المقاومة في شعر محمد العيد آل خليفة

I. المقاومة الثقافية

1- استلهام البطولات وأمجاد الماضي

2- الدفاع عن اللغة العربية

3- الدفاع عن الدين الإسلامي

4- الدعوة إلى نشر العلم

II. المقاومة السياسية

1- التغني بالوطن

2- التعبئة السياسية على صعيد جمعية العلماء

3- محمد العيد والحرية(الغزل السياسي)

4- قضايا عربية في شعر محمد العيد

III. المقاومة الثورية في شعر محمد العيد

1- الإرهاص الثوري في شعر محمد العيد خلال العشرينيات.

2- تجليات الثورة في شعر محمد العيد خلال الثلاثينيات

3- محمد العيد وأحداث 8 ماي 1945

4- محمد العيد وثورة أول نوفمبر 1954

مفهوم المقاومة

المقاومة في اللغة من الفعل قاوم يقاوم مقاومة على وزن فاعل الذي يفيد المشاركة،وجاء في قاموس اللسان«قاومه في المصارعة وغيرها،وتقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض».[1]

وهي تعني استخدام القوة الجسمانية ضد العدو مع استعمال كافة الوسائل المتاحة في ميدان الوغى.

أما المقاومة في العصر الحديث فتأخذ مفهوما سياسيا«والمقاوم هو الشخص الذي يقاوم الظلم،وتنطوي الكلمة على مفهوم تقييمي،فالذي يناضل عنفيا ضد السلطات القائمة مقدرا أنها لا تتوافق مع مثله يعتبر نفسه مقاوما. في حين تعتبره السلطة إرهابيا،ويتحدد معيار التمييز بين المقاومة والإرهاب بالاستناد إلى شرعية العمل ونبل الأهداف».[2]

فمعنى المقاومة هنا هو الوقوف في وجه الظلم سواء أكان مصدره داخليا أم خارجيا،ومن هنا تبقى مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي شرعية.

والمقاومة عند محمد العيد هي مصارعة مع الزمن وذلك بالعمل على كل الجبهات اجتماعية ثقافية سياسية حتى الوصول إلى الهدف المنشود لهذه المقاومة،وهو مواجهة الاستعمار.

I ـــ المقاومة الثقافية:

الإخلاص للتاريخ يقتضي القول إن ثقافة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت عربية إسلامية صرفة،استمدت أصولها من المشرق العربي خلال الفتح الإسلامي،وبقيت تتغذى من ذلك الرافد على مر العصور-رغم تعاقب الموجات البشرية على هذه الأرض- حيث شيدت المدارس،ونشر التعليم وبرز العلماء ونبغ الشعراء،إلى أن حل الاستعمار بها وعاث فيها فسادا وحاول إبادة ثقافتها، وشهد على ذلك شاهد من الغرب هو الرحالة الألماني (فيلهم شمبر1804-1878) حين مرّ بالجزائر سنة1831:«لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا».[3]

1- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين بن مكرم): لسان العرب،المجلد 12(م)، دار صابر بيروت1990، ص499

2- سعيفان أحمد:قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية ط 1،مكتبة لبنان ناشرون،2004، ص342

3- دودو أبو العيد:الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان،المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1975،ص13.

هذه الشهادة تدل على مدى الخراب الثقافي الذي حل بالجزائر بسبب الاستعمار والذي يرسم له جان بول سارتر في كتابه(عارنا في الجزائر) صورة قاتمة،«ولكننا على كل حال أردنا أن نجعل من "إخواننا المسلمين"شعبا من الأميين،ويبلغ عدد الأميين الجزائريين اليوم80 بالمائة...إن اللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية منذ1830»[1].

هذا القول يوضح الواقع الثقافي في الجزائر خلال العشرينيات وهو ما يعني أن الدور الذي قام به الرعيل الأول من الشعراء،ومنهم محمد العيد آل خليفة كبير جدا وهو مقاومة القحط الثقافي الذي فرضه الاستعمار على الجزائريين بمنطق القوة والقانون الجائر الذي سنه،هذا من جهة ومن جهة أخرى مقاومة الثقافة الغازية التي حاولت نسخ الثقافة العربية الإسلامية بالجزائر،والتي كانت إحدى وسائل الشاعر في الكفاح الذي خاضه،وقد اتخذ من استحضار الماضي،واستلهام الأمجاد منطلقا له.

1- استلهام الأمجاد وبطولات الماضي:

من طبيعة الأمم في فترات نهوضها أن تلوذ بماضيها،وتستوحي أمجادها السالفة،وتستحيي بطولاتها خاصة إذا كان هذا الماضي مجيدا.«وقد قيض الله للعرب ماض زاهرا وحضارة راسخة الأصول،بوأتهم مكانة مرموقة بين الأمم في تاريخ البشرية»[2].

والجزائر كجزء من هذه الأمة حين فتح الشاعر عينيه على وضعها وجد حاضرها مؤلما،أرضا مسلوبة،شعبا مضطهدا إرادته مشلولة،وحين نظر إلى ماضيه وجد أمة من أقوى وأعرق الأمم فتمثل بقول الشاعر:[3]

وكم رأينا من فروع طويلة   تموت إذا لم يحيهن أصول

فراح يستحضر هذا التاريخ،ويستلهم بطولاته عساها تكون شحنة تعيد الروح إلى النفوس، ويعتبر نفسه حارسا أمينا لهذا الماضي فهو يرد على الذين استسلموا لرياح الثقافة الاستعمارية،وطالتهم يد المسخ الحضاري والتغريب الثقافي، فأصبحوا يشككون في تاريخ الجزائر وفي وجودها،يقول الشاعر في قصيدة ألقيت في حفلة بمدرسة الشبيبة في العاصمة سنة 1933:

1- جان بول سارتر:عارنا في الجزائر، ترجمة عائده وسهيل إدريس، ط2 دار الآداب بيروت 1958،ص.23.

2- الدقاق عمر:الاتجاه القومي في الشعر العربي ط3،جامعة حلب،1977،ص .238.

3- الدقاق عمر:المرجع نفسه،ص 239.

أين منكم مهابة وانتصاف؟ أم سكنتم إلى احتقار وجبن
لا تقولوا هان الجدود فهنا ساء نشء له بهم سوء ظـــن
في تلمسان في بجاية في تيهر ت في القلعة ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والعر ب مثابا كمعهـــد وحصن
وعليها من الملوك ذوي العز ة والبأس كل سهران فطن
دعموا البر دعموا البحر بالأعـــ لام من منشآت مدن وسفن
ومشوا في مناكب الأرض صيدا بين جـــرارة ملائـــك جن
يزعون الشعوب رأيا ورعيا ويسوسونها بحكـــم وإذن[1]

في هذه الالتفاتة التاريخية ينكر الشاعر على من يستنكفون عن ماضـــيهم،ويرد علـــيهم بالوقائع التاريخية وبالحجج الدامغة على عراقة الجزائر،وإيغالها في التاريخ،ويـــذكرهم بالمعـــالم البارزة،معددا الأماكن التي شهدت حضارة ومدنية ما زالت أثارها ماثلة للعيان لا ينكرهـــا إلا جاحد.هذه الحضارة،قام بها رجال لم يعرفوا الوهن،ورعوها بالحلم والعلم.

ولكن هذه الالتفاتة من محمد العيد لا تنسيه المآل المريع الذي آلت إليه هـــذه الأمجـــاد بسبب الاستعمار وتقاعس الخلف،فأصبحت ركاما من التاريخ أو حلم نائم:

وطوتهم يد الزمان كما تطوي يد الكاتب الكتاب وتثنـــي
وتقضى ملك الجدود فلم يب ق بأيدي البنين غير التمنـــي
يا لمجد مضيـــع غير مجـــد عض كف عليه أو قرع سن[2]

ومن حق الشاعر أن يحمل مسؤولية هذا المآل إلى الخلف الـــذي لم يكـــن في مســـتوى السلف،وضيع مجدا - ما كان ليضيع - تعض لفقده الأنامل،وتقطع لأجله الأكباد.

يقول في ذكرى المولد النبوي سنة 1937،وقلبه ملؤه الحيرة والأسف عن مـــآل وطنـــه وشعبه:

سلوا التاريخ عن بـــرٍ رحيـــم للـــورى فادي
سلوا التاريخ عن طـــود تعالـــى فـــوق أطـــواد
سلوا التاريـــخ عن أرض حماها من يد العـــادي
سلوا عن دولـــة الإســـلا م كـــم باهت بأجنـــاد

1- العيد محمد:الديوان،ص109 ــ 110.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص110.

وكم فيهم مـــن الخيـــل جـــواد تحت أجــــواد
وكم فيهم مـــن الرجـــل رجـــالات كـــآســـاد[1]

ومن خلال النص يبدو أن الشاعر استغل المناسبة الدينية ليصول ويجول في ماضي الأمـــة الإسلامية،التي قادها الرسول - صلى الله عليـــه وســـلم- وأســـس لهـــا رجـــال تســـاموا بأخلاقهم،وحموها من أعدائها بثباتهم.والقصيدة رغم تساؤلات الحيرة الكثيرة،ملأى بالألفـــاظ الدالة على المقاومة والثورة ووسائلهما(حمى،العادي،أجناد،جوادِ).

ويتابع الشاعر القصيدة يحث شعبه على استعادة تلك الأمجاد بتوحيد صفوفهم،وإطفاء نار الفرقة التي يبثها العدو بينهم متوكلين على الله متأسين بنبيّه صالح عليه السلام الذي دعا ربـــه فنجاه من الظالمين:

فردوا مجـــد ماضيكم وحوطوه بأرصــــــاد
وقـــو أنفسكـــم نا رَ عداوات وأحقـــاد
يزيد الخصم إيقـــادًا لها من بعد إيقـــــاد
بغت واستكبرت عـــادٌ ولم تغلب أخا عـــادِ
دعـــا الله فنجـــاه بإنجـــاء وإنجـــــادِ[2]

نستخلص من هذه القصيدة أن عملية البعث الحضاري التحرري عند الشاعر لا بد أن تستلهم من ماضي الأمة وتاريخها،وهذا لتعزيز أصالة الشعب الجزائري المسلم.والجزائر في تلك المرحلـــة كانت في حاجة ماسة إلى تمكين صلتها بماضيها،لأن تاريخها كان مسرحا للأقلام الفرنسية التي دأبت على أمرين:« الأول يستهدف جعل الاحتلال الفرنسي هو مولد الوطن الجزائري،والثاني يرمي إلى طمس الأمجاد التي يمكن أن تعزز جانب الجزائريين في مواقفهم البطولية من الاحتلال»[3].

ويستمر الشاعر في التطلع إلى الماضي واستحضار أمجاده التي يرى فيها الأسوة الحســـنة للشباب،وهو الأكثر احتكاكا به حين مارس التعليم،فلا تكاد تخلو قصيدة من قصـــائده مـــن الحنين إلى الماضي السعيد،وحسرة على الحاضر التعيس،يقول في قصيدة (بلادي) التي نشـــرت سنة 1937:

1- العيد محمد:الديوان،ص77.

2- العيد محمد: المصدر نفسه،ص78.

3- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص96.

مراتعنـــا للناجعين خصيبة وأكنافنا للنازلين نواعـــم
حوت أعظما للأولين رميمـــة أثارها في الآخريـــن عظائـــم
حوت أمة دانت بدين محمـــد وسارت على البيضاء والليل فاحم
لقد كانت الأجداد أسدا ضراغمـــا بها،فهل الأحفاد أسد ضراغـــم؟[1]

هذا الاعتزاز بمكانة البلاد التي كانت مرتعا خصبا للنازلين بها،وأرضـــا معطـــاء أنبتـــت العظماء الذين تركوا آثارهم ماثلة لغيرهم دليلهم يومذاك دين محمد الذي بدد الظلمات،هـــذا الاعتزاز يجعل من واجب الشباب الذي يخاطبه الشاعر أن يتخذ من هؤلاء الأبطال قـــدوة في الشجاعة تشفي الغليل،وتزيل الحيرة والتساؤل،وتجعل الشاعر يتفاءل بحاضره القلق،كما تفاءل بماضيه المجيد.

ولا يجد الشاعر حرجا في ذكر شخصـــيات ســـادت ثم بـــادت يرشـــد الشـــباب إلى بطولاتها،ويدعوه إلى تخليد مآثرها وأمجادها،ومصدره في ذلك هو التاريخ الإسلامي،أو التاريخ الخاص بالجزائر،لأنه يعلم أن بلاده في حاجة إلى تبديد ظلامها،فهي تواجـــه خطـــرا تعـــددت جبهاته،يسوم ثقافتها مسخا،ودينها تشويها وتاريخها تزييفا،وعروبتها إبعادا،«فليستنجد الشاعر بأبطال التاريخ،يرى ملامحهم وسيرهم رجال الساعة الذين يجدر بالشباب الاقتداء بهم،بل يجدر به أن يلقي نظرة ماسحة على طول مسيرة تاريخه من عهد(تبع)إلى عصر(الداي)» [2]

أهلا وسهلا بالفدى ورجاله الطامحين إليه غير القنّـــع
أذوي العمائم والعمامة شارة لليعربي وزينة للأصمعـــي
من فيكم يحي خلالا أربعـــا يحي الجزائر بالخلال الأربع؟
صدق(العتيق) وعزة (الفاروق) في حلم (ابن عفان) وعلم (الأصلـــع)
أذوي العمائـــم راجعـــوا تاريخكـــم من منذ عهد(الداي)حتى(تبع)[3]

وهكذا لا يمكن اعتبار النماذج السابقة نواحا على الأمجاد الماضية،أو هروبا من الواقـــع المأساوي،بقدر ما تعتبر ضربا من التوعية التاريخية، ونوعا من المقاومة الثقافية التي كانت الجزائر في أمس الحاجة إليها،كما يمكن اعتبارها مطلبا أملته الظروف التي عاشها الشعراء،وهي محاولة لتأكيد الذات وإثباتها، مهدت لمرحلة تالية كانت أكثر نضجا في الحركة الوطنية الجزائرية يقول

1- العيد محمد:الديوان،ص316.

2- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث، ص111.

3 - العيد محمد:المصدر نفسه، ص149.

محمد الميلي:« إن الكفاح من أجل الاستقلال في الجزائر مطبوع بالطابع العربي الإسلامي لغة ودينا وثقافة،لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تأكيد العناصر الحضارية التي تبلورت حولها كل أشكال المقاومة الجزائرية(1830-1954)وهذا يقود إلى التسليم بأن حركة التحرر الوطني في الجزائر لا يمكن تصورها منفصلة عن النهضة الثقافية العربية وعن بعث القيم الإسلامية وتجديدها».[1]

2- الدفاع عن اللغة العربية:

إن وحدة اللغة لأية أمة دليل على وحدتها الفكرية والروحية، وإذا حرص الشعب على لغته وخصائصها فذلك يعني حرية الشعب الذي يتحدث بها،وتحقيقا لوجوده في الحياة.وأما إذا أهمل الشعب لغته وفضل عليها لغة أخرى،أو فرضت عليه فهو في صنف العبيد لا يقدر على الاستقلال بنفسه،ولا يستفيد من ماضيه.

وقد تفطن المستعمر الفرنسي إلى هذه الحقيقة، وكان أول ما سعى إليه بعد بسط نفوذه على الجغرافية،أن استهدف اللغة العربية لأنه يعلم أن زوالها هو زوال لقومية الشعب الجزائري،وطمس لمعالم تاريخه وتمزيقا لوحدته،فلا يعرف له أصلا ينتمي إليه، ومن ثم يصبح وجود المستعمر أمرا عاديا،لا تنغصه الحركات الوطنية.

وقد تحقق الأمر نسبيا للاستعمار،ففرض لغته على الجزائريين بمنطق القوة والقانون،وكوّن نخبة أثرت فيها اللغة الفرنسية كما يؤثر الجوّ الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه ولنسمع إلى أحد الاندماجيين: « أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر،وفتش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر،وأخيرا أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح:فرنسا هي أنا»[2].

وقد قيض الله للجزائر آناء هذا الوضع رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه بذلوا الغالي والرخيص وهم يقاومون الاستعمار، واتخذّوا من اللغة العربية سلاحا للمنازلة،فأسهموا بذلك في حفظ لغة الضاد،منهم الشاعر محمد العيد آل خليفة أحد حراس اللغة العربية والثقافة الإسلامية التي تشبع بعناصرها. وقد كان أكثر الشعراء- في عصره- مقاومة لسياسة الاستعمار في هذا المجال.ففي معرض رده على العدو وأتباعه المشككين في عروبة الجزائر،أثبت لهم أن

1- نقلا عن :سلمان نور،الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص 246.

2- نقلا عن :الخطيب أحمد،جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي،ص241.

الشعب الجزائري من سلالة عربية عريقة،أصله ثابت وفرعه في السماء،وأن محاولة اقتلاعه مـــن جذوره بإقصائه عن لغته ضرب من المستحيل وأمر مآله الفشل يقول:

تحن إلى نيل الحقوق نفوسنـــا   وتأبى علينا نيلها قوة الغشـــم
ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها   وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن إلا من سلالـــة يعرب   فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم[1]

ويتجلى تفاني الشاعر في الدفاع عن اللغة وشـــدة تعلقـــه بهـــا في إعجابـــه الشـــديد بأهلها،وتحيته الحارة لكل من سعى إلى رفع شأنها على مر العصور من العرب أو من غيرهم:

سلام كأزهار الربى طيب الشدى   على كل قح في عروبته شهـــم
على العرب الأحرار من كان عاربا   ومن بادَ قِدما من جديس ومن طسم
ومن كان في استعرابه لاحقا بهم   نزوعا إليهم في الفصاحة والفهم
ومن أتقنوا الفصحى وراضوا علومها   بحذق فكانوا من صوارمها الخذم[2]

وهذا الارتداد إلى ماضي العربية السحيق يدل على ضلوع الشـــاعر في تـــاريخ اللغـــة العربية،وعلى يقينه من أن هذه اللغة التي صمدت بفضل رجالها،قادرة اليوم علـــى الاســـتمرار بفضل أمثالهم.

على أن مصاب الشاعر في اللغة من أعدائها قد يهون،ولكن أن تصاب اللغة من أهلـــها فهذا ما لا يطاق ولا يحتمل،فقد تلقت العربية من أهلها أقسى الطعنات،وظلم ذوي القربى أشد مضاضة كما يقول الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند.

وهذه جبهة أخرى يواجهها محمد العيد- تضاف إلى جبهة الاستعمار- فيحث الشباب العربي للالتفاف حول لغة الضاد لإبطال كيد الكائدين مهيبا بـــالنشء أن وجـــوده مرهـــون بلغته،ووحدته وتماسكه معلقان على مشجبها،وهي خيط نظامه إذا انفرط تناثرت حباته:

لكم اللسان الفـــذ في إيضاحه   رغما على الساعين في إبهامـــه
لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم   في فقـــده ودوامكـــم بدوامـــه
فكأنما هو عقـــد در فائـــــق   رصفا وعلم النحو سلك نظامه[3]

1- العيد محمد: الديوان،ص 205.
2- العيد محمد:المصدر نفسه ، ن ص.
3- م ن ،ص 91.

وهناك أكثر من دليل على تعلق الشاعر باللغة العربية،ودفاعه عنها فهو«لا يترك فرصة يرتفع فيها صوت الضاد إلا واهتز لها طربا وتغنى بها شعرا،وانفلت من دوامة الوجوم إلى أفق ملؤه البشر والحبور،وحطم سياج التشاؤم لينطلق بأجنحة من الأمل الباسم»[1]

فحين أصدر الشيخ محمد الصالح الصديق كتابه(أدباء التحصيل)،وأهداه نسخة منه فاضت مشاعره فوصفه بقصيدة منها:

حلل فإنك باحث منطيق وانقد فإنك بالصواب خليق
وانهج لناشئة الجزائر منهجا حرا بأحرار العقول يليق
واكشف لهم أدب العروبة إنه عنهم خفي كالسهى وسحيق[2]

وبعد أن ينوه بمؤلف الكتاب،ويشيد بجهده الذي جاء في وقته المناسب،يتحدث عن حالة اللغة العربية - وملؤه الأسف - وكيف جف معينها بسياسة التجهيل الاستعمارية،وكيف عقها أهلها.ويكاد محمد العيد يصاب باليأس،لولا أنه يجد عزاءه في بصيص من الأمل ينبعث من أقلام ثلة من النشء الناهض على يدي جمعية العلماء يحدوه الأمل،ويدفعه العمل إلى إحياء هذه اللغة وإعادة مجدها يضيف الشاعر:

أسفي على الفصحى تحول نبعها وشلا وكدّر صفوها الترنيق
صدئت جواهرها وغاب ضياؤها لولا بصيص نادر وبريق
يبدو على أقلام نشء ناهض واعٍ كمثلك دأبه التحقيق[3]

وكيف لا يهلل الشاعر حين يرى لغة الضاد تشق طريقها إلى النور في الجزائر وفي غيرها من البلدان العربية،فاللغة هي قوام القومية،ورمز العروبة وعنوان وجود العرب«وإذا اهتز محمد العيد بطبع كتاب عربي،فإن اهتزازه لا يقل عمقا لعرض أول فيلم عربي بعاصمة الجزائر»[4]

فحين تم عرض الفيلم المصري(أنشودة الفؤاد) بالجزائر سنة 1934 أنشد محمد العيد مخاطبا الفيلم:

ووعى الناس ألسنا منك شتى في مغاز علوية ذات بالٍ
وتجلت فصحى اللغات كشمس فخبا كل كوكب متلالي

1- خرفي صالح:شعر المقاومة الجزائرية،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (د.ت) ص270.
2- العيد محمد:الديوان ص 406.
3- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 406.
4- خرفي صالح:شعر المقاومة الجزائرية،ص 271 .

زانك الضاد من لسان بديـــــع أيها الفيلم البديع الجمال

وبدا الشرق فيك للغرب مرعى للحضارات،مخصبا بالرجـــال[1]

إن مصاب العربية في الجزائر من طرف الاستعمار يجعل من ظهورها على شاشة فيلم أو في طبع كتاب أو صدور جريدة،يجعل ذلك عيدا لها يستحق التمجيد.وفرح الشاعر هنا لـــيس لحادثة عرض الفيلم البسيطة،ولا للتقدم الذي أنطق الصورة،«ولكن الذي يبـــهره أكثـــر أن الصورة نطقت بلسان عربي،وأن الشرق هو الآخر آخذ من هذه الحضارة بنصيب،وهنا تهتـــز المشاعر القومية،وينتفض الاعتزاز بالعروبة»[2].

تلك صورة من صور المقاومة،والكفاح المرير الذي خاضه الشعر العـــربي اللســـان،منذ الحرب العالمية الأولى حتى بزوغ الاستقلال،أو بالأحرى هي صورة من معركة الشـــرق ضـــد الغرب،عند كتاب وشعراء العربية الذين تفجرت قرائحهم بالقصائد الحماسية الممجدة للقومية بمختلف عناصرها.

«لقد اهتم شعراء الجزائر بالعربية أكثر من زملائهـــم بالفرنســـية في تأكيـــد عروبـــة بلدهم،وكانت العروبة الحاجز الأكبر بينهم وبين المستعمر».[3]

3 ــ الدفاع عن الدين الإسلامي:

لقد كان الدين الإسلامي بمثابة الدرع المنيع للأمة الإسلامية، حفظهـــا مـــن التشـــردم والتفرق عبر العصور،ووقاها من الهزات،ودفع عنها كيد الكائدين وطمع الطامعين.وبفضـــله تم دحر الغزاة عبر أزمنة متعاقبة،وعلى مبادئه تم تأسيس دولة عظيمة مرهوبـــة الجانـــب دان لهـــا كسرى وأذعن قيصر.

وقد كانت الجزائر جزءا من هذه الأمة،ولكنها بليت بأسوء استعمار سلط عليها سهامه من كل وجهة على أهم أسسها: اللغة العربية والدين الإسلامي، لأنه يـــدرك مـــدى الـــتلازم الموجود بين هذين العنصرين في حفظ أصالة الشعب الجزائري.

وقد تمكن الاستعمار من أن يعيث في الإسلام فسادا لتعدد الطرق المستعملة لذلك،فقـــد استعمل ساسته ومفكريه الذين يطعنون في هذا الدين ويتهمونه بالقصور،واستعمل طبقة مـــن المثقفين الجزائريين تنكرت لأصالتها وانسلخت عن ماضيها،كما استعمل فئة من أدعياء الـــدين

1- العيد محمد:الديوان،ص 25.

2 - خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية،ص 271.

3- سلمان نور،الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص 337.

ممثلة في بعض الطرق الصوفية،وغمرها بفضله فكانت نعمة عليه نقمة على شعبها بما أحدثته في الدين من بدع،وما بثته في الشعب من معتقدات فاسدة،وفكر ميت،وهو ما دفع الإبراهيمي إلى أن يصفها بأنها هي الاستعمار ذاته:« إن المرابطيــة هــي الاســتعمار في معنــاه الحــديث المكشوف،وهي الاستعباد في صورته الفضيعة»[1].

وبتعدد جبهات الفساد كان لزاما تعدد جبهات مقاومته وطرق إصلاحه.وتعــد فتــرة الثلاثينات من أشد المراحل مواجهة بين الاستعمار وأتباعه،وبين جنود الحركة الإصلاحية الذين اتخذوا من الفنون الأدبية(المقالة،الخطابة والشعر) وسائل مقاومة،تمكنوا بفضلها من بعث التراث الفكري الحضاري،واستعادة الأمجاد،واستلهام البطولات،وكان أكثر الشعراء تألقا في هذا المجال محمد العيد آل خليفة،وكان أمامه أن يدعو الشعب إلى التمسك بالإســلام والعمــل علــى حفظه،وأن يقارع أعداءه بالحجة،ويرد كيد الطرقيين في نحورهم.

أ ـــ الحث على التمسك بالدين الإسلامي:

بعد ما آلت إليه الثقافة العربية الإسلامية التي كانت الضحية الأولى للاستعمار،لاحت في الأفق بوادر الحركة الإصلاحية في العشرينيات ممثلة في ظهور ناشئة أصيلة المنبت اتخذت مــن الصحافة الحرة منابر لمقاومة الواقع الثقافي المتردي،وكان محمد العيد من أبرز الأعــلام الــذين انبروا للدفاع عن الإسلام،ودعوا الشعب إلى العض عليه بالنواجد.يقول في قصــيدة (صــدى الصحراء) سنة 1924:

أفيقوا فهذا الدين بين ربوعكم   تنازله الأحداث شر نــزال
تحاول نكباء الضلالة نسفــه   وترميه أشلاء الردى بنبــال
فقوموا مقامات الدفاع حياله   ليأمن هذا الدين كل ضلال [2]

فمن مسؤولية الشاعر أن ينبه الناس من غفلتهم و يوقظهم من سباتهم لتنفتح أعينهم على المؤامرة الدنيئة التي تحاك ضد الإسلام محاولة تشويه صورته للقضاء عليه،وهو صــامد ينــازل الأحداث،ثم لا يكتفي الشاعر بالتنبيه بل يحثهم إلى الإقدام والدفاع عنه صامدين.

وقلما تخلو قصيدة في الديوان من إشارة إلى الإسلام ومن الدعوة إلى الالتزام به،ونشره.

وقد كانت الأعياد والمواسم الدينية أفضل المناسبات عند محمــد العيد،يســتلهم منــها الدروس والمواعظ،ويعالج الواقع انطلاقا من عقيدته الإسلامية،وهذه السمة ليست خاصة بمحمد

1- خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية،ص34.

2- العيد محمد:الديوان ص 13.

العيد،وإنما هي الطابع الغالب على الشعر الجزائري خلال فترة الإصلاح،عندما أصبح الدين بعيدا عن منابعه الأصلية بسبب شيوع البدع والخرافات:

«ومن ثم فإن علاج الواقع عن طريق الدين يكون بالرجوع إلى سيرة الرسول وجهاده وإلى أخلاقه قولا وفعلا،لا مجرد التغني والتنويه كما هو شأن المديح سابقا».[1]

ففي قصيدة(تحية المولد النبوي)التي نشرت بجريدة النجاح 1929 نجد الشاعر يبدأ بالدعوة للاحتفال بهذه المناسبة الغراء،مبينا فضلها،ثم يعرض لشمائل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولدعوته وفضله على الناس،ويتوجه إليه طالبا منه الشفاعة،والنجدة للدين نظرا لما لحقه،فأرض الإسلام أهينت،ومقدساتها استبيحت من طرف أجانب قساة لا يعرفون الرحمة راجيا أن يدرَك الإسلام من أعدائه،و هي مناجاة قد تحرك نفوس الناس لنصرة الدين:

أشكو إليك بما تجدد من أذى	بعد التحاقك بالرفيق الأسعد
عصفت على الإسلام بعدك صرصر	فتبدد الإسلام كل مبدد
وجرت بأرض المسلمين حوادث	شتى كأمواج الخضم المزبد
أتذوق أمتك النكال مضاعفا	من عابث في أرضها متمرد؟
أو لم تكن حصنا لها في كربها	دنيا وعدتها يوم الموعد؟
فاشفع لها عند الإله وسل لها	منه الأمان و عذ به واستنجد[2]

وقد كان محمد العيد معلما مرشدا واعظا أكثر احتكاكا بالشبيبة في المدارس،وبعامة الناس في المحافل والمناسبات يبدد غشاوات الجهل المضللة بهدي الإسلام الصحيح،يقول في قصيدة ألقيت في نادي التقدم بمدينة البليدة سنة 1935:

نداء سرى في مسمعي ماسرى دمي	فلبيت من قلبي صداه ومن فمي
وما هزني إلا لناد مبارك	يقل كأفق أنجما مثل أنجم
منار به صوت العروبة يعتلي	وكهف به نشء (البليدة)يحتمي
وغيل منيع فانزلوه وأقبلوا	عليه تباعا ضيغما إثر ضيغم
وركن ركين فابتنوه وأدعموا	ولا خير فيما يبتنى غير مدعم

1- ركيبي عبد الله:الشعر الديني الجزائري الحديث،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط1 1981،ص 88.

2- ابن سمينة محمد:العيديات المجهولة ص42.

وأبقوه للإصلاح أبهـــر آيـــة وأظهر عنوان وأزهـــر ميســـم
أعيدوا به للديـــن عهد طلوعه على الأرض فجرا جاليـــا كل مظلـــم[1]

فبعد أن يعبر الشاعر عن تأثره الشديد للدعوة التي وجهت له ليذهب إلى هذا النـــادي الذي يؤمه فتية كالكواكب،يجعل منه منارا يرتفع فيه صوت العروبة والإسلام،وحصنا منيعـــا للشباب يحميه من الزيغ،ويغتنم الشاعر الفرصة ليطلب من الشباب الحاضر تأسيس هذا النادي على دعائم صلبة،وركائز قوية ليكون منبر الإصلاح،يعود بالدين الإسلامي إلى سالف مجـــده ليبدد الجهل،ويهتك حجبه.

ويتجلى موقف الشاعر وهدفه من القصـــيدة وهـــو الـــدفاع عـــن الـــدين في اللغـــة المستعملة(كهف،منيع،غيل،ضيغم)التي تـــدل علـــى الحماية،وكـــذلك في الأســـاليب الـــتي وضفها(أنزلوه،ابقوا،ابنوا،أعيدوا) وهي أوامر تجلى الشاعر من خلالها معلما ناصحا.

ب ــ مقارعة أعداء الإسلام الصليبيين و أتباعهم:

خلال الاحتلال القرني أظهر الفرنسيون حقدا دينيا حتى أن أحدهم قال:« إن احتفالنـــا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا للجزائـــر ولكنـــه احتفـــال بتشـــييع جنـــازة الإسلام».[2]

و لم يكن هذا الصليبي هو الوحيد الحاقد على الإسلام فقد قال الكاردينال (لافيجـــري) قبله:« علينا أن نحرر هذا الشعب،ونخلصه من قرآنه».ثم أضاف عن الجزائريين«فـــإن واجـــب فرنسا تعليمهم الإنجيل وطردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر».[3]

وحدث نتيجة هذه الاستفزازات رد فعل لدى الجزائريين فالتفوا حول الإسلام،وتشبثوا به أكثر من الماضي،«إلا أنه لا بد من تنظيم يدافع عن الإسلام،ويقود المســـلمين في طريـــق الإســـلام الصحيح النقي البعيد عن الشعوذة والخرافات التي انحرفت به وأبعدت علمـــاءه عـــن جـــادة الكفاح،بينما كانوا في القديم أثناء المقاومة،والانتفاضات القادة،ورموز الوطنية».[4]

وهذا التنظيم هو جمعية العلماء التي سخرت كل الوسائل لذلك.

1- العيد محمد:الديوان،ص 92.
2 - العلوي محمد الطيب:مظاهر المقاومة الجزائرية،ص109.
3- خرفي صالح:شعر المقاومة الجزائرية،ص266.
4- العلوي محمد الطيب:المرجع نفسه، ص109.

وكان محمد العيد من أكبر المدافعين عن الإسلام الذي بلي في زمانه بحاقدين كثيرين هاجموا القرآن محاولين الانتقاص من قيمته،وذلك باعتباره سبب تأخر المسلمين،وجهلهم وضعفهم وعدم استجابتهم للحضارة العصرية،ومن هؤلاء (آشيل)المعمر الفرنسي الذي نشر مقالات مسمومة في جريدة(الديبيش) القسنطينية متحاملا على الإسلام والمسلمين،«وكان ابن باديس ومحمد العيد له بالمرصاد فكالوا له الصاع صاعين».[1]

هيهات لا يعتري القرآن تبديل   وإن تبدلت تورات وإنجيل
قل للذين رموا هذا الكتاب بما   لم يتفق معه شرح وتأويل
هل تشبهون ذوي الألباب في خلق   إلا كما تشبه الناس التماثيل
فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا   هيهات لا تجدي الأباطيل [2]

فبعد إقرار الشاعر باستحالة التأثير على القران أو تحريفه كما حرف اليهود والنصارى التورات والإنجيل،يعرّض الشاعر بأعداء الدين فيرسم لهم صورة ساخرة فهم تماثيل صماء ليس لها من خصائص الآدمية إلا الشكل،ويتحداهم بأن ينسبوا إلى الإسلام ما شاءوا،فلن يزيده ذلك إلا قوة واستحكاما.

ثم يلتفت محمد العيد إلى آشيل في مبارزة صريحة بكل جرأة:

ما بال آشيل في(الديبيش)يسخر من   آيات محكمه لا كان (آشيل)
ما بال آشيل يهذي في مقالته   كحالم راعه في النوم تخييل
ما بال أشيل بزري المسلمين و هم   غرّ العرائك إنجاب بهاليل
أفكارهم بهدى القرآن ثابتة   فلا يخامرها في الرأي تضليل
أفكارهم بينهم شورى ودينهم   فتح من الله لا قتل وتقتيل[3]

ففي الوقت الذي كانت كلمة الحق تجلب لصاحبها الموت المؤكد نلمس الجرأة عند الشاعر الأعزل من كل سلاح يتصدى بوجه صارخ لآشيل في أبيات كلها تهديد ووعيد،ويتهمه بالهذيان،ويدعو له بالهلاك،ولا شك أن القصيدة ليست موجهة لآشيل بعينيه وإنما للاستعمار.

1- خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية، ص267.
2- العيد محمد:الديوان، ص85.
3- العيد محمد:المصدر نفسه، ص 86.

وبعد هذا الرد المقرع لآشيل«يلتفت الشاعر إلى ابن باديس في وفاء واعتراف بالجميل،وفي عاطفة دافقة،بما يستحق من التقريض.» [1]

ويشبه ما قام به ابن باديس في الرد على آشيل بما فعله (محمد عبده) في رده على الحاقدين (هانوتو،وبرتيلو) [2]

هذا ابن باديس يحمي الحق متئدا　　كذلك يتئد الشم التماثيل
إني أرى (عبده)المرحوم مندفعا　　ينحى على رغم(هانوتو وبرتيلو)
دمغت أقوال آشيل كما دمغت　　أبطال أبرهة الطير الأبابيل[3]

ج- محاربة الطرقيين:

من الهموم التي حملها الشعر أثناء الاستعمار الفرنسي،ورأى الشعراء أن يكون للكلمة دورها في مقاومتها،همّ الطرقية أو الانحراف الديني. وقد «تكونت الطرق الصوفية في الأصل في المغرب العربي في بعض الرباطات الجهادية التي أقامها العلماء والقادة لحماية الثغور والممرات الاستراتيجية المؤدية إلى أرض الإسلام وعرفت هذه الربطات فيما بعد بالزوايا». [4]

وقد لعبت هذه الزوايا دورا مهما في نشر التعليم والوعظ والإرشاد وفي نشر الإسلام وفي محاربة الغزاة،فالأمير عبد القادر خريج زاوية،وكثير من قادة الثورات خريجو زوايا ولكنهم حاربوا الاستعمار.

وبسبب بعض الغلو الذي تميز به بعض مشايخ هذه الزوايا وادعاؤهم لأنفسهم امتيازات لا تتوفر لغيرهم من البشر،وتمكن المستعمر من نفسية هؤلاء المشايخ،واستمالتهم إليه:« مغذيا فيهم روح التفسخ الديني والانحلال الخلقي مغدقا عليهم الأموال ليقيموا الحفلات والولائم،واستطاع بواسطتهم السيطرة على(عامة الشعب الجزائري)،... فقد أصبح الدين في عرف أدعيائه تعبدا لا يقبل الجدل ولا النقاش،لا يقبل إلا التسليم،وأصبحت الحكمة السارية المجسدة لهذا الوضع المنحرف(إعتقد ولا تنتقد)». [5]

1 خرفي صالح:صفحات من الجزائر، ص 73.

2-(هانوتو مؤرخ فرنسي 1853-1944،ورجل سياسة حاول النيل من الإسلام)، برتيلو فيليب سياسي فرنسي (1866-1934).

3 العيد محمد: الديوان، ص 86.

4 - الخطيب أحمد: جمعية العلماء وأثرها الاصلاحي، ص 56.

5- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص 36.

وأمام هذا الوضع،تبعية شعبية للطرق الصوفية المنحرفة،وتبعية طرقية للاستعمار، أصبح لزاما على الحركة الإصلاحية أن تقود حربا ضد هذا الوضع بوسائلها المعروفة،وهي المقاومة القلمية،وكان الشعر إحدى أدواتها،ووصل الصراع بين الطرفين إلى قمته «فقد تعرض ابن باديس لمحاولة اغتيال من أحد أتباع الطريقة العليوية».[1] وكان لذلك صدى واسع في أوساط الشعب،وخاصة المثقفين، الأمر الذي دفع محمد العيد إلى نظم قصيدة طويلة جاء فيها:

حمتك يد المولى وكنت بها أولى ... فيا لك من شيخ حمته يد المولى
وأخطأك الموت الزؤام يقوده ... إليك امرؤ أملى له الغي ما أملى
فيا لوضيع النفس كيف تطاولت ... به نفسه حتى أسر لك القتلا
ونالك في جنح الدّجى بهراوة ... فأدماك بل أدمى الكرامة والفضلا
وأدمى البرور المحض والرفق والهدى ... وأدمى الشعور الغض و الحذق والنبلا[2]

فبعد أن يهنئ الشاعر الإمام بالنجاة التي أحاطته بها الرعاية الإلهية يبين أن هذا العمل الدنيء لجأ إليه الضالون مدفوعين بالباطل بعدما أعوزتهم الحجة، وهو عمل جبان تم غيلة تحت جنح الظلام،يراد من خلاله إسكات صوت الحق.

ثم يلتفت إلى مرتكبي الجريمة حانقا متجاوزا الهدوء الذي عرف به واصفا إياهم بالأيدي الآثمة الشريرة التي يحركها المستعمر،ويتحداهم أن يأتوا بدليل يجيز فعلهم الشنيع، ويثبت لهم أن أعمالهم لا علاقة لها بالإسلام:

و لم يلبث الأشرار حتى تآمروا ... عليه فلم يألوه من شرهم خبلا
أرادوا به الفتك الذريع شماتة ... وما كان للفتك المراد به أهلا
فهل كان هذا شأن من يدعي التقى؟ ... وهل كان هذا شأن من يدعي الوصلا؟
أما كان إزهاق النفوس محرما ... على القوم أم ظنوا النفوس لهم حلا؟
إذا كنتم يا قوم بالحق قادة ... فأدلوا ببرهان إليه كما أدلى
تنخلتم يا قوم فعل محمد ... وما كان فيكم من يشبهه فعلا[3]

1- تنسب الطريقة العليوية إلى أحمد بن مصطفى بن عليوة،التي أسسها في مدينة مستغانم سنة 1910.

2- العيد محمد: الديوان،ص 122.

3- العيد محمد: المصدر نفسه، ص 123.

«ويلتفت مرة أخرى إلى الماضي العادل يستنجده على الحاضر الجائر،إلى مشرق الرســالة يستضيء ببصيص من نوره في ليل دامس يغطي الجزائر».[1]

فوا عظم صبري أين عهد محمــدٍ تــراه يُتيــح اللــه رجعتــه أم لا؟
تعالى أبا حفص ترى العدل ذاهبا كما شاءت الدنيا،تر الجور محتــلا
تغيرت الآثار بعدك وانطـــــوت رسوم الهدى واخلولق الدين أن يبلى
وجاء على الإسلام بعدك معشــر تعدوا حمى الإسلام وافترقوا سبــلا[2]

والقصيدة طويلة عالج فيها الشاعر جوانب كثيرة من الفكر الإصلاحي، بل وفيها عبر من التاريخ الإسلامي،من شخصيات لها أثر في الدين مثل عمر بن الخطاب.

والشاعر،وهو المحتك بالناشئة ساءه ما هي عليه من تدهور عقلي في فهم الــدين،وجوهر تعاليمه،وآلمه وضع الإسلام بين أدعيائه الجاهلين به،فلم يتردد في مقاومة سمومهم المبثوثة بــين الشباب،فيدعوه إلى أن ينهل من نبع الإسلام الصافي،ويجعل القران منطلقه الأول، ففــي كــل موسم وفي كل مناسبة يخاطب الشاعر طلابه في مدرسة الشبيبة بالعاصــمة، في قســنطينة.وفي بسكرة سنة 1928 يقول الشاعر:

يا معشر الطلاب هل من آخذٍ بالذكر أو متمسك بزمامه
فتشرفوا بالأخذ من آدابــــه وتعرفوا بحلاله وحرامــه
ولكل شيء في الحيــاة أذيــة وأذية القرآن من أقوامــه
عملوا على التخذير من تفهيمه فكأنهم عملوا على إعدامه[3]

وكانت تعرية أدعياء الدين وفضح سوءاقم من بين وسائل الرد المؤثرة عليهم،فقد كانوا يحيطون أنفسهم بقداسة مرهبة للعامة ويتمظهرون بمظاهر مختلفة مع ما يتبع ذلك مــن فكــر غريب و«كان هذا التطرف في الانحراف، أكبر مبرر للتطرف والعنف في الهجوم عليه فوجدنا شعرا ينتفض حقدا على التلاعب بالدين».[4]

يقول محمد العيد في هذا المقطع من قصيده الخالد الذي ألقاه سنة 1933 بمدرسة الشبيبة بالجزائر العاصمة:

1- خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية، ص 224.
2- العيد محمد: الديوان،ص 123.
3- العيد محمد: المصدر نفسه،ص 90.
4- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص 36.

ومن اللسن والمجامع والأق لام في الصحف شر طعم
وفشا الدجل فالولاية دعوى كل ذي سبحة تطور وذقن
وغلا القوم في الولي فظنوا أنه كالإله يغني ويقني
وأبوا كوثر العلوم عطاشا طمعا في ورود علم لدني[1]

هذا قليل من كثير، والذي يطالع شعر الحركة الوطنية عامة، وشعر محمد العيد خاصة يلاحظ أنه قلما تخلو قصيدة من إشارة أو تلميح إلى الوضع الثقافي السائد منتقدة له،منبهة للعقول،موقظة للشعور.

4 ــ الدعوة إلى نشر العلم:

إذا أردنا الحديث عن نشر العلم في عهد الحركة الإصلاحية التي ينتمي إليها محمد العيد،يكفي الإشارة إلى جمعية العلماء التي كانت تشرف على الإصلاح المتكامل اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا.وكان دأبها في إصلاح القضايا السابقة هو إحداث ثورة علمية بعدما تهيأت أسبابها« بعد تدليل العقبات وتمهيد الطرق التفت أولئك المصلحون إلى الناحية الثانية،ناحية الإصلاح العلمي،فدرسوا مسارب الجهل إلى جسم الأمة وكيف تكون مكافحتها،وأساليب العلم القديمة وكيف يكون إصلاحها،وحاجة الأمة إلى الفنون الحديثة وكيف يمكن جلبها فساروا في هذا السبيل خطوات بعيدة،قلصوا ظل الجهل ونشروا أنوار العرفان،فتحوا المدارس في مختلف البلاد،وهذبوا أساليب التعليم،وقربوا منال العرفان إلى الأفهام فكانت في الشعب الجزائري الذي كان مضرب الأمثال في الأمية والرطانة،نهضة علمية مباركة تضم بين أبنائها ثلة من العلماء الفطاحل،والخطباء المصاقع والكتاب المجيدين والشعراء الفحول»[2].

هذا النص جاء في جريدة البصائر ليوم 1935/12/27 ،و يليه في نفس العدد قصيدة مطولة للشاعر محمد العيد مع تقديم بعنوان(ومن العلم للمواطن تاج)،وبعد أن يشير الشاعر فيها إلى الحفل الذي جمع الشبيبة،ويشيد بالجهود البناءة المبذولة يعرج على هموم الأمة،وما يعمها من فساد،ثم يخلص إلى الحديث عن العلم الذي ظهر عند الأعداء في شكل اختراعات واكتشافات

1- العيد محمد: الديوان،ص 111.

2- أبو اليقظان: (موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري)،البصائر دار البعث قسنطينة، العدد 1،ليوم 27 ديسمبر 1935، (ص5 - 6).

تستصرخ النفوس الشغوفة بها مجسدة في وسائل لا غنى عنها ولا تقدم إلا بها من(برق،وراديـــو وغاز،ومنطاد).

إن في العصر آية لبني الشـــرق ولكنهم عن الذكر حـــادوا
نفخ الصور للقيامـــــة في الأر ض وقامت من القبور العباد
ودوى العلم في السماوات والأر ض وردّت دويه الأبعــــاد
هتف البرق باسمك الخالد السا مي وحياك بالغنـــاء الرادو
وغزا الغاز تحت بندك وأنطـــا د إلى أوج خلدك المنطـــاد [1]

ثم يتساءل الشاعر عما يصفد أمته، أهو الظلم الذي تعانيه،أم الوهم الذي سكن العقول، أم هو الخلاف الـــذي دب في أوصـــالها فأوقعهـــا في جهـــل حالـــك لا مخلـــص منـــه؟:

إن أفكارنا تحـــاك الغشـــاوا ت عليها وتضرب الأسداد
أمن البغي فوقنـــا مرهفـــــات ومن الوهم حولنا أصفاد؟
قد وقعنا يا علم في هوة الجهـــ ل ولما يتح لنـــا الأنجـــاد [2]

ثم يلتفت إلى الشعب ويدعوه إلى السعي الحثيث،ليطّرح الإهمال والجهل،والغفلة والتعب ويقوم بالحرف التي تغنيه:

أيها الشعب اعتد الكسب ذخـــرا ليس بالكسب للشعوب عتاد
شاع فيك الإهمال والجهل والغفـــ لة والفقر والضنى و الكســـاد
فـــإذا قمت بالفلاحـــة أثـــرى في الألى أعدموا فيك ســـادوا
وإذا قمت بالتجارة فيك أزرى بالألىأسلموا الألى فيك هادوا [3]

وقد حز في نفس الشاعر أن يرى الجزائر- بلد الخيرات الباطنـــة والظـــاهرة- عـــاجزة تستجدي كساءها وأقواتها من فرنسا،لأنها لا تملك مقومات ذلك فارسلها زفرة حادة:

غير حي على البسيطة شعب ليس فيه صناعة واقتصاد [4]

«ويقارن بين العلم والجهل بين القوة المادية المخربة،وبين القوة العلمية البانية»[5]،فيقـــول إن العلم هو سلطان الوجود وهو وسيلة السيادة والمجد،ومناعة الأوطان،ويرى أن أغلـــى مـــا

1- البصائر عدد 1 ليوم 27 ديسمبر 1935،ص05-06،أو الديوان ص118.
2 - البصائر عدد 1 ليوم 27 ديسمبر 1935،ص05-06،أو الديوان ص118- 119.
3 - م ن ،ص6،أو الديوان ص121.
4- م ن،ن ص.
5-ينظر سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري،ص 140.

يشيده الإنسان من حصون،وما يرفعه من قلاع يتمثل في المدرسة التي تنـــتج العقول،والمصـــنع الذي ينتج وسائل التنفيذ،أما الجهل فهو كالغراب الذي لا يحوم إلا على الخراب،وعلى الأرض اليباب:

العلم سلطان العقول فسد بـــه   من شئت أو ذد عن حياضك وادفع
والجأ له بدلا الحصون فلا أرى   حصنا كمدرسة سمت أو مصنع
قل للجزائر انشئـــي كليـــــة   تمحـــو جهالـــة شعبك المتسكع
الجهل غيم فوق أرضك ضارب   غطى علـــى أحيائهـــا و الأربع
الجهل أشبه بالغراب فمـــا لـــه   من مترل غير الخراب البلقـــع [1]

أ ـــ مقاومة الفقر:

ليس الجهل وحده هو الذي ألهي الشعب الجزائري عن العلم ولكنه أيضـــا الفقـــر،اليتم والأيتام،وكل مظاهر البؤس والحرمان والانحراف التي سببها الاستعمار،فجعل الشعب يعـــيش فقرا دائما أعوامه كسنين يوسف القاسية،لا أحد يجبر كسر الآخر،لأنه يشق عليـــه كســـب الرغيف البسيط،أو الحصول على السترة الرثة.وفي المقابل يوجد أناس يتطاولون في العمران حتى لا ينظرون إلى من دونهم،لأنهم تبلد فيهم الحس وماتت المشاعر،فلا يعنيهم أمر الأمة ولا فقـــر الفقراء.يصور الشاعر هذه المآسي سنة 1931 لعله يثير المشاعر الإنسانية في قصيدة منها:

فشا الجوع واشتد عسر المعاش   وعادت سنو يوسف الغابرة
تفاقم كرب الفقير الكسيـــر   أما عندكم من يد جابـــرة
يشق عليه الرغيف الطفيـــف   وتعوزه الخرقـــة الساتـــرة
فيا أيها الرافعون القصـــــور   إلى الجو في الأمـــة القاصرة
ويا أيها الوادعـــون النيـــام   على الخز في السرر الفاخرة
ألا تذكـــرون حفـــاة عـــراة   أصابهم الفقـــر بالفاقـــرة [2]

ويختم الشاعر القصيدة باستفزاز هؤلاء النيام عن المجد بآذانات خيرية تصدرها الجمعيـــة الخيرية بالعاصمة برئاسة الشيخ العقبي لتحفيز الناس علـــى الجـــود لإنقـــاذ إخـــوانهم مـــن العسرة،وتسجيل أسمائهم على صفحات الخلد:

1- العيد محمد:الديوان،ص145.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 251،252.

لقد آن أن تستفـــز النيـــام　　　آذانات خيريـــة باكــــــرة

إذا صاح (عقبيها) للغيـــات　　　أجابته عقبانهـــا الكاســـرة

إلى الوجود يا قوم فالمعوزون　　　من الناس في عسرة عاصرة

فمن جاد ساد اسمه في الحياة　　　وكان له الخلد في الآخرة[1]

ب ــ مقاومة الانحراف:

لقد كانت الحركة الإصلاحية تهدف إلى تكوين الإنسان المتكامـــل جســـما وروحـــا المتوازن،وهذا لا يتم إلا بعامل التربية التي تكون حاجزا بينه وبين شرور الحياة،ومن يلقي نظرة على الأخلاق العامة مع بداية الحركة الإصلاحية يصاب بالذعر،والذي يسبر أغوارها بتبصـــر ووعي يصاب بالرعب،انحراف عام شمل البنين والبنات لهو و عبث في الأزقة،وتعاطي خمر،وزنى مكشوف وهو - والله - وضع يندى له الجبين،مجد ضائع مضاع ليس هنـــاك قـــدرة علـــى حفظه،وليس أدل على هذا إلا هذه الأبيات لمحمد العيد ألقاها سنة 1933:

يا لَمجد مضيع غير مجـــــد　　　عض كف عليه أو قـــرع سن

قف معي بالجزائر اليوم واسبر　　　غـــور أحداثهـــا بعيـــن وأذن

تجد الطفل في الأزقـــة يلهـــو　　　والفتى يشرب الخمـــور ويزني

تجد الطفلة اليتيمـــة تشقـــى　　　تحت خذر تنوء أو تحت خدن[2]

هذه الصورة القائمة للوضع دفعت الشاعر إلى أن يقف موقف المســـؤول نحـــو وطنـــه وشعبه،لا يكتفي بمجرد نقل الصور السوداء عن الوضع،وإنما يعمل على إصلاحها،وذلك بذكر كل آفة اجتماعية وما ينجر عنها،وكل سلوك وما يترتب عنه،ثم الترغيب في الفضائل والتنفير من الرذائل.وهذه طبيعة الشعر الاجتماعي الذي لا يكتفي بتشخيص الداء وإنما باقتراح الدواء.

يقول محمد العيد:

الخمر شربة رجس أم أرجــــاس　　　الخمر صاعقة تهوي على الـــراس

الخمر فأس خراب هدمت أســـرا　　　مصونة عاث فيها صاحب الكاس

يا شارب الخمر ما ترجوه من درن　　　للعرض،غول عقول،لص أكيـــاس

فحطم الكأس واهجر كل رفقتها　　　تعش سعيدا و تأمن ألسن النـــاس[3]

1- العيد محمد: الديوان،ص 253.

2 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص 110.

3- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 281.

وكان الانحراف الخلقي بجميع أشكاله هو السبب في تعثر خطى الإصلاح فلا تقدم بدون مقاومته،واقتلاع جذوره ومنها سفور الفتيات وانحرافهن وتخليهن عن آداب ملتهن، وإعراضهن عن الإسلام ومبادئه السمحة،مقلدات النساء الغربيات.يقول محمد العيد في هذا الشأن:

ما بال سير فتاة العصر منحرفا يهوي بها في مهاوي الإفك والزور
ما بالها هجرت آداب ملتها ما بالها أعرضت عن خير دستور
في كل مرحلة تزداد ظلمتها في الرأي فاقرأ عليها سورة النور [1]

وبهذا العرض نصل إلى أن المقاومة الثقافية عند محمد العيد لها ملمح بعيد،يمتد لشمل الأجيال القادمة،فواقعه بكل معطياته الاجتماعية الثقافية والسياسية كان يتطلب تغييرا جذريا قبل التعبئة الثورية،فالشاعر لم يجد في الجيل الذي عاصره نمطا مؤهلا لذلك،فهو شباب مضطرب الهوية،مشلول الإرادة،فمد الشاعر بصره إلى الأجيال القادمة« إذ كان يري في الشبيبة أشبالا في مدرسة باعتبارها حارسة أمينة على وطنها ودينها ورقي بلدها». [2]

وحراسة المقومات السابقة لا تتأتى إلا بتكوين هذه الشبيبة تكوينا يجمع المعرفة الحديثة والتطور التكنولوجي بأصالة هذه الشبيبة العربية الإسلامية،ومن ثم تصبح قادرة على صناعة الأحداث.

ويمكن القول إنه بالمقاومة الثقافية استطاع المثقفون الجزائريون إبعاد الهوية الوطنية عن خطر التمييع،وذلك لأن هذه المقامة ارتبطت بجذور قومية إسلامية وهي:« لا تهيئ لمجرد التحرير،وإنما لبعث الشخصية،فعندما يستنهض أبناء الجزائر فبصفتهم أبناء الضاد وعندما يستنفرون فلأن الإسلام يأبى الذل والضيم وعندما يدعون للثورة فلتحرير العقيدة واللغة». [3]

وبهذا فإن نصوص محمد العيد كمثقف جزائري بالإضافة إلى الدور الذي قامت به في آنها،فإنها خلدت لنا وللأجيال جانبا من تاريخ المقاومة الثقافية والفكرية للشعب الجزائري من أجل الحفاظ على مقوماته الأساسية من لغة ودين وتاريخ.

1- العيد محمد:الديوان،ص 279.

2- فاطمة ولد حسين:الألفاظ السياسية في ديوان محمد العيد آل خليفة،(رسالة ماجستير في اللغويات)، جامعة قسنطينة 93/92،ص 343.

3- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث، ص 155.

II. - المقاومة السياسية:

لم يتوقف الشعب الجزائري عن مقاومـة الاسـتعمار منـذ وطئـت أقدامـه أرض الجزائر،فقامت انتفاضات وثورات،لكنها فشلت لأسـباب موضـوعية،منها: أنها لم تكـن منظمة،وإنما كانت انتفاضات شعبية هنا وهناك تفتقر إلى الشمولية وتنقصها إستراتيجية واضحة محددة الأهداف.

ولهذا رأى الجزائريون بعد الحرب العالمية الأولى ضرورة تغيير أساليب المقاومة ووسائلها وفق مستجدات ظهرت على الساحة الدولية وعلى الأرض الجزائرية.

وبدأت هذه المقاومة تأخذ طابعا سياسيا تمثل في ظهور حركات سياسية وجمعيات ثقافية أثبت الجزائريون من خلالها أنهم كغيرهم من الشعوب شعب متحضر مكذبين بذلك مـزاعم الاستعمار الذي وصفهم بالتوحش والهمجية لتبرير وجوده كرسول للحضارة والمدنيـة.وقـد تمكن الجزائريون من إثبات فكرتهم بأنهم شعب له أرض استعمرت،وسـيادة سـلبت،وحقوق اغتصبت وهم يعملون على استرجاعها بالطرق التي تمليها عليهم ظروفهم.

وقد تمثلت هذه الطرق (طرق المقاومة) في ظهور حركات سياسية تحولت إلى أحـزاب سياسية،وفي جمعيات ثقافية تحولت إلى سياسية وقد تعددت هذه الأحزاب والجمعيات ولكـن الثابت هو أن جهودها تظافرت جميعا من أجل هدف واحد هو تحرير الجزائر،وإن اختلفـت وسائلها باختلاف منطلقاتها الفكرية.

و لم يكن شعر العشرينيات بمعزل عن هذه الأحداث بل كان من أهم المنابر المعبرة عـن أفكار هذه الحركات والجمعيات«فقد كان ملتزما إلى أبعد الحدود،إذ غرق في خضم القضـايا الوطنية والقومية».[1]

وقد اختار بعض الشعراء الانضواء تحت لواء الأحزاب كما فعل مفـدي زكريا،الـذي انضم إلى حزب الشعب،ومحمد العيد الذي رابط في صف جمعية العلماء وواكب بشعره كـل القضايا السياسية التي خاضت معامعها عندما صار ذلك ضرورة اقتضتها الظروف.

صحيح أن جمعية العلماء بدأت إصلاحية اجتماعية ثقافية شأنها شأن كل حركـة تبـدأ مسالمة،وعندما تقوى و تستحكم تحاول فرض منطقها.وجمعية العلمـاء لم تحـد عـن هـذه القاعدة،فيوم حدثت بعض المستجدات السياسية التي كان لها مساس بالوطن ووحدته وهويتـه

1- الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكريا ط1،دار البعث قسنطينة 1987 ص 37.

«أصبحت الجمعية تخوض في السياسة مع أن قانونها الأساسي يمنع ذلك بصريح اللفظ،وأصبحت تدلي برأيها في الحلول التي تطرحها بعض الجهات الأخرى،وتتحمس لهذا الرأي إذا كان له مساس بشخصية الوطن التي تعتبر الجمعية نفسها سادنة عليه».[1]

وقد عبر عن موقفها شاعرها محمد العيد آل خليفة،فقلما تخلو قصيدة في ديوانه من رائحة السياسة،فقد تغنى بالوطن،وتحدث عن همومه،وعن النيابة والانتخابات،وكان صوت الجمعية في المؤتمر الإسلامي،وخاطب الوفد المتوجه إلى فرنسا،ودعا إلى الوحدة الوطنية،والوحدة الإسلامية والعربية،وتغنى بالحرية والاستقلال،ورثى الشهداء ومجد الأبطال.

1 ـــ التغني بالوطن:

تغنى الشعراء بالوطن منذ القديم،وسجلت كتب الأدب وتاريخه كثيرا من النماذج التي يعبر فيها الشعراء عن حبهم لأوطانهم،وتعلقهم بها وأملهم في ازدهارها ورقيها،ونذرو أنفسهم للدفاع عنها بغض النظر عن موقفها ظالمة أو مظلومة كما يعبر عن ذلك هذا النموذج لدريد ابن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[2]

وبالنسبة للعصر الحديث فإن الشعر الوطني أصبح ظاهرة عامة عند الشعراء العرب،وكان هذا لأسباب سياسية تتعلق بالاستعمار.

وحين نتصفح ديوان محمد العيد نجد أن الحديث عن الوطن كثير وقد تعددت الألفاظ الدالة عليه.

ولكون الجزائر وطنا ذا طبيعة ساحرة حباها الله بثروات باطنة وظاهرة فقد كانت مطمع الطامعين،وجعلها ذلك تقع فريسة للاستعمار الذي سلط عليها جنوده ذوي البزات السوداء يعيثون فيه فسادا، فصيّروا نعيمها جحيما،وعمرانها خرابا مثيرا للوحشة تنعق به الغربان،وسعادتها شقاء يدفع النفوس إلى الحسرة،وهذا ما عبر عنه محمد العيد في قصيدة سنة 1932 منها:

1- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص113.

2 - خليل إبراهيم عبد الرحمان:دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم) الشركة الوطنية للنشر التوزيع،الجزائر 1981، ص45.

وأغرب خطب هالني خطب موطن لنا منعته الشمس أسراب أغرب
بأجنحـــة ســـود كـــان خيالهـــا ظلام بليل قاتـــم الوجه غيهب
فيا لك فردوســـا تحـــول دمنـــة ويا وحشتا من أغرب فيك نعَّب
ويا وحشتا من محنـــة نكبت بهـــا سلالة مازيـــغ وفتيـــة يعـــرب[1]

والحديث عن الوطن في شعر محمد العيد يرد في مختلف الأغراض التي تناولها خاصـــة في قصائد الوصف،وفي القصائد الثورية.

وعندما يتغنى الشاعر بوطنه،لا يفعل ذلك لأن حب الديار شغل قلبه،أو لأجـــل هنـــد و أسماء،وإنما يتغنى بوطنه الجزائر،الجزائر التي يجهر بحبها،لأنه - لولا الاستعمار- لنعم بنعيمهـــا وتفيء ظلالها،ورغم ذلك فالشاعر يحبها حبا يزداد ويقوى بجوانحه مع مرور الأيام،و ليؤكد هذا الحب يقسم الشاعر - وأي شيء أبر من القسم - أنه لن يتوانى في تقديم نفسه فداءً لهـــا،يقول في قصيدة (استوح شعرك) سنة 1937:

يا موطنـــا لـــي خصبـــه ونعيمـــه وله هواي على المدى وتشيعـــي
ما زال حبـــك ناشئـــا مترعرعـــا فيّ ناشـــئ بجوانحـــي مترعـــرع
أقسمت لـــو خيرتنـــي في مصـــرع ما اخترت إلا في سبيلك مصرعي
اسأل أجب،وأمر أطع،و اصرخ أغث واصفح أنب،واسمع أقل،وانصح أعِ[2]

«والشاعر يدافع عن بلاده دفاعه عن نفسه لأنها ملء كيانه،وجزء لا يتجزأ من وجوده».[3]

وهذا التعلق الشديد بالأرض يعني فطرة الانتماء إلى وطن حرّ وجود الشـــاعر مرهـــون بوجوده لذا يجب فداؤه،يقول الشاعر في قصيدة بلادي سنة 1937:

بلادي فداك الروح والله عالـــم عليك سلام خالص القصد سالم
يحييك مشتاق على القرب مشفق من البعد مشغوف بحبك هائـــم
وهبتك روحي يا جزائر فأمـــري كما شئت إني لك طائع خـــادم[4]

والشاعر حين يعبر عن حبه لوطنه لا يتناول ذلك دون إشارة أو تلميح إلى الاســـتعمار الغاصب،ونعته بأسوء النعوت،فكما عبر عنه سابقا بالغربان يصفه هنا بـــالجوائح الـــتي تهـــدد

1- العيد محمد:الديوان،ص289.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص144.

3- سلمان نور:الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص327.

4- العيد محمد:المصدر نفسه،ص135.

الوطن،وبالنسور التي تحوم حول فريستها،ويلتفت إلى الشعب طالبا منه الذود عن هذه الأرض وتطهيرها من الجوائح التي تهددها،ويدعوه إلى إنقاذها من النسور التي تحوم حولهـــا مســـتلهما التاريخ المجيد للأمة لأنه قد يكون محفزا للشعب محرضا له،ويتجلى ذلك في هذا المقطـــع مـــن القصيدة السابقة الذكر:

هلم نذد عنها جوائح جمـــة تهددهـــا من حولنا وتهاجـــم
هلم نذد عنها نسورا حوائما عسى تنجلي عنها النسور الحوائـــم
سخونا فسامتنا بكل إذايـــة سوائم بالمكروه فينـــا سوائـــم
لقد كانت الأجداد أسدا ضراغما بها فهل الأحفاد أسد ضراغم؟ [1]

وتتجلى النزعة الثورية في هذا المقطع في تكرار عبارات بعينـــها بعضـــها يـــدل علـــى المقاومة(هلم نذد،أسد ضراغم)،وبعضها على العدو(جوائح،تهدد،تهاجم،نسور).

وعندما يحث الشاعر قومه للدفاع عن وطنه ينسى واقعه الأليم ويحدوه الأمل ويغمـــره التفاؤل النابع من إيمانه بقوله تعالى:« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». [2]

وحينما يغيرون ما بانفسهم يستجيب لدعواهم ويرفع بلواهم،ويحقق مبتغاهم،يواصـــل الشاعر:

وهل تلتقي فيها القلوب على الرضى وتخطئها أحقادها والسخائـــم
وهل ترتقي فيها العقـــول وتنتقـــي من العلم حظا للعلوم يلائـــم؟
بلى سوف يحي الله كل ربوعهـــــا فتزكو بواديها وتزهو العواصم[3]

وإذا كانت المواطنة بالمفهوم السياسي تعني:«موقف الارتباط العاطفي والإخلاص للبلـــد الذي يشكل الفرد مواطنا فيه»[4]،فإن محمد العيد يعتقد هذا التعريف اعتقادا ،ويرفض المواطنـــة الشفهية ويقدم تصوره الشخصي لحب الوطن،و كيفية السعي إلى عزه ومجده،وذلك بالعمـــل على تحريره،حتى وإن كان ثمن ذلك تقديم النفس قربانا لأجله، يقول في قصيدة عز الأوطان:

1- العيد محمد:الديوان، ص136.

2- سورة الرعد الآية11.

3- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 138.

4- سعفيان أحمد:قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية،ص405.

إذا ما رمت للأوطان عــزا فجد بالنفس واستبق الفداء
وإن حمل الخصوم عليك يوما فقم لنضالهم وخض الدماء[1]

وهنا يلتقي محمد العيد بأحمد شوقي الذي يقول:

وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحـــق[2]

2 ـــ التعبئة السياسية على صعيد جمعية العلماء:

حينما نتحدث عن شعر محمد العيد السياسي،لا يمكن الانطلاق إلا من خـــلال نشـــاط جمعية العلماء في هذا المضمار،لأن الشاعر نشأ في هذه الجمعية التي اتخذت من الإصلاح شعارا ظاهرا لها حتى تصل إلى الهدف المنشود ألا وهو الثورة،« لذلك يلاحظ في جميع الثورات أنهـــا تبتدئ إصلاحا،ثم تنقلب ثورة عندما لا يحقق الإصلاح الهدف المنشود».[3]

وفعلا أدركت الجمعية أن الإصلاح لا يحقق الهدف المنشـــود بنـــاء علـــى ســـلوكات الاستعمار، بما كان يمارسه عليها من تعسف،دفعها إلى ممارسة السياسية رغم أن دســـتورها لا ينص على ذلك« وسياسة التعسف هذه هي التي مهدت لتعبئة سياسة هادفة حـــتى بالنســـبة للحركات الدينية و(جمعية العلماء) التي كانت تنفي عن نفسها أية صبغة سياســـية لم تســـتطع الوفاء بهذا الالتزام».[4]

فالقوانين الجائرة، والمضايقات التي يتعرض الجزائريون كانت عـــاملا حاسمـــا في تغـــير استراتيجيات العمل بالنسبة للجمعيات،ويرى صالح خرفي أن التعبئة السياسية بالنسبة للعلمـــاء كانت موجودة قبل الثلاثينيات أي قبل تأسيس الجمعية« ولعله إنصافا للتـــاريخ نقـــرر بـــأن السياسة بالنسبة للعلماء ليست وليدة الثلاثينات،فقد صرّح الشهاب لسان الجمعية سنة1928 بأنه للسياسة كما هو للتهذيب».[5]

أما عن مدى إسهام محمد العيد في القضايا السياسية قبل الثلاثينيات فيعـــود إلى ظهـــور قانون الهجرة الذي فرضته السلطات الاستعمارية للحد منها،وأثار ذلك موجة استياء حيث ندد به الأمير خالد وطالب بحرية الهجرة،وتحرك لها أيضا النواب المسلمون وألحـــوا علـــى إلغـــاء

1- العيد محمد:الديوان،ص 543.

2- شوقي أحمد:الشوقيات، ج2،دار العودة بيروت 1983،ص 76.

3- الشيخ صالح يحي: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 56.

4- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، ص 188.

5- خرفي صالح:المرجع نفسه، ص 191.

الإجراءات،وانتقد فرحات عبـــاس مـــن جهتـــه بشّـــدة موقـــف المعمـــرين مـــن الهجـــرة «وقد اهتز أيضا دعاة الإصلاح على لسان شاعرهم محمد العيد اهتزازا رومنطقيا مؤثرا».[1]

وهذه القضية وقعت بعد حادثة(سفينة سيدي فرج) التي هلك فيها مجموعة من الشباب الجزائري سنة 1926،كانوا قد تسللوا إلى فرن الباخرة بمساعدة أحد الأعـــوان مهـــاجرين إلى فرنسا طلبا للرزق،الذي ضاقت سبله في بلادهم،وكانت النتيجة أن مـــاتوا اختناقـــا بالغـــاز، فاستغل محمد العيد المناسبة في قصيدة تضمنت الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى الهجرة والتنديد بسلوك الاستعمار غير الحضاري المناقض للمبادئ الإنسانية التي يدعيها: يقول سنة1926:

قسا البلد الجريح وضاق ذرعا ... بهم فتيمموا البلد الرحيبـــا
وأدرك ربعهـــم جذب مشت ... لهم فاستقبلوا الربع الخصيبا
وقالـــوا إن في باريس عيشـــا ... يروق غضاضة ويلذ طيبـــا
فسدت في وجوههم النواحـــي ... مسالكها و لم ترحم حبيبـــا
وقامت ضجة في الغرب كبرى ... تصب عليهم النقد المريبـــا
فكم من قائل أخشى وحوشـــا ... تدب بأرض باريس دبيبـــا[2]

وبعد أن يذكر الشاعر الأسباب التي دفعتهم إلى الهجرة بهذه الطريقة نظرا للقوانين الجائرة التي تمنعهم بطلب من المعمرين، يواصل وصف المأساة التي لا تنسى داعيا القائمين على فرنســـا لتأمل الجريمة البشعة التي تشيب لها النواصي:

وقل للقائمين على فرنســـا ... تعالوا فاشهدوا الخطب العجيبا
جسوم في(فروش) مجدلات ... تعانـــي تحتـــه(الغاز) الرهيبـــا
وأجساد ممزقة الحشايـــا ... تكاد لها النواصي أن تشيبـــا[3]

ثم يبين محمد العيد أن هذا الخطب،سيبقى ذكرى سيئة،وحزنا يدمي قلـــوب المســـلمين والمسيحيين على حد سواء،في محاولة منه لاستمالة الفرنسيين والتأثير عليهم, وهم سبب المأساة:

1- زوزو عبد الحميد: دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين(1919-1932)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر(د.ت)،ص19.

2- الزاهري محمد الهادي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر،ج1، ص14-15 .

3- الزاهري محمد الهادي: المصدر نفسه، ص 15.

فحسبك أيها الخطب المفاجي لقد أشهدتنا اليوم العصيبا
فأبكيت الهـــلال بـــه وطـــه وأبكيت ابن مريم والصليبا [1]

أ- محمد العيد والمجالس النيابية(الحزبية):

إن عدم ممارسة السياسة علنا بالنسبة للجمعيـــة لا يعـــني إهمـــال الشـــؤون الوطنيـــة والقومية،فهذا أمر لا مساومة فيه، وقد شدد ابن باديس على ذلك قائل:«نحـــب مـــن يحـــب وطننا،ونبغض من يبغضه ويظلمه،فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري،وتحبيب بنيه فيه،ونخلص لكل من يخلص له،ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه»[2].

ومن القرارات الجائرة المستفزة لجمعية العلماء ولشاعرها محمد العيد قرار إغلاق مساجد العاصمة في وجه القائمين بالوعظ و الإرشاد من أعضاء الجمعية سنة1933 هذا القرار الـــذي «كان بإيعاز من رجال الدين الرسميين المناهضين للحركة الإصـــلاحية،وبتواطؤ مـــع النيابـــة الجزائرية».[3]

وقد عبر محمد العيد عن هذا الحدث وأظهر وعيا سياسيا كبيرا ومطامح ثورية،يقول في هذا المجال ساخرا من النواب الذين يطأطئون رؤوسهم خضوعا لذوي السلطة، كاشفا سوءات الاستعمار ونواياه البغيظة من غلق المساجد والمدارس:

أفدني برأي في النيابات هل حوت أساود في قاعاتهـــا أم وسائـــدا؟
وإلا فما تلك السموم الـــتي سرت فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا؟
ألم يأتهـــا أن المعابـــد حجـــرت على الذاكرين العامرين المعابـــدا؟
وكم من مآو أو مكاتب عطلـــت على أنهـــا تهدي البنيـــن المراشـــدا
فيا نائبا نـــاب البـــلاد بحـــادث فخلف شعبا قائمـــا فيـــه قاعـــدا
على أي ظهركنت سوطك منـــزلا وفي أي نحر كنت سيفك غامـــدا؟
ومالك ترغي في النيابـــة موعـــدا ألم تك من قبـــل النيابة واعـــدا؟ [4]

1- الزاهري محمد الهادي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر،ج1،ص 16 .

2- الخطيب أحمد: جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي،ص235.

3- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، ص 193.

4- العيد محمد: الديوان، ص 97.

وتبدو الأبعاد السياسية للقصيدة في كشف الانحراف عن المصلحة العليا للشعب،أو عـــن القضية الوطنية،وفضح التناقض بين الوعود المعسولة أثناء الدعاية الانتخابية،والتنكر للشـــعب وإدارة الظهر له بمجرد الجلوس على عرش المسؤولية.

وفي قصيدة أخرى لا يرى الشاعر في النيابات إلا مصائب نازلة على الأمة،ولا يـــرى في القيادات إلا سلاسل في أعناق الشعب تحد آماله،ذلك لأن هذه القيادة لم تنبثق عن إرادة وطنية حرة لأن الاستعمار هو الذي صنعها وقد خاطها على مقاسه لنشر الفتنة بين أبنـــاء الشـــعب الواحد،طبقا لمبدئه المشؤوم(فرق تسُد)؛يقول محمد العيد:

يا بلادا مـــا للزعامـــة فيهـــــا   قوة أو لزاعميهـــا اتحـــاد
النيابـــات كلهـــــا نائبـــــات   والقيادات كلهـــا أقيـــاد
أرغم المرشدون فيك على الصمـــ   ـت وبثّت عليهم الأرصـــاد
كم يلاقي من العقوبـــات حـــرّ   ذنبه الوعظ فيك و الإرشاد [1]

وطالما أن الاستعمار هو المسيطر على دواليب الحكم، فهو لن يسمح بالترشح في النيابـــة إلا للذين يحسنون الصمت عن قول الحق،ويتجرأون على قول الباطل، أما الأحرار فقد ألجمت ألسنتهم،وهذا الشعار الذي كان متداولا خير شاهد على ذلك:«هذا زمـــن الصّـــمت فـــإذا تكلمت الباطل فستعيش،ولكنك إذا تكلمت الحق فإنك ستموت». [2]

ب- محمد العيد والمؤتمر الإسلامي:

كان نشاط جمعية العلماء في الميدان السياسي خاضعا للعوامل والظروف السياسية الـــتي كانت تمر بها البلاد،لذا كانت الجمعية تتكيف مع تلك الظروف،فعندما يحتد موقف الاستعمار يلين موقفها،وعندما يهدأ تشتد في الطلب،رغم هذا لم تتغير ثوابتها نحو أصالة الجزائر وعروبتها وإسلامها ووحدة ترابها،كما ظهر ذلك على ألسنة كتابها نثرا أو شعرًا.

ولهذا اضطرت الجمعية إلى المشاركة في مؤتمرات مع تيارات سياسية تختلـــف معهـــا في المنطلق والهدف،فقد حدث وأن شاركت في المؤتمر الإسلامي مع الحزب الشيوعي الجزائـــري الذي لعب دورا كبيرا في الترويج لهذا المؤتمر على الرغم من البون الواسع بينهما في المبدأ،وقـــد

1- العيد محمد: الديوان، ص 120.

2- سلمان نور:الشعر الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 171 .

عوتبت الجمعية على ذلك فردّ ابن باديس قائلا:«كل عدو للاستعمار فهـــو صـــديق عبـــد الحميد،وكل صديق للاستعمار هو عدو عبد الحميد».[1]

إذًا فمنطلق الجمعية كان من ظروف البلاد الواقعة تحت أبشع استعمار،هذه الظـــروف التي تحتم على كل التشكيلات أن تتظافر وتوحد العمل رغم اختلاف مشاربها الايديولوجيـــة والسياسية،وهذا ما تم بالفعل فقد جمع المؤتمر كما يرى شارل أندري جوليان: « جمع مؤتمر 07 جوان 1936بالعاصمة الممثلين عن جميع الهيآت والأحزاب المنتخبين والمتطورين الدكاترة (بـــن جلول،سعدان،وابن التهامي وكذلك فرحات عباس) وعددا من العلماء الشيخان(ابن بـــاديس والعقبي)ونواب من نجم شمال أفريقيا(مصالي الحاج)وشيوعيين (ابن علي بوخرت)» .[2]

غير أن بعض الدارسين يرون أن حزب الشعب لم يشارك في المؤتمر نظرا لمطالبه المتواضعة «وربما كان طابع الاعتدال الذي صبغ اتجاه المؤتمر دافعا لهذا الحزب(حزب الـــنجم)إلى عـــدم المشاركة في أعماله».[3]

وكان المؤتمر أملا للشعب الجزائري،وحدثا عظيما روجت له الصحافة آنذاك«وتتجلـــى أبعاد المؤتمر في هذا التلاحم الشعبي الذي شهدته الجزائر ذات اليوم،في ميلاد جمعية العلماء ولقد كان الشعر أصدق صورة لهذه الأبعاد». [4]

ومن غير شك أن الشاعر الوحيد الذي كان صوت هذا المؤتمر هو محمد العيـــد شـــاعر الجمعية الذي كان له أكثر من قصيدة في هذا المؤتمر فقد خلده يوم انعقاده لأول مرة بقصـــيدة طويلة ودّع فيها الوفد الذاهب الى باريس بقائمة المطالب المنبثقة عن المؤتمر منها:

صادف رضى والق رفدا   ياوفد بوركت وفـــدا
أمَ باريس ركبـــــا   باليمن تحدو وتحـــدى[5]

ثم تحدث عن الآمال المعلقة على هذا الوفد،وعن الوعود التي طالما أطلقتها فرنسا و لم تف بها:

1- بوصفصاف عبد الكريم: جمعية العلماء وعلاقتها بالحركات السياسية الأخرى، ص 297 .

2- جوليان شارل أندري:أفريقيا الشمالية تسير،ص153.

3- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، ص 201.

4- خرفي صالح:المرجع نفسه، ص 202.

5- العيد محمد:الديوان،ص289.

ياوفد ذكر فرنسا عهدا تقادم عهـــدا
قل مسنا الضر قبلا وخاننا الصبر بعـــدا
متى تفين بوعـــد يا أعذب الناس وعدا؟[1]

كما عبر عن غضب الشعب من سياسة التسويف والمماطلة وهو يرى أن الحقوق يجـــب أن تؤخذ بالمغالبة وليست نعمة تسدى:

أنا نقاضيك دينـــا قد آن أن يستـــردا
حقا لنا منك يقضى لا نعمة منك تسدى[2]

ويتوجه إلى الشعب يدعوه إلى التمسك بحقه وإلى الدفاع عنه بكل إخلاص وقـــوة،ولا يهاب الموت الذي هو سبيل العز:

ياشعب بشراك هذا خير لجيلك يهـــدى
فخط للعز صرحـــا وخط للذل لحـــدا
وسل من الموت قربا تنل من الموت بعـــدا
إن الجزائـــــر منا بالروح والمال تفدى[3]

وكما هو ملاحظ فإن الشاعر تجاوز الإطار السياسي للمناسبة وهو المطالبـــة بـــالحقوق بصورة سلمية إلى التحريض عليها،وفداء الجزائر بالروح و المال.

كما ألقى الشاعر في الذكرى الأولى لهذا المؤتمر المنعقد في أوت 1937بالجزائر قصـــيدة طويلة عبّر فيها عن الآمال،وتحدث عن أهداف المؤتمر وأهميته لكونه مؤتمرا عظيما بـــه تـــبنى الجزائر من جديد،وتبعث مآثرها وأمجادها القومية،وتسمع صوتها بعد ما كان خافتـــا،وتتخلص من العراقيل التي وضعها الاستعمار في سبيل مستقبلها، يقول الشاعر بعد تحية الحاضرين:

شهدت اليوم مؤتمرا عظيما أغرّ لمثلـــه يجب الشهـــود
به تبنى الجزائر من جديـــد وتستحيا المآثـــروالجـــدود
ونبعث صوتنا الشعبي حرا يدوي مثلما دوت رعـــود
ونقتحم السدود إلى حقوق حرمناها وإن علت السدود.[4]

1- العيد محمد: الديوان،ص289.

2- العيد محمد: المصدر نفسه،ص300.

3- العيد محمد: م ن، ص 302.

4- العيد محمد:م ن،ص303.

وعلى الرغم من إفراط الشاعر في التفاؤل،فإن ما تمخض عن المؤتمر كان بعيدا تماما عما ورد في القصيدة.

وحين يتحدث محمد العيد عن المؤتمر بذلك الحماس الفياض،فهو إنما يعبر عن الآمال التي تحتدم بين جوانح كل جزائري مخلص غيور على وطنه،هذه الآمال معلقة على وعود استعمارية كاذبة ينتظرها الشاعر من غير جدوى فيصرخ مرة أخرى مصـــورا مـــدى جمـــود السياســـة الاستعمارية وضجر الشعب الجزائري.[1]

ركبنا للقضية كــــل صعب نرود من المراجع ما نرود
وجاءت الردود بألف بشرى فما أغنت بها عنا الردود
متى توفى العهود فقد مللنـــا تساؤلنا متى توفى العهود؟ [2]

ويبدو أن الشاعر وصل إلى مرحلة اليأس من هذه الوعود،وأن التساؤل الأخير يتضـــمن الكثير من التهديد بأن الشعب سيقدم على أمر ما نتيجة سياسة التسويف العقيمة.

وتبلغ الحسرة ذروتها عند الشعب وعند الشاعر عندما يعود الوفد المنبثق عن المؤتمر مـــن باريس بخفي حنين،وتتحول النشوة التي غمرت القلوب ساعة المؤتمر إلى حســـرة،وهل ســـبق للاستعمار أن وفى بوعد حتى يرجى طائل من وعوده هذه المرة؟ فمـــا وعـــوده إلا الأباطيـــل «ولنسمع إلى الشاعر وهو يوسع المحتل تهكما وسخرية». [3]

ما للحقوق إلينـــا غير واصلـــة وقد سمعنا بهـــا من منذ أزمـــان
هل عاقها البحر عنا فهي عاجزة عن قطع مـــا فيه من لج وشطآن؟
أم راقها البحر حسنا فهي سابحة تلهو بما فيـــه من در ومرجـــان؟
أم ألحقت ببنات البحر فاحتجبت عن كل قاص من الرائين أو داني؟ [4]

والقصيدة السابقة بعنوان(يا وادي السان) ألقاها بعد المؤتمر الإســـلامي فيهـــا مطالبـــة بالحقوق،ودعوة للشعب إلى تحقيقها دون خوف، وكل ذلك يشهد على أن السياسة كانـــت حاضرة في نفسية الشاعر.

1- ينظر سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري،ص 153.

2- العيد محمد: الديوان ،ص 304.

3 - بن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته،ص 60 .

4- العيد محمد: المصدر نفسه، ص 315.

والذي يطالع الديوان،خاصة بعد الثلاثينيات يلاحظ أنه قلما تخلو قصيدة من المضمون السياسي - إضافة إلى مضامين أخرى - وسبب ذلك أن تلك الفترة حاسمة لتعليم العربية،وتقديم دروس الوعظ والإرشاد في المدارس والنوادي والمساجد،وانتشار الحديث بين الجزائريين حول العروبة و الوطن و الاستقلال نتيجة لنشاط الأحزاب والجمعيات،ومن جهة أخرى لمنع الاستعمار الأحزاب والجمعيات من ممارسة حقوقها المشروعة،فحارب المدارس وأغلق المساجد،وسجن القائمين عليها ونفي زعماء الأحزاب.

«كل ذلك كان يجري من حول الشعب الجزائري الذي اختار في آخر المطاف طريق الوطنية والعروبة والإسلام،وقد كان محمد العيد شاهد عيان لهذه الفترة الحاسمة،أو قل عاشها، وحاول التأثير فيها بما أهل إليه من أعمال ومواقف».[1]

وهذا طبعا دور الأديب فما قيمته إذا لم يكن رسولا لأمته؟ وقد كان كذلك،يقول محمد مصايف:« والحق أن محمد العيد من هذه الناحية لم يقصّر في دوره كشاعر ولا في واجبه كمواطن». [2]

وبالإضافة إلى القضايا السياسية الجوهرية التي سبق الحديث عنها«فقد حفل شعره بالقضايا السياسية الخالصة والمقطوعات الوطنية الحارة».[3]

ج- الدعوة إلى وحدة الشعب:

لقد كان هدف الاستعمار من الحيلولة بين الشعب الجزائري وبين ثقافته العربية الإسلامية،ألا يتطور مستوى الوعي لدى هذا الشعب حتى يتمكن الاستعمار من تجزئته وتكوين العناصر القبلية فيه وحينها يمكن السيطرة عليه.

وفعلا تمكن من ذلك وانتشرت روح الجهوية بين الجزائريين لولا المجهود الكبير الذي قام به القادة السياسيون منذ مطلع القرن العشرين في الربط بين أفراد الشعب،ونزع فتيل القبلية كما سعى الأدباء والشعراء من جهتهم إلى توثيق عرى الأخوة بين جميع أفراده من الشرق إلى الغرب،ومن الشمال إلى الجنوب، ونجحوا إلى حد بعيد في تجميع هذا الشعور«غير أن أول من تعرض له بصراحة وأشاد بهذه الوحدة القومية من الشعراء هو محمد العيد». [4]

1- مصايف محمد: فصول في الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1981-ص14

2 - مصايف محمد: المرجع نفسه،ص14.

3 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص148

4 - سعد الله أبو القاسم:المرجع نفسه،ص159.

ففي كثير من قصائده دعوات إلى الوحدة بين الجزائريين سواء أكانوا في قسنطينة أم في وهران،في القبائل أم في الصحراء،فهم أبناء وطن واحد يحكمهم مصير واحد،ودورهم واحد.والقصيدة الأكثر دلالة هي التي بعنوان (بلادي) وقد ألقاها في إحدى احتفالات مدرسة الشبيبة بالعاصمة سنة 1937 ومما جاء فيها:

وهبتك روحي يا جزائر فأمري ... كما شئت إني خاضع لك خادم

حماك ربيع لي وإن كان جاحما ... علي، وهل يصلى خليلك جاحم

وقرباك هم قرباي لست مباليا ... أعاريب هم في جنسهم أم أعاجم

فخذ من دمي يا ابن الجزائر إنني ... أخ لك في كل الحظوظ مقاسم[1]

ويقول في قصيدة أخرى أنشدت في الذكرى الأولى للمؤتمر الإسلامي سنة 1937:

ويا شعب اجتنب حرب التعادي ... وخل اللغو فهو لها وقود

ولا تزعجك بادرة افتراق ... بدت فلكل عاصفة ركود[2]

و في البيتين نصح بليغ للشعب بأن يضع جانبا كل ما من شأنه أن يثير الفرقة بينه،وأن لا يتأثر بما يبثه المستعمر من خلافات فهو كمن ينفخ الجمر ليشعل النار.

وفي قصيدة أخرى نشرت سنة 1947 ألقاها بباتنة يؤكد الشاعر فيها أن الشعب الجزائري ينتمي إلى أمة عربية واحدة،لا يتجزأ ولو أراد الأعداء له ذلك،لأن أواصر الأخوة بينه قوية،فلو حل بابن الصحراء مكروه واستنجد بابن الشمال لما توانى هذا الأخير في نجدته يقول:

وما نحن إلا أمة ذات نسبة ... سماوية الأسباب لن تتقطعا

وذرية للأطلس الفخم لو به ... تصدت لنا ذرية ما تصدعا

إذا ما دعا في (توقر)[3] ابن أجابه ... (بجرجرة) ابن ليس يخذل من دعا[4]

ويتجلى معنى الوحدة في هذه الأبيات في استعمال العبارات الدالة عليها(ما نحن إلا أمة،سماوية الأسباب،ذرية الأطلس) و استعمال الأفعال المنفية(لن تتقطعا،ما تصدعا،ليس يخذل) ويكرر الشاعر نفس النصائح في قصيدة ألقاها سنة 1954 قبل الثورة بشهرين بمدينة باتنة

1- العيد محمد:الديوان،ص138- 1939.

2- العيد محمد:الصدر نفسه،ص305.

3- (توقر):جبل بناحية الأوراس الأشم.

4- العيد محمد:المصدر نفسه، ص 188 - 189.

بمناسبة افتتاح مدرسة حرة تابعة للجمعية يدعو فيها سكان باتنة إلى الوحدة والتضـــامن،ونبذ الفرقة والتشتت،ويحثهم على التماسك لتحقيق الأهداف،يقول:

ويا أحرار باتنة استعـــدوا لتدليل الصعاب من الثنايا
حذار من الشقاق فان أقمتم عليه عصاكم انكسرت شظايا
وكم جر الشقاق إلى دواه وسول في خصومته خطايا
خذوا بالعروة الوثقى وشدوا مواثقكم بإخلاص النوايا[1]

لقد استعمل الشاعر في هذه القصيدة لغة توحي بحدوث أمر عظيم حيث وظف النداء للتنبيه،ثم تلاه بكثير من أفعال الأمر(استعدوا، خذوا،شدوا) وباسم فعل أمر(حذار)،وكأنه علـــى علـــم بالثورة يقول حمزة بوكوشة:« إن للشعر تنبؤات صادقة تأتي كفلق الصبح المبين،وإن للشـــعر وحيا وإلهاما يصدقه الواقع ولو بعد سنين.والشعراء في كل أمة هم حداتها إلى المجـــد القـــديم ودعاتها إلى الثورة على العبودية والتمتع بالحرية وهم معبرون عما تكنه الأمة في ضميرها بصدق وحكمة».[2]

3 ـــ محمد العيد والحرية (الغزل السياسي):

الغزل غرض من أغراض الشعر العربي القديم كان يرد في مطالع القصائد الجاهلية علـــى شكل مقدمات طللية(بكاء على الأطلال)،ثم تطور بعد ذلك و لم تفرد له القصائد إلا في عصور لاحقة.

والغزل الحقيقي هو الذي يتحدث عن المرأة أو إليها،يصورها أو يبثها أشـــجانه،وكثرت أسماء النساء في قصائد الشعراء،وأكثر الأسماء شيوعا اسم(ليلى)حتى قيل(كل يبكي ليلاه).

والذي يطالع الشعر الجزائري الحديث يجد أن هذا الغرض لا يكاد يشكل اتجاها.يقـــول أبو القاسم سعد الله:« في البحث الخاص بالشعر الجزائري ذكرت بأن الشعراء لم يتناولوا الغزل في ما أطرقوا من موضوعات،و لم أشأ إذاك أن أتحدث عن غرض معين في هذا الشعر».[3]

1- العيد محمد: الديوان،ص218-219.

2- درار أنيسة بركات:أدب النضال في الجزائر،ص92.

3- سعد الله أبو القاسم:دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص73.

ومن أسباب ندرة الغزل في الشعر الجزائري:

أ ـــ العامل الاجتماعي: وتدخله في توجيه الشعر،فالمجتمع الجزائري مسلم محافظ مرتبط بتقاليده إلى حد التزمت،ذوقه الأدبي يستهجن أن يتغزل الشاعر بالمرأة،وإن فعل ذلك، عـــد في ظل تلك البيئة الدينية والأدبية المتزمتة المطبوعة بطابع الفقر والأمراض الاجتماعية،عد كمـــن يغني في مأتم أو جنازة[1].يقول ابن باديس[2] وهو في العشرين من عمره:

ودع غزلا للغانيـــات فطالمـــا سلا عن وصال الغانيات نبيل

فديدني الآداب والعلم مقصدي ولازلت في نيل المعالي أجول[3]

و قد سار على هذا الخط المصلحون بعد ذلك يقول الشاعر اللقـــاني في الـــدفاع عـــن سلوكه والاعتذار عن الغزل:

ألا فدع التغزل في غـــوان فتلك طريقة المستهترينا

فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه أنينا[4]

ويقول العقبي: دع ذكر سلمى وسعاد وانهض لإصلاح البلاد[5]

ب ـــ العامل الثاني: هو ما يشير إليه البيت الأخير للقاني،وهو ظروف البلاد آنذاك التي كانت تتطلب نوعا من الشعر الجاد يعبر عن آمال الشعب و آلامه ،شعرا وطنيا يكون كما يرى أبـــو اليقظان:« منبها للشعور والإحساس موقدا لنار الغيرة والحماس،موقظا للنفوس من النعاس»[6] أو كما يرى يحيى الشيخ صالح:« نموذجا لظهور الوعي الوطني السياسي عند الكتاب و الشـــعراء لبلورة موقف محدد من قضايا الوطن وعلى رأسها قضية الاستعمار».[7]وقد عبر عن ذلك محمـــد العيد«على أن الواجب يقتضي من صاحب الموهبة أن يسخرها لفائـــدة شـــعبه لا لفائدتـــه

1 - ينظر: الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص68.

2 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه،ص77.

3- الفاروق عدد يوم 1920/11/12 نقلا عن ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه ،ص 77.

4- الزاهري محمد الهادي:شعراء الجزائر في العصر الحاضر،ج1،ص39.

5-الإصلاح عدد 3 ليوم1929/09/19 نقلا عن ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه،ص77.

6 - أبو اليقظان إبراهيم:الديوان،المطبعة العربية بالجزائر 1350هـ،ص12.

7 - الشيخ صالح يحيى:البعد الوطني عند شعراء العشرينيات من خلال كتاب شعراء الجزائر،مجلة العلوم الإنسانية عدد 09 جامعة قسنطينة 1998 ص127.

الخاصة،فالغزل لا يخلو من روح أنانية».[1] وأضاف « إن المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية»[2].

وانطلاقا من هذين العاملين فإن الشعراء الجزائريين استعاضوا عن الغزل المباشر الذاتي بنوع آخر من الغزل«ظنوه يحميهم من سلطة المجتمع و إرهاب الإحتلال،وهذه الظاهرة توجد في إنتاج الشعراء الذين اتخذوا من حب الوطن أو وصف الطبيعة،أو من حرج الموقف السياسي طريقا إلى التنفيس عن أنفسهم».[3]

وهذه الظاهرة هي الغزل السياسي،وهو غرض شعري يوظف ألفاظ الغزل بكل ما تحمله من معاني الحب الشكوى،الحنين و البعد كما هو الشأن في قصيدة محمد العيد (أين ليلاي)(أصلت القلب نارها،روعتني ببينها،تعلقت بالطيوف، إيه يا عيني اذرفي) «وكل ذلك ليس لحبيبة أو خليلة،وإنما للوطن أو لقضية وطنية مثل الحرية»[4]،ولكن ليس للحديث عن المرأة بل للتعبير عن أشياء موضوعية كفرنسا،الجزائر،الحرية أو الاستقلال.

وكما هو معروف فإن لكل ظاهرة أسباب،وأسباب ظهور الغزل السياسي تتداخل مع أسباب انعدام الغزل الحقيقي، يضاف إليها عامل آخر وهو:الضغط والاضطهاد الاستعماري الذي سلط على المثقفين الجزائريين حتى يسكتوا،أو لا يقولوا إلا ما يرضي المستعمر، « ومن أسباب التعبير عن المشاعر الوطنية بهذا النوع من الشعر الميل إلى الرمز والتمويه،اتقاء اضطهاد المستعمر بحيث لا يصرح الشاعر بتعلقه بالجزائر أو بقضية وطنية وإنما يجسمها في شكل أنثى لا يذكر اسمها ،أو يعطي لها اسما في أغلب الأحيان إيغالا في الرمز والتمويه»[5]لهذا أصبح الشعراء يتحدثون بوجل،ويفكرون في أساليب رمزية تمويهية يتناولون من خلالها قضايا وطنية لا يتفطن إليها الاستعمار،وإن تفطن لا يجد دليلا عليها لإدانة صاحبها«وفي هذا المضمار تطالعنا القصائد المتغزلة في (الحرية) و(الجزائر الفتاة) و(هيهات يسبى فؤادي)».[6] ويرجع خرفي صالح هذه

1- ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه، ص77.

2 - ابن سمينة محمد: محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته،ص138.

3- سعد الله أبو القاسم: دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص76.

4 - الشيخ صالح يحيى: شعر الثورة عند مفدي زكريا ،ص65.

5 - الشيخ صالح يحيى: المرجع نفسه،ص65.

6- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص302.

الازدواجية بين التعبير الغزلي والمضمون السياسي إلى كونها تنفيسا عن الذاتية المكبوتة والقومية المضطهدة.[1]

ثم تأتي قصيدة محمد العيد (أين ليلاي؟) وفيها يتصور الحرية امـــرأة فيغازلهـــا بطريقـــة رومانسية جميلة،ويبدأ بالسؤال عنها سؤال الحيران الموله بالحب،كيف حيل بينه وبينها قبل أن تؤدي ما عليها من دين،وتطفئ لظى الحب التي أوقدها في قلبه.

أين ليلاي أينها　　حيل بيني وبينهـــا؟
هل قضت دين من قضى　　في المحبين دينهـــا؟
أصلت القلب نارها　　وأذاقته حينهـــا[2]

ثم يضيف الشاعر أنه منذ عرفها رسخت صورها في خياله فهي لا تفارقه مما جعله يتعلق بكل خيال يماثل صورها.ثم يواصل عتابها على الهجران ونكـــران الجميل،وعـــدم الاكتـــراث بمشاعره،وبحزنه وبكائه عليها:

مذ تعرفت سرها　　وتعشقت زينهـــا
روعتني ببينها　　لا رعى الله بينهـــا
فتعلقت بالطيوف　　اللواتي حكينهـــا
وتعللت بالمنى　　فتبينت مينـــهـــا
ما لليلاي لم تصل　　مهجات فدينهـــا؟
وقلوبا علقنها　　وعيونا بكينهـــا[3]

وأخيرا ينتهي الشاعر إلى اليأس،فقد تطلع إلى السماء و لم يجد خبرها،ونقـــب في الأرض فلم يعثر عليها،وصرخ بأعلى صوت فلم يجبه إلا صدى:

وهو على يقين باستحالة الإجابة:

إيه يا عيني اذرفـــي　　لن تري بعد عينهـــا
السماوات والأراضي　　جميعـــا نفينهـــا

---

1 - ينظر:خرفي صالح:شعراء من الجزائر(الحلقة الأولى)،ص32.

2- العيد محمد:الديوان،ص41.

3- العيد محمد: المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

كم تساءلت سالكا أمُهجا ما حوينهـــا

لم يجبني سوى الصدى أين ليلاي أينها؟ [1]

والقصيدة تبدو كما أنها غزل حقيقي لولا أن الشاعر نشأ في خط جمعية العلماء الـــتي لا تحبذ مثل هذا الشعر،ولولا أنه تحدث عن ليلاه بلفظ الجمع (المحبين،مهجات،قلوبا علقنها،عيونا بكينها) وهذا ما يدل على أن ليلى محبوبة الجميع ليست إلا الحرية.

وقد احتدم الأخذ والرد في مضمون القصيدة،و تأرجح بين الحقيقة والرمزية« فيتـــدخل ابن باديس في حسم النـــزاع ويضع حدا للتكهنات و يذيل القصيدة بهذا التعليق الصريح الذي يعري القصيدة من رمزيتها،ويعطيها وجها سافرا لا غبار عليه». [2]

«فمن هي ليلى شاعرنا يا ترى؟ليست له قوس،ولكن له مروحة فهل يعني هو الآخـــر مروحته؟إن(محمد العيد) الذي يشعر بشعور الشعب،لا تشغله قوس ولا مروحة ولكن لا تفتنه – وهو البلبل الغريد في قفص – إلا الحرية فهل يوافق على هذا بعض من ينقصهم شـــيء مـــن السياسة ليفهموا».[3]

وليست هذه هي القصيدة الوحيدة التي تطلع فيها محمد العيد إلى الحرية بهذه الطريقـــة الرمزية،وإذا كان أمثاله من شعراء الجزائر«قد انتهجوا الأسلوب الصريح في التعبير عن قناعاتهم السياسية معرضين أنفسهم إلى ردود فعل المستعمر،أمثال مفدي زكريا.فان محمد العيد كان في أغلب الأحيان يسلك أسلوب الرمز لإخفاء أفكاره السياسية ودعواته التحررية».[4]

و القصيدة الثانية هي التي يهنئ فيها (ليبيا) باستقلالها سنة 1952،حيث يستغل المناســـبة لينفس عن روحه ألم المعاناة،ويعبر عن تشوقه إلى الحرية والاستقلال،لكن بالرمز،فيتصور الحرية حمامة حمراء هام بها فؤاده وهي بعيدة المنال،لا نظير لها،يهتف بها ويتلهف إلى وصالها البـــاهض الثمن:

ولقد شجت قلبي وهاجت عبرتي ورقاء في شرف بعيد عال

حمراء حرر جيدها من طوقها في الورق فهي عديمة الأمثال

هتفت فقمت مجاوبا لهتافها ولحنت عن قصد فقلت تعالي

1- العيد محمد:الديوان،ص42.

2- خرفي صالح:صفحات من الجزائر،ص179.

3- خرفي صالح:المرجع نفسه،ن ص.

4- نصر الدين بن زروق:الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة،ص57.

شرقيـــة في الطير أم غربية ما دمت واصلة فلست أبالي
وا لهفتاه عليك حسنك فاتن وهواك ممنوع ووصلك غالي[1]

فالحرية عند الشاعر حمامة مميزة عن بقية الطير يتصورها حمراء اللـــون مخضـــبة بـــدماء الشهداء،تكلفتها غالية،وهذا الأسلوب الصعب من التعبير فرضه الاستعمار على الشاعر وهـــي طريقة«تتقي مطاردة الخنـــق الاســـتعماري مـــن جهـــة،وتحافظ علـــى قداســـة المضـــمون من جهة أخرى».[2]

4 ــ قضايا عربية في شعر محمد العيد:

رغم أن الاستعمار عزل الجزائر عن محيطها العربي والإسلامي،وحولها إلى سجن تحيط به الأسوار العالية«فقد كانت هناك نافذة صغيرة تتطلع منها الجزائر إلى الخارج...لقد كان تطلعا نحو جهة واحدة معينة هي جهة الشرق،وكان تعبيرا عن إحساس وجداني وأخوي تثيره الروابط والمصائر المشتركة».[3]

هذا التطلع نحو المشرق لأنه مهبط الوحي ومهد الحضارة التي وحدت العرب وغيرهـــم يوما ما قبل أن يشتتهم الاستعمار.

وبقيت هذه المشاعر يثيرها الأدب جيلا بعد آخر،و لم تستطع الحـــدود الجغرافيـــة الـــتي وضعها الاستعمار أن تحول بين النفوس.ولهذا لم يتخلف الشعراء عن مواكبة الأحداث التي تقع في غير بلدانهم،وبالفعل كان هذا الشعر رصدا للأوضاع السياسية والاجتماعية التي تمر بها الأمة العربية،« وكان الشعر وسيلة قوية وأداة فعالة في توجيه الجماهير لأنه عبر بصدق ومعاناة عن الهم العربي الذي يحمله شعراؤنا».[4]

ويكفي أن نشير إلى بعض القضايا العربية التي تفاعل معها محمد العيد آل خليفة فكـــان شعره صدى لها،و أول هذه القضايا هي:فلسطين،التي أصبحت امتحان عروبة العرب،وجرحا لا يندمل في قلوبهم.

والقضية الثانية هي الوحدة العربية التي صارت حلم كل عربي مخلص غيور على وطنـــه وعلى الإسلام.

1- العيد محمد:الديوان ص350.

2- خرفي صالح:صفحات من الجزائر،ص180.

3- سعد الله أبو القاسم: دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص107.

4- السد نور الدين:القضية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986،ص13.

وثالث هذه الأمور هو الاستقلال الذي كان غاية كل الدول العربية الواقعة تحت نــير الاستعمار،وقد تحقق لدى بعضها،وبقي بعضها الآخر يسعى نحوه بخطى حثيثة.

أ ــ فلسطين في شعر محمد العيد:

لقد حظيت فلسطين باهتمام متزايد من طرف أدباء جمعية العلماء وشعرائها خاصة إثر النكبــة بعد الحرب العالمية الثانية.فقد كتب الإبراهيمي عنها مقالات تميزت بالعمق التاريخي والتحليــل الواقعي والاستشراف المستقبلي،لمآلها ومآل العرب يصدقه الواقع المعيش.

أما بالنسبة للشعراء فقد كانت فلسطين في مقدمة القضايا العربية التي انفعلوا بها، وعبروا عنها في شعرهم« ولسنا في حاجة إلى أن نعدد الروابط التي تربط بين فلسطين والجزائر... كما أننا لا نحتاج إلى أن نضرب أمثلة للمقارنة بين حالة الجزائر وحالة فلسطين». [1]

وتعد محنة فلسطين أول محنة كشفت تآمر الغرب الصليبي مع الصهيونية العالمية لجعل هذا الكيان المصطنع شوكة في قلب الأمة العربية.

أما بالنسبة للشاعر محمد العيد فإن قضية فلسطين في مراحلها المختلفة هي:

«قضية الشعب الجزائري بكل ما يعانيه من كبت وعزلة،وكانت الحروب التي تدور في فلسطين تحفز الجزائريين وتدفعهم إلى التطوع والتبرع وحمل السلاح كما تدفع بالشــعراء إلى تبني هذه المعارك»[2] .

و في أكثر من موضع استطاع محمد العيد أن يبرز التواطؤ الخســيس بــين الاســتعمار البريطاني والصهيونية على أرض فلسطين.

ومنذ الثورة الفلسطينية سنة 1936 التي كادت تقضي على بني صهيون وعلــى النفــوذ البريطاني،مما أدى إلى لجوء بريطانيا إلى التنكيل بأحرار فلسطين «أحس محمد العيد آل خليفــة بالخطر على هذا الجزء من الوطن العربي،وأدرك أن يد بريطانيا وراء كل مــؤامرة». [3] فكتــب قصيدة (بَني التاميز) يهاجم فيها الانجليز،ويتحسر على حال أولى القبلتين:

1- ركيبي عبد الله: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1983، ص 41.

2- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،ص 191-192.

3- ركيبي عبد الله: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، ص56.

بني التاميز قد جرتم كثيرا فهل لكم عن الجور ازدجار؟

أفي أسواقكم نصبًا وغصبا تسوم (القبلة) الأولى التجار

إخال(القبلة)انسجرت دماء كما للبحر باللجج انسجار[1]

«وعندما دعت لجنة بيل إلى التقسيم كحل وسط».[2] تألم الشاعر وأحس بـــالخطر علـــى القدس وأكد حق العرب فيها في قصيدة نشرت سنة1937:

يا قسمة القدس أنت ضيزى لم يعدل القاسمون فيـــك

مضوا على الحيف لم يبالوا .بما جرى من دم سفيك

القدس للعرب من زمـــان لن يقبلوا فيه من شريك[3]

وفي قصيدة(بلادي) التي ألقاها سنة 1937 يعرج على حال الأمة مشرقا ومغربا،وكيف صارت ممزقة الأوصال،ويشير إلى بيت المقدس الحزين والى الفضائع التي يرتكبها آل صهيون:

وفي المقدس الباكي الحزين فضائع توالت و أنكاد طغت ومآثم[4]

والشاعر لا يفرق بين بلاده وفلسطين ، فرغم ما تعانيه الجزائر من استعمار فإنـــه يـــرى إعانتها لفلسطين واجبا مقدسا.

ففي قصيدة (استوح شعرك) التي ألقاها سنة 1937 يطلب من الجزائر أن تشد جناحيهـــا لنصرة القدس المروعة،والتي تئن تحت وطأة الظلم:

هلا أغثت القدس منك بلفتـــة غيرى على شعب هناك مروع

القبلة الأولى تضج وتشتكي من قسمة المستأثر المستنفع

ضمي احتجاجك لاحتجاج حماتها واستنكري تقسيمه واستفظعي[5]

وبعد النكبة سنة 1948 يدعو الشاعر فلسطين إلى الصبر،وتعليق الأمل على أبناء الأمـــة، الذين ينتظرون النداء لينقضوا على الأعداء، فيقطعوا دابرهـم:

1- العيد محمد: الديوان ص374.

2- ركيبي عبد الله: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر،ص58.

3- العيد محمد: المصدر نفسه،ص 314.

4- العيد محمد : المصدر نفسه،ص138.

5 - م ن :ص147.

فلسطين العزيزة لا تراعي فعين الله راصدة تراعـــي
وحولك من بني عدنان جند كثير العدّ يزأر كالسباع
إذا استصرخته للحرب لبى وخف إليك من كل البقاع[1]

هذه هي فلسطين في نظر الشاعر،وفي نظر كل جزائري. لم تلهه قضايا وطنه الجريح عـــن قضايا أمته العربية والإسلامية،التي كان يرى في وحدتها الملاذ الأخير للتحرر.

ب- الوحدة العربية في شعر محمد العيد:

كان الوطن العربي واحدا منذ عصر الخلفاء الراشدين،عاصـــمته دمشـــق أو بغـــداد أو القاهرة.وما تجزأ العرب إلا بعد أن ابتعدوا عن عامل وحدتهم وعما يحفظ تماسكهم«وما عرف العرب التجزئة إلا في أحلك عهودهم،ولم تكن الدويلات المتنافرة في الماضي إلا نتيجة عوامـــل سياسية،فرضها الزعماء والقواد دون أن يقيموا أي اعتبارات لرغبات مجتمعاتهم آنذاك». [2]

ويوم كانت الأمة العربية منسجمة وتوفرت لها عناصر الانصهار في قالب واحد بفضل الإسلام،استطاعت أن تكون وحـــدة اجتماعيـــة،وقوة سياســـية وعســـكرية رغـــم تعـــدد الأجناس،فسادت العالم لقرون،وابتعد عنها الطامعون،لأنها قادرة على صدهم، ويـــوم بـــدأت تنحرف عن الإسلام،وتتنازل عنه فشلت وذهبت ريحها،فتمكن منها العدو وأقام بين شـــعوبها حدودا جغرافية ونفسية مصطنعة.

ومع مطلع القرن الماضي بدأت أصوات المصلحين تنادي بالعودة بالأمـــة إلى ســـالف عهدها،وواكب الشعراء هذه الدعوات،وأخذوا الصدارة في الترويج لفكرة وحدة الأمة اعتماد على العناصر التي وحدتها سابقا.

«ومن ثم كانت أحاسيس المشاعر القائمة علـــى تمجيـــد ماضـــي العـــرب والتعلـــق بالعروبة».[3]

وقد ذهب بعض الشعراء إلى اعتبار وحدة صف العروبة دينا ومن حاد عنه عُدّ كافرا

وحدة الصف في العروبة دين كل من خان وحدة العرب كافر [4]

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص 334.

2- الدقاق عمر: الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ط3 مطبعة حلب1977- ص278.

3- بيطام مصطفى: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1998 ،ص 248.

4- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص340.

وأعتقد أن محمد العيد هو أكثر شعراء الجزائر عناية بهذا الجانب،نظرا للحنين القوي الذي نجده في شعره إلى الشرق،والشرق عنده يعني العروبة، والعروبة تعني الإسلام.ففي قصـــيدة نشـــرت سنة1936 يدعو فيها المسلمين إلى نبذ الفرقة والشقاق الذي يراه مرضـــا يجـــب علاجـــه،لأن المسلمين ملة واحدة،وبسبب بعدهم عن دينهم فقدوا زمام أمورهم،وحادوا عن الحق،ولو عادُوا إليه لرأبوا صدعهم، وصاروا سادة العالم كما كانوا:

أرى داء الشقاق بنا تفشى فكيف يكون لنا منه التوقي؟
بني الإسلام خلّوا الخلف إنا إلى الإسلام نعزى دون فرق
ولو أنا على الحـــق اتفقنـــا لكنـــا قـــادة الدنيا بحـــق [1]

هذا الحنين إلى الشرق، وهذا الارتباط بالعروبة هو ما دفع بالشاعر إلى الإشادة بالماضي الذي يربط بين الجزائر والوطن العربي،والإشادة بالحضارة التي كان العرب أسبق من غيرهـــم إليها يقول في قصيدة (في أذن الشرق) سنة 1935:

إن للعرب في الحضـــارة قِدمـــا قدما للورى عليها استناد
كم وعوا في الحجاز من قبل روما وأثينا من حكمة وأفادوا
وعت الأرض كل ما عاد من عا دٍ عليها وشـــاده شدادُ [2]

وهو في كل مناسبة يعبر عن حنينه لهذا الماضي لا القريب فقط،بل البعيد أيضا كما هـــو الشأن في قصيدة(إلى العلم) ويؤكد فيها عروبة الجزائر التي حاول أعداؤها النيـــل منـــها فلـــم يفلحوا:

وما نحن إلا من سلالة يعـــرب فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم
سلام كأزهار الربى طيب الشذى على كل قح في عروبته شهـــم
على العرب الأحرار من كان عاربـــا ومن باد قدما من(جديس)ومن(طسم) [3]

وفي قصيدة أخرى نشرت سنة 1947 يستغل محمد العيد مناسبة عودة الحجيج ليبث هموم الشعب الجزائري كله نحو العرب خاصة والمسلمين عامة. وبعد الترحيب بالقادمين يعرض حال الأمة المزري،ويعرج على ماضيها الزاهر،ثم يذكّر الحجاج بالسّر المغيب من وراء الحج،والذي لم

1- العيد محمد: الديوان، ص84.
2- العيد محمد: المصدر نفسه،ص 119.
3- م ن، ص 205.

يدركوه،وهو هذه الوحدة التي تنطلق فكرتها من هناك(من الحج)وتجمعهم مشرقا ومغربـــا،ولو أنهم استجابوا لهذه المبدأ وطبقوه و لم يكتفوا بمجرد آداء الشعائر،لكان لهم شأن آخر،ولأرهبـــوا أعداءهم،ولو تمسكوا بلغتهم لما تعرضوا للذل والهوان،يقول الشاعر:

ويا معشر الحجاج لا ريب أنكم كشفتم بحج البيت سرا مغيبا

قضى بولاء المسلمين جميعهـــم ووحدتهم في الأرض شرقا ومغربا

ولو أذعنوا لاسترهبوا الغرب شوكة وكان لهم في كل مؤتمر نبـــا

ولوآثروا الفصحى على لهجاتهم لردوا إلى أحضانها من تغربا [1]

ويبدو من خلال هذه النماذج أن الشاعر عرف المعـــنى الحقيقـــي لرســـالة الشـــعر في عصره،وعرف دوره،وهو أن يعبر عن آمال الشعب والأمة،ومفهوم البلاد عنده لا تحده جغرافية فهو العروبة والإسلام أينما كانا، وطالما أن ذلك انطلق من الشرق،فإن الشاعر شاركه أفراحـــه وأتراحه فخلد الاستقلال،ورثى الشهداء ومجّد الأبطال.

ج- الاستقلال والحرية في شعر محمد العيد آل خليفة:

الاستقلال هو مطلب الشعوب العربية من خلال كل أشكال المقاومة التي قامت بها،وقد توجت بعض هذه الدول باستقلالها مثل ليبيا،مصر والمغرب.

أما الجزائر البلد الجريح فكان الأمر بالنسبة لها مختلفا،لأن الاستعمار اســـتوطنها وملـــك البلاد و رقاب العباد .

أما الشعب الجزائري بطبيعته الثائرة فكان كلما تحرر من الاستعمار بلد هزتـــه نشـــوة الفرح،وابتسمت له الآمال بقرب النصر،وازداد ثباتـــا علـــى المقاومة،لأنـــه مـــؤمن بمبادئـــه الوطنية،معتقدا أن هذه المبادئ من أهم وسائل بلوغ الغاية وهي الاستقلال.

وحوادث التاريخ تشهد أنه لولا إيمان المسلمين الأولين بأن الإسلام هو ديـــن العزة،لمـــا بلغوا السيادة والريادة.

وهكذا تجاوبت الجزائر مع الشعوب العربية المستقلة،وبرهنت عن كيانها العربي وعبر عن ذلك محمد العيد آل خليفة:« الذي كان إحساسه بمعنى الاستقلال أعمق من إحساس الشـــعراء الآخرين»[2].

1- العيد محمد:الديوان، ص196.

2- سعد الله أبو القاسم: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص199.

عبّر عن ذلك أكثر من مرة،لأن استقلال أي بلد عربي هو بداية لاستقلال بلدان أخرى.

وحين استقلت ليبيا انفعل محمد العيد بهذا الحدث العظيم،وعبر عن فرحته وفرحة الجزائريين بقصيدة نشرت سنة1952منها:

أمل تحقق بعد طول نضال ومثال فوز كان خير مثال

أرأيت أعظم غبطة من أمة مهضومة حضيت بالاستقلال

قد يستجد بعبقري طامح ماضي العزيمة كل شعب بال

ملك بنى عرشا وأسس دولة في ليبيا بجهاده المتوالي [1]

وبعد أن يشيد بالاستقلال الذي تحقق بعد جهاد مرير،يعترف بأنه خير مثال يجب أن يتبع،ويشير إلى أنه جلب الفرحة والمسرة للأمة جمعاء،ثم يلفت النظر إلى أن ماضي الأمة المتهاوي قد يجدد برجل قوي الشكيمة مثل ملك ليبيا الذي استطاع تأسيس دولة حققت نصرا بعد جهاد طويل.

وبعد ذلك يمجد رمز الثورة الليبية الشهيد(عمر المختار) ويشيد بعظمته التي أصبحت صرحا سرمديا في قلوب المؤمنين لا تعادله صورة التمثال المنحوتة له:

في كل قلب مؤمن ذكرى له أبدية قرنت بكل جلال

إن الشهيد يجل عن تخليده بالنحت في نصب وفي تمثال [2]

ويبدو من معنى البيتين رفض الشاعر لتكريم الشهداء بالنصب والتماثيل،النابع من عقيدته الإسلامية،وقد تجدد هذا الموقف للشاعر بعد الاستقلال في الحديث عن شهداء الجزائر وطريقة تكريمهم يقول في قصيدته(وقفة على قبور الشهداء) سنة 1966:

إن ذكرى الشهيد أرفع من أن ترفعوها بالصخرة الصماء

فأقيموا لهم تماثيل عزّ في قلوب ثورية الأهواء [3]

ويغتنم الشاعر استقلال ليبيا ليربط بينه وبين تشوقه للحرية الحمراء التي سبت عقله فهو لا يفتأ يتحدث عنها في خشية من الرقباء الذين طوقوها بأسوار من حديد:

1- العيد محمد: الديوان، ص349.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص349.

3- م ن ، ص435.

ولقد شجت قلبي وهاجت عبرتي ورقاء في شرف بعيد عـــال
حمراء حرر جيدها من طوقـــها في الورق فهي عديمة الأمثال
هتفــــت فقمت مجاوبا لهتافـــها ولحنت عن قصد فقلت تعالي
وا لهفتاه عليك حسنك فاتـــن و هواك ممنوع ووصلك غال [1]

وبمثل هذه المشاعر الصادقة التي استقبل محمد العيد بها استقلال ليبيا يســتقبل اســـتقلال السودان سنة 1956 فقد كان أول المهنئين،يقول:إن فرحة الاستقلال عمت الشرق،وقد تناقلها الرائح والغادي،وهي فرحة حق للعروبة جمعاء أن تهتف بها:

فوز سرت بحديثه الركبان فالشـــرق مغتبط جذلان
و بنو العروبة يهتفـــون لمركب في النيل أبحر ركبه العربان
ما أسعد السودان في استقلاله فاليوم يرفع رأسه السودان [2]

ثم يتحدث عن فرحة الجزائر بهذا الحدث رغم مصابها العظيم:

من مبلغ السودان عنا أننا شيع له بشعورنا خـــلان
نتبادل القبلات باستقلاله فرحا وإن طافت بنا الأحـــزان [3]

وفي غمرة الفرح الممزوج بالمرارة على واقع بلاده يتساءل محمد العيد عن مصير الجزائـــر بعد تحرير غيرها،ومتى ينتفض الشعب على العدو،فيرعوي ويعيد الحقوق لذويها:

متسائلين عن الجزائر هل دنا تحريرها أم حظها الحرمـــان
ومتى تقرركالشعوب مصيرها فقد استقلت دونها الأوطان [4]

وكما تبين من خلال النماذج التي قدمتها فإن محمد العيد قد تجاوب مع الثورات العربية و الأحداث القومية وتفاعل معها وشاركها في الأفراح والأتراح،وليس من شك أن الشاعر إنما نقل إحساس الشعب الجزائري برمته نحو الأمة العربية.

1- العيد محمد:الديوان،ص350.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص356.

3- م ن،ص356.

4- م ن ،ن ص.

III. المقاومة الثورية في شعر محمد العيد:

إن ثورة التحرير المباركة لم تنطلق من فراغ،شأنها شأن كل الثورات الـــتي وقعـــت في العالم،ولقد كان الإعداد لها مبكرا منذ مطلع العشرينيات،مع ظهور أول حركـــة للإصـــلاح بزعامة (الأمير خالد) عام 1919 ،مستفيدة من الظروف العالمية الجديدة.يقول عبـــد المالـــك مرتاض« فهذه الثورة العظيمة وقع التحضير لها على امتداد خمسة وثلاثين عاما على الأقل،أي منذ ظهور حركة الإصلاح للأمير خالد عام 1919 إلى عام 1954»[1].

وإذا كانت النشاطات التي ظهرت في تلك الفترة تتسم بالمطالبة بالإصلاح كأقصى مـــا يمكن،فإنها لا تخلو من النظرة الثورية التي ترفض الأمر الواقع من أساسه،وتعبر عن هذا الـــرفض بالوسائل الممكنة،التي من بينها الشعر.

فقد أطل الأدب الجزائري – خاصة الشعر- في فترة العشـــرينيات علـــى الأوضـــاع السياسية وغيرها مقاوما،ثائرا،غاضبا لأن دوره هـــو:« توليد الصراع في نفـــس الإنســـان إذا خبت منه،وتجديد حس المقاومة إذا كان هذا الحس قد خبا مع الأيام» [2].

ومحمد العيد بصفته أحد شعراء الرعيل الأول من دعاة الإصلاح في الحركة الوطنيـــة، حين تتناوله بعض دراسات الأدب الجزائري تصنفه ضمن شعراء الحركة الإصلاحية المهادنـــة البعيدة عن الفكر الثوري،وهذه النظرة لها ما يبررها طبعا، ولكنها تغفل جانبا مهما من شـــعر محمد العيد، عن قصد أو عن غير قصد.

صحيح أن التوجه العام لشعر محمد العيد هو الإصلاح الذي يعني« رفض شيء والإبقاء على آخر» [3] وهو شرف لا يقل عن شرف المقاومة في الفترة التي ظهر فيهـــا،ولكن الدراســـة المتأنية لبعض قصائده،وتأمل ما بين سطورها منذ العشرينيات حتى قيام الثورة المباركة،لا تخفي تجليات الثورة على الاستعمار والغضب على سياسته،ولكن هذه التجليـــات بـــدأت ضـــعيفة تتأرجح بين الدعوة إلى الإصلاح ،والتلميح البعيد إلى الثورة أحيانا والقريب أحيانا أخـــرى،ثم ما فتئت أن اتضحت بشكل أكثر حدة من الثلاثينيات حتى قيام الثورة المباركة.

1- مرتاض عبد المالك:أدب المقاومة الوطنية في الجزائر،ج1.نقلا عن ثليلاني احسن:المقاومة الوطنية في المسرح الجزائري ما بين 1954 و1962،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة منتوري قسنطينة،2005-2006.

2 - غالي شكري:أدب المقاومة،دار المعارف،مصر(دت)،ص16.

3 - الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص56.

1 - تجليات الثورة في شعر محمد العيد خلال العشرينيات:

إن الدراسة الموضوعية لشعر العشرينيات إلى قيام الثورة تثبت أن روح المقاومة فيه كانت شاملة،عند كل الشعراء.قد يتفاوت هذا عن ذاك في التلميح أو التصريح نعم،ولكنها لم تكن من حظ فئة دون أخرى. يقول ركيبي عبد الله:«من عاش قبل الثورة واطلع على ما كتب من شعر ونثر يدرك بأن أدب ما قبل الثورة قد مهَّد للفكر الثوري الذي ظهر في ثورة نوفمبر 1954 لأنه لا ثورة دون فكر ثوري سابق لها».[1]

ويضيف:«والذين يزعمون أن أدباء الثورة لم يلعبوا دورهم كما ينبغي يبالغون في أحكامهم...لأن الأديب لا يمكن أن نطلب منه أن يكتب غير ما كتب نظرا للظروف التي كان يعيشها».[2]

وهذا الأمر جدير بأن يستوقفني،ويقودني إلى إكتناهه وتتبع أثاره في شعر الشاعر بداية من العشرينيات حتى قيام ثورة التحرير المباركة.

إن القراءة المتأنية لشعر محمد العيد تمكن من التأكد أن المقاومة بدأت في العشرينيات يوم كانت المرحلة تتطلب إعداد الإنسان،كمشروع للمستقبل.وقد انطلق محمد العيد من هذه المسلمة ففي قصيدة نشرت سنة 1921 يدعو الشعب الجزائري إلى إدراك السبيل الأمثل لبلوغ المجد ألا وهو ركوب الصعاب،وتعريض النفس للمخاطر،وتحمل المشقة، والصبر و المصابرة حتى تحقيق المراد.يقول:

لم يمتط المجد من لم يركب الخطرا ... ولا يسود امرؤ لم يلزم السهرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب ... رخيمة فمناه كالسراب ترى
لا بد للشهد من نحل يمنعه ... بلسعة تجلب الأوصاب و الخطرا
يا طالب لمجد لا تستأ لحادثة ... لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ... تضر بالمرء لكن تعقب الظفرا [3]

1- نقلا عن: يحياوي محمد الطاهر،أحاديث في النقد والأدب،ص20.

2- نقلا عن: يحياوي محمد الطاهر،المرجع نفسه،ص21.

3- بن سمينة محمد:العيديات المجهولة،ص193.

فهذه القصيدة فيها اقتباس الكثير من المعاني من الشعر القديم،فقد أخذ معنى هذه الأبيات من قول محمد بن يسير:[1]

إن الأمور إذا استدت مسالكها　　فالصبر يفتح منها ما ارتتجا

لا تيأسن وإن طالت مطالبة　　إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

لا يمنعنك يأس من مطالبة　　فضيق السبل يوما ربما انتهجا[2]

وبغض النظر عن قيمة القصيدة الفنية التي تشبه النظم،فإن محمد العيد تقمص دور المعلم المربي يحشد الحكم والنصائح لتكوين شعبه معنويا- وهو في أمس الحاجة إلى ذلك- خصوصا في مرحلة العشرينيات التي تميزت بذوبان الشخصية الجزائرية وتذبذبها لدى البعض.« هذه الفترة التي تشهد تتابع مأساة الاحتلال،وترسيخ قدم المحتل،بما يستتبع من اضطهاد ومطاردة فلول الثورات المتعاقبة والتسلط على الشعب الأعزل وإبادته فكرا وجسما وعقيدة».[3]

وتبدو الانطلاقة الحقيقية للشاعر في ميدان البناء،بناء الإنسان بالتربية واستعادة الثقة بالنفس،وإعادة الشعور بالذات لرفض الظلم والثورة على الطغيان.وبناء الوطن باستعادة الشخصية المسلوبة،وترسيخ قيم الإسلام ومبادئ العربية،بالحث على الدفاع عنهما ومقاومة الثقافة الغازية.تبدو هذه الانطلاقة خاصة بعد العودة من تونس حيث بدأ الشاعر خوض غمار الحياة العامة بالانخراط في إنشاء الصحف،أو المساهمة في إصدارها وتحريرها،وجعلها منبرا لأشعاره التي تفيض وطنية.ففي قصيدة (أسطر الكون) التي نشرت حوالي 1924،بعد أن يبدي الشاعر حيرته،وقلقه من الحياة يلتفت إلى واقع وطنه الجريح،بما يضمه من فقراء،يتامى وأرامل يعانون الفقر،وشيوخ يعانون الظلم،ويثور ثائر الشاعر ولا يهاب أن يحدد المسؤولين عن ذلك ويصفهم بالجناة الظلمة الذين يسخر شعره لمحاربتهم:

سئمت على شرخ الشباب حياتي　　فحرت و لم أملك علي ثباتي

وأقرأ من آي الشقاوة أسطرا　　على صفحات الكون مرتسمات

فسطر عياييل أمضهم الطوى　　عراة على لفح الأثير حفاة

و سطر أيامي يصطرخن توجعا　　من الجوع لا يفتأن مكتئبات

1- هو محمد بن يسير الرياشي،من شعراء العصر العباسي المقلين،عاش في البصرة.ينظر:الجاحظ(أبو عثمان عمر بن بحر): البيان والتبيين،ج1 هامش ص65.

2 - ينظر الجاحظ:البيان والتبيين،ج2،ص360.

3- خرفي صالح:شعراء من الجزائر،ص27.

و سطر يتامى مرهقين تكبهـــم   على جرف البلوى يد العـــبرات
و فوقهم سطـــر من الخلق كلـــه   جنـــاة لعمر الحق فـــوق جنـــاة
جناة يرى الرائي من الليل مسحة   على سطرهم والظلم كالظلمات [1]

ومن حق الشاعر أن ييأس، ويحزن ويحتار،لأن بلده جريح يضج بالمظالم.ولكـــن اليـــأس والحيرة والقلق عند محمد العيد حالات عابرة لا تنسيه واجبه - وهو ابن العشرين حجة- الذي لا يحتمل أعباء هذه الحياة الملأى بالمآسي فيتخذ من شعره سلاحا يدافع به عن وطنـــه،ويزجر ويوبخ ويقرع البغاة:

أذقتهم كأسا من الســـم علقمـــا   و أوسعتهم طعنا بحد قناتـــي
وقلت لهم من يعش عن نفع قومه   أقيض له جيشا من الكلمات
كذلك سفر الكون وعظ وحكمة   وزجر وتوبيخ و قرع بغـــاة [2]

فالنظرة الإصلاحية التي ترمي إلى تصوير مآسي الجزائريين بغية علاجها،لا تلغي نزعـــة المقاومة في الأبيات،المتمثلة في الجهر بالتنديد بالظلم والظالمين دون مواربة أو تستر،واتخاذ الشعر سلاحا لذلك،والجرأة في تحميل المستعمر مباشرة المسؤولية،في وقت كان الكلام فيه يجر لصاحبه الويل والثبور.

ومن القصائد التي يتجلى فيها المضمون الثوري المبكر في شعر محمد العيد قصيدة(داعـــي النهوض) التي نظمها في مطلع حياته،ونشرها من بعد في جريدة (النجاح) سنة 1925 يحث فيها على النهوض بالوطن[3] ومما جاء فيها:

لا تحسبوا أن التمدن لبسكم   خزا وصرف المال في اللذات
أن التمدن حبكم وطنا غدا   كالأم يحفظكم من الآفـــات
إن التمدن سعيكم في حله   من كبله برزانـــة وثبـــات[4]

والشاعر مدرك تماما أن العمل الوطني الذي يقوم به عن إيمان راسخ لتحرير وطنـــه لـــن يكون سهلا أو بالمجان،بل سيعرضه لكثير من الأذى،وعلى قدر التضحيات والصـــبر تكـــون النتائج:

1- الزاهري محمد الهادي:شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1،ص17 - 18.

2- الزاهري محمد الهادي: المصدر نفسه،ص18.

3 - ابن سمينة محمد:(من الإرهاص بالثورة إلى الإرهاص بالاستقلال في شعر محمد العيد)،مجلة المصادر ،عدد 10،المركز الوطني للدراسات والبحث في أدب الحركة الوطنية،الجزائر 2004،ص113.

4 - ابن سمينة محمد: العيديات المجهولة،ص28-29.

لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة تضر بالمرء لكن تعقب الظفرا[1]

وهذا البيت أخذ معناه من قول الشاعر:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبِرا[2]

و بلا شك فإن محمد العيد كان أكثر جرأة وهو أعزل من كـــل ســـلاح-إلا ســـلاح الكلمة- حين تصدى لآشيل بوجـــه صارخ،شـــاهرا باسمـــه في عنـــوان قصـــيدة(هـــذيان آشيل).يستهلها في توعد ووعيد«ويركز الهجوم على العدو وبدون التواء،بل يوسّـــع مـــدلول العدو من شخص بعينه إلى الاستعمار بأكمله فيتعرض له في سخرية لاذعة،ومقارنة دامغة».[3]

يقول في قصيدة نشرت سنة 1926:

ما بال آشيل في(الدييش)[4]يسخر من آيات محكمة لا كان آشيل

ما بال آشيل يهذي في مقالته كحاكم راعه في النوم تضليل

ما بال آشيل يـــزري المسلمين وهم غرّ العرائك أنجـــاب بهاليـــل

أفكارهم بهدى القرآن ثابتـــة فلا يخامرها في الرأي تضليل

و أمرهم بينهم شورى ودينهم فتح من الله لا قتل ولا تقتيل[5]

ثم يمهد في إشارة ذكية إلى الشعب أن الحق لا يعدم أنصارا تدافع عنه وتحميه:

لا يعدم الحق أنصارا تحيط بـــه سورا ولو كثرت فينا الأضاليل[6]

هذه النماذج من شعر محمد العيد في العشرينيات تدل على مدى نمو الوعي الوطني،وتفتق الحس الثوري من خلال النظر إلى واقع الشعب و ما يلاقيه من ظلم،وما يعانيه من اضـــطهاد، واستغلال تلك الظروف لتوجيه إشارات ثورية هادفة بغية استنفار المشاعر،وتحريض الضـــمائر على التعلق بالوطن،ولننظر إلى هذين البيتين من قصيدة (باخرة الموت) التي قيلت سنة 1926:

ويا ولد الجزائر صن حماها وكن برا بساحتها أديبا

و لا تخش الوقاع بها فإني رأيت الله مطلعا رقيبا[7]

1- ابن سمينة محمد: العيديات المجهولة،ص193.

2 - أمين أحمد والجارم علي:البلاغة الواضحة،ص237.

3- خرفي صالح:شعراء من الجزائر،ص73.

4- (الدييش) جرة فرنسية كانت تصدر بقسنيطنة.

5- الزاهري محمد الهادي:شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1،ص22 .

6- الزاهري محمد الهادي: المصدر نفسه،ن ص.

7- م ن،ص19.

لقد فرضت مشاكل الوطن والشعب على الشاعر نفسها،فاختار موقف المسؤولية بما يتبعه يومذاك من ألم،وصدع بالحق يوم كان رغيف الخبز ثمنا للحرية والكرامة«وبتعبير الأدباء أنفسهم تكون هذه الأشياء الصغيرة المعادل الموضوعي للحياة وللإنسان نفسه».[1]

ورغم كون العشرينيات تمثل بواكير شعره،فإن هذه الأشعار ساهمت في ترسيخ فكرة الوطن التي كادت تزول من الأذهان،وكانت ثورة على الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية التي خلقها الاستعمار.

2- محمد العيد والإرهاص الثوري خلال الثلاثينيات:

كما سلف القول فإن ميلاد الشعر الجزائري واكب ظهور الحركة الوطنية،على الرغم من محاولة الاستعمار تغريب الجزائر و الحيلولة بين الشعب الجزائري وثقافته العربية الإسلامية،لولا جهود الرعيل الأول من السياسيين والمثقفين،الذين بذلوا من الجهد والتضحية ما حفظ للجزائر كيانها.

ولئن اتسمت العشرينيات بالمبادرات الفردية التي تنادي بالإصلاح السياسي والاجتماعي،وتدعو بشيء من الاحتشام إلى تغيير الأوضاع،فإن فترة الثلاثينيات التي صادفت الاحتفال المئوي للاحتلال،كما صادفت تأسيس جمعية العلماء ردا على ذلك وإبطالا للأطروحات الاستعمارية كما تجلى ذلك على لسان مؤسسها ورئيسها عبد الحميد بن باديس،تعد حاسمة في العمل السياسي والثوري.ويعتبر هذا من بين العوامل التي عملت على بلورة المطامح الشعبية في قوالب ثقافية بارزة رغم المطاردة والحصار الثقافي« فقد ظهرت في غمرة الوعي الذي رافق الحياة السياسية - خاصة بعد احتفال الفرنسيين بمرور قرن من الزمن على احتلالهم للجزائر- أعمال أدبية متنوعة حاولت طرح كثير من القضايا الوطنية،وتصوير الواقع الاجتماعي والمظالم التي يعاني منها الشعب الجزائري،وأن هذه الأعمال كانت بمثابة إرهاص للثورة الكبرى».[2]

ويكمن تأثير هذه العوامل على الأدباء في تحريرهم من عقدة الخوف التي سكنت قلوبهم ومنعتهم من البوح بمكامن صدورهم،وخلجات شعورهم نحو شعوبهم وأوطانهم.

1- المقالح عبد العزيز:الشعر بين الرؤيا والتشكيل ط 2،دار طلاس للدراسات والنشر،دمشق 1985 ص 40.

2-عليلات علي:(أثر الكلمة الحارة في الثورة الجزائرية) مجلة الثقافة،عدد72 ،وزارة الثقافة،الجزائر،نوفمبر، ديسمبر1982 ص68.

وليس أدل على ذلك كمحمد العيد في هذه القصيدة التي ألقاها سنة 1932 في إحـــدى حفلات مدرسة الشبيبة،يرفض فيها أن تبقى قضية شعبه رهينة الخوف،ويطلب منه السعي إلى تحقيق مراده بكل بسالة لا يريد إلا إحدى الحسنين،لأن البلاد مهددة بالزوال،وزمن الهوان قد تولى،وأن إضمار الوطنية وإظهار الولاء للاستعمار لا يجدي نفعا:

أناديك للخـــير خـــير النـــدا   وأوصيك بالحق خير الوصية
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك   فمن هاب خاب وضل الثنية
رأيت المنايـــا سبيـــل المـــنى   فخاطر تصب منية أو منيـــة
إذا زلزلت بالخطوب البلاد   فلا خير في حذر أو تقيـــة
تولى زمان الرضى بالهـــوان   ووافى زمان الفدا و الضحية[1]

وهو يعرف أن المستعمر لا يؤمن شرّه فيواصل الشاعر تحذيره للشعب،ويدعوه إلى فتح جفنيه والنظر بعيدا لتجنب سهام الصائدين،وينصحه بأن يتخذ من الجبال الشاهقات حصـــونا منيعة تستعصي على العدو،ويقدم نفسه فداء للوطن:

أيا ابن الحنفية اخلع كـــراك   فأنوار صبحك تترى جلية
تجمع من حولك الصائـــدون   و أنك للصائدين الرميّـــة
فطر و ابن وكرك بين الصخور   مع العصم في الشاهقات العلية
ونفسك بعهـــا مع البائعـــين   كرام النفوس لباري البرية[2]

وكان الشاعر قد ألقى هذه القصيدة التي اخترنا منها الأبيات السالفة الـــذكر في عـــام 1932 أي قبل اندلاع الثورة الجزائرية باثنين وعشرين عاما:«مما يؤكد اهتمام الشاعر بالكفاح الثوري ويبين أن الثورة المسلحة تعد نفسها قبل نوفمبر وإلا ما هو المقصود من قوله[3]:

فطر وابن وكرك بن الصخور   مع العصم في الشاهقات العلية ».[4]

وبالفعل تحققت دعوة الشاعر بعد مدة طويلة،فاندلعت الثورة،واتخذ المجاهـــدون مـــن الجبال الشاهقة قلاعا دكت حصون الاستعمار، واسترخصوا يوم الـــروع أنفســـهم «وهـــذه القصيدة والقصيدة التي تليها(في الديوان)هما من قصائده الثورية التي كانت كإرهاص لثورتنـــا

1- العيد محمد:الديوان،ص417.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص418.

3- دوغان أحمد:شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر،ص18-19 .

4- العيد محمد: المصدر نفسه،ص418.

المسلحة،فقد نظمهما قبلها بعدة سنين»[1].والقصيدة السابقة لا تكتفي بدق أجراس الحرب،إنما تقرع طبولها جهرا دون خوف،بعيدة عن اللهجة الحائرة التي عـــرف بهـــا الشـــاعر خـــلال العشرينيات.

أما القصيدة الثانية التي تؤكد ثورية محمد العيد المبكرة فهي بعنوان(من للجزائر؟) الـــتي نشرت بالشهاب سنة1933،وهي خير دليل على ما وصل إليه الشعور الوطني والوعي الثوري عند محمد العيد،وقد تحدث فيها عن دور جمعية العلماء،في تعبئة الشعب للثورة،وتدرجها مـــن مرحلة القول-حين ينفع الكلام- إلى مرحلة الفعل حين يفقد الكلام جدواه.كما أشار فيها إلى الفرقة التي دبت بين أبناء الوطن لدرجة أن ضلوا السبيل،وفقدوا الشعور بالذات،فتمكن منـــهم العدو،مع العلم أن صبرهم وبلاءهم كان مضرب المثل يقول:

يا شاهدا سمر الهدا ــ ة بلغت في الدنيا الأمل
الصادقون هنا فثق ــ و العالمون هنا فســـل
والواعظون يفجرو ــ ن الشهد من خلل الجمل
شرع الكلام إلى مدى ــ يا قوم فالعمل العمـــل
الشعب منحل العرى ــ خزيان مختلـــف العلل
صادٍ وليس به صدى ــ ثمـــل و ليس بـــه ثمل
ضربت على يده القوى ــ وفشت بجانبـــه الحيل
لبلائه ذعـــر الورى ــ و بصبـــره ضرب المثل[2]

لكن رغم الفرقة،فطاقات الشعب الجزائري لا تنضـــب،وقواه لا تتلاشـــى يستنهضـــها الشاعر- واثقا من عودتها- لفداء الجزائر،ويدعوها لخوض غمـــار الحـــرب لتقتلـــع جـــذور الاستعمار:

من للجزائـــر يفتـــد ــ يها من سفه السفل؟
يا مشهرين من العزائم ــ مثل مرهفة الأســـل
خوضوا بها الأمواج واعـــ ــ لوا الشهب واقتلعوا القلل
من قال جلّ عدوكم ــ قولوا له المولى أجل[3]

1- نقلا عن: العيد محمد، الديوان،ص417 .

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 420 .

3- م ن،ص421.

وليثير في نفوس الجزائريين كراهية الاستعمار أكثر، يحاول الشاعر أن يرسم له صــورة سيئة تجعل محاولة التخلص منه أمرا مسلما به لدى الجميع،يقول الشاعر:

يا ويح أنفسنا من كل طاغية   يسومها ألمـا مــرا على ألـم
يفحّ كالحية الرقطاء ممتعضــا   منها ويقذف كالبركان بالحمم[1]

ويبقى هذا هو موقف الشاعر من الاستعمار،قناعة راسخة أن المقاومة المسلحة لا بــديل عنها،وتأكدت هذه القناعة بعد نتائج المؤتمر الإسلامي المخيبة للآمال،وحينها أدرك الجزائريون أن تنكر فرنسا لحقوقهم،هو محاولة لإخضاعهم، وإبقائهم تحت حكمها،ويعبر الشاعر عن هذا الشعور العام في الذكرى الأولى للمؤتمر الإسلامي سنة 1937 في قصيدة طلب فيها من الشعب أن يتسلح بالوعي والحذر،وأن يقوم بكل حزم وعزم ويقف بالمرصاد لمغتصب حقوقه وينتزعها منه بالقوة،وأن يكون واثقا من قدراته وانتصاره:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض   بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لــص   تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا   تظلك البنود أو اللحــود
ولا تيأس من الفوز المرجــى   فقد يخضرّ بعد اليبس عود[2]

لا شك أن هذا الموقف من الشاعر لم ينبع من فراغ،فقد تبلور بعد كثير مــن الهــزات السياسية التي حدثت،وكان أبرزها المؤتمر الإسلامي،ثم الظلم الذي مورس على زعماء ومناضلي الأحزاب،وكذا على زعماء الجمعية ونشطائها من سجن وتعذيب،فلم يعد هناك مــا يُخــاف عليه.كما يعود كذلك إلى تحول اتجاه جمعية العلماء والتدرج من الإصلاح القائل بالتعايش مع الغربيين لأسباب أملتها الظروف،إلى الرفض والتمهيد للثورة،فنقل عن لسان ابن باديس:« لــو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتها ».[3]

و لاشك أن شعر محمد العيد كان له الأثر الشديد في نفــوس الجماهير،وكــان يلقــى التجاوب الكبير عندها لأنه يعبر عن آمالها وآلامها،وتطلعاتها فهو ترجمان لما تمور بــه نفــوس

1- العيد محمد:الديوان ص 104.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص 304،305.

3- ابن باديس عبد الحميد:آثار ابن باديس،نقلا عن سلمان نور:الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير،ص132.

معظم الشعب الجزائري الذي يغلي كالبركان وينتظر لحظة الانفجار،ومن شدة تجاوبه كان يعبر بالبكاء،إعجابا بمعاني القصيدة،أو تنفيسا لما في الصدور.

يقول فرحات بن الدراجي صديق الشاعر إنه في سنه 1937 حين ألقى محمد العيد قصـــيدة (استوح شعرك):« كان للقصيدة تأثير عميق على نفوس الحاضرين فبكى الناس،وبكى الشاعر معهم...هذه هي أول مرة شاهدت فيها شاعر العروبة والإسلام في الجزائر يَبكي ويُبكي ».[1]

و مما جاء في القصيدة:

استوح شعرك من حنايا الأضلع واستجل في القسمات حسن المطلع
قل للجزائر و هي أم مرضـــع مثل اللبوءة يـــا لهـــا من مرضـــع
أبناؤك الأشبـــال فيك تزاوروا وتزاءروا في الغيـــل منك بمسمـــع
تأبى الجزائر أن تعـــم بنفعهـــا من ليس يسعى للأعـــم الأنفـــع
ولكل ساع في الجزائر ما سعى من خان خين ومن رعى فيها رُعي
ولربما كان الجزاء مؤخرا أجلا فضاقـــت حيلـــة المتســـــرع[2]

فالنزعة الثورية عند محمد العيد تنتفض جامحة فتنسيه المناسبة وتجعله يشيد بالجزائر مهـــد الأبطال ومعقل الأشبال مستلهما شعره من الوجوه الحاضرة،والنفوس الثائرة داعيـــا أربـــاب القريض إلى الثناء على هذه الأرض المباركة التي تأبى الظلم وتقاوم الأعداء وتنتصر عليهم.

وإذا كان هذا فعل الشعر في النفوس « فإن خير ألوان الشعر عند الأوطان والمجتمعات ما جاء قويا ملتهبا مستعرا للنفوس دافعا إلى النضال لأن هذا الشعر يجدد الهمم ويبـــث العـــزائم ويحرض على المكرمات».[3]

وأن الشاعر الحقيقي في نظر رمضان محمود:« هو الذي يكون صورة صـــادقة لنفســـه وعصره و لا ينقاد إلا لصوت ضميره،...هو الذي يتحمل دور الريادة في الحياة والمجتمـــع،في المجال السياسي والديني والاجتماعي،وعليه أن يقاوم الاستبداد بلسان حاد،لا يرده عن ذلـــك اضطهاد أو قوة أو جبروت.فإن الشعر الذي لا يحرك همة الشـــعب ليتطلـــع إلى الاســـتقلال

1- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص41.

2- العيد محمد:الديوان ص 143-144.

3- الشرباصي أحمد:سلاح الشعر،الدار القومية للطباعة والنشر(د.ت) ص124.

والحرية،ولا يذكر بواجبه المقدس ووطنه المفدى خيانة كبرى وخنجر مسمم في قلب المجتمع». [1]

إن النماذج السابقة في شعر محمد العيد تفند ما تردده بعض الأقلام والألسنة من أن محمد العيد لسان جمعية العلماء التي تهتم بالإصلاح الديني والاجتماعي والفكري ظل بعيدا عن المعاناة الدموية التي يواجهها الشعب الجزائري من جراء مقاومته للاستعمار الفرنسي،في حين ارتفع صوت شعراء آخرين حتى اختلط بدوي الرصاص والمدافع.

«ولكن شاعرنا لم يكن بمعزل عن معاناة شعبه اليومية فقد أحس كما يحس كل مواطن حرّ الحاجة إلى الثورة المسلحة من أجل التخلص من ربقة الاستعمار ونيل الاستقلال،وقد دعا بلسان صريح إلى خوض المعركة ضد العدو ». [2]

وبعد فإن محمد العيد في الثلاثينيات كان أكثر نضجا،وقد طغى على شعره الوعي الوطني،والحس الثوري.كما كان أكثر الأصوات ارتفاعا،تردد شعره في الأندية والجمعيات والمدارس،يهتف بحب الجزائر والأمة،ويوقظ الجماهير،ويثير الحماس فيها ملمحا تارة ومصرحا أخرى بمعاني الجهاد،الثورة،الحرب،الحرية،الوطن والاستقلال.

«إن شعر محمد العيد لا يمثل تجربة فنية حية،أو صورة صادقة أمينة لما يحسه ويتفاعل داخل نفسه فحسب،وإنما يمثل إضافة إلى ذلك جزءا من تراث شعب بل جزءا من تراث أمة،فحق له أن يحفظ في صفحات التاريخ لتستلهمه الأجيال في مستقبلها ». [3]

3- محمد العيد وأحداث 8 ماي 1945:

من الناحية الأدبية لا يوجد حادث أثار الأدباء الجزائريين - بعد الحرب العالمية الثانية- وأفزعهم إلى التعبير الشاعري الثوري مثل حوادث 8 ماي 1945.ولقد قال النقاد:«إن الشعر يذكيه ويقويه وينميه أمران:الحب والحرب». [4]

1- رمضان حمود:بذور الحياة،نقلا عن ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه،ص130.

2- صيام زكرياء:(شعر محمد العيد بين فلسفة الإصلاح وروح الثورة)،مجلة الثقافة عدد86 مارس-أفريل 1985،ص152

3- صيام زكرياء: المرجع نفسه،ص163.

4- الشرباحي أحمد:سلاح الشعر،ص126.

و لاشك أن محمد العيد آل خليفة عاش في وطنه المجاهد يحس بهذين الأمـــرين أقـــوى الإحساس،يشعر بروح الحب نحو وطنه الذي حرم أن ينعم بخيراته،ويشعر بروح الحـــرب نحـــو العدو الذي سلبه هذه الحقوق.

لكن كيف تفاعل أدباء الجزائر وشعراؤها - وأخص بالذكر محمد العيد - مع أحـــداث 8 ماي 1945؟ ولماذا ساد الساحة الأدبية صمت كبير حول هذه المأساة؟

الإجابة نجدها في مقال بجريدة البصائر سنة 1949 بعنوان (هل في الجزائر شعراء) بقلـــم حمزة بوكوشة.يقول:«سؤال يكاد الإنسان يجيب عنه بديهيا بأن في الجزائر شـــعراء كـــثيرين جدا،لكن إذا أمعن المسؤول النظر فيه وتعمق في فهمه يجيب معي بقول الشاعر:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا ». [1]

ويضيف صاحب المقال:«هذا إذا استثنينا محمد العيد وطبقته تلك الطبقة الغابرة الـــدابرة التي نشأت مع الحركة الإصلاحية...وكانت منابرها صدى الصحراء، المنتقد...وجرائد أخرى تتساقط في ميدان الكفاح،تلك الطبقة - عفا الله عنها – هجرت الشعر اليوم،ولست أدري أتقدم السن وأثر الكبر نالا من شاعريتها أو اليأس استولى عليها،أو فمها جبن؟،ولقد كان محمد العيد أكثر هذه الطبقة إنتاجا وأشدها عناية بالناحية الاجتماعية والسياسية ». [2]

ثم يضيف كاتب المقال مبصرا الشعراء بدور الشعر وبمسؤولية الشاعر:

«توارى محمد العيد وانزوى من سماء الشعر...والشاعر الخالد هو الذي يشعر بشـــعور أمته ويتألم بآلامها،و يوحد آماله بآمالها،ويخلد شعره بتخليد أحداثها في سجل الخلود ». [3]

ثم يشير إلى أحداث 8 ماي المؤلمة وأحداث قبلها وإلى الصمت الذي ساد الساحة الأدبية:
«مرت على الجزائر أحداث جسام كحادثة قالمة وسطيف وكم من حوادث قبلها فـــاهتز لهـــا العالم و لم نر من شعراء الجزائر اليوم من أذاب قطعة من كبده فيها،وسكب فيها عبرات الشعر تحلو صدورها وتحفظها للأجيال».[4]

كما تحدث نقاد الجزائر عن صدى عن هذه الأحـــداث في الأدب الجزائـــري،ورأوا أن هناك صمتا لدى أدباء الجزائر وبخاصة أثناء الأحداث يقول ركيبي عبد الله «وعلى الرغم مـــن

1-بوكوشة حمزة:(هل في الجزائر شعراء)،جريدة البصائر عدد 85 السنة 2 الموافق لـ 04 جويلية 1949 ص8.

2- بوكوشة حمزة: المرجع نفسه،ن ص.

3- م ن ،ص8.

4- م ن،ص8.

أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائري وأيقظته من غفلته،وهزت العـــالم أجمــع،على الرغم من ذلك لم نجد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائري أو حتى تسجل هذا الحدث البارز لم أدر لماذا؟». [1]

ويتحدث الدكتور خرفي صالح عن أوضاع الشعر الجزائري في تلك الفتـــرة فيقـــول: «وأبعاد حوادث(8 ماي) في الشعر الجزائري أبعاد قاتمة ولكنها خانقة فقد إنحـــبس الشـــعر في أهواله الرهيبة،وأصيب بذهول ووجوم وتلك هي التلقائية لمثل هذه المواقف ». [2]

ويتلمس العذر للشعراء في قول أحمد شوقي:

ومعذرة اليراعـــة والقـــوافي جلال الرزء عن وصف يدق [3]

وفي قول الشاعر محمد العيد:

فيا لك من خطب تعذر وصفه فلم تجر أقلام به فوق قرطاس

ويعلل معظم النقاد ودارسو الأدب الجزائري الصمت الذي أحاط بأحـــداث 8 مـــاي 1945 بجملة أسباب هي:فداحة الخطب،وهول الكارثة و عظم المصيبة،وانعدام وسائل النشـــر فمعظم الصحف كانت متوقفة.

«إن الجرم كان فادحا،والمصيبة كانت أكبر من أن توصف،وربما كانت من الأسباب المباشرة التي أسكتت الشعر خاصة أو الأدب الجزائري عامة وكان عليه أن ينتظر سنوات ثلاث حتى يلملم شمل الذاكرة،ويخرج من فضاعة الكابوس». [4]

إذن بعد هذا الوجوم الذي كان محل تساؤل نطق الشعراء ومنهم محمـــد العيد،وبـــدت إرهاصات المقاومة واضحة،وبدأنا نشعر بهبوب العاصفة بعد الهدوء.

«ولقد حركت المأساة قرائح الشعراء فجاهروا في شعرهم بنقمتهم وبدعوتهم إلى الكفاح من أجل الحرية والاستقلال فتحول الشعر مع الحركة الوطنية من موقـــف الـــرفض والـــدفاع إلى الدعوة للهجوم والحرب ». [5]

1- تاورته محمد العيد (صدى أحداث 8 ماي 1945) في الأدب الجزائري المعاصر،مجلة الآداب عدد 8 جامعة قســـنطينة 2005،ص187.

2- تاورته محمد العيد (صدى أحداث 8 ماي 1945) في الأدب الجزائري المعاصر، ص187.

3- شوقي أحمد:الشوقيات ج2،ص 74.

4- حمادي عبد الله:أصوات من الأدب الجزائري الحديث،ص216.

5- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير،ص319 - 320.

وفي الذكرى الثالثة للأحداث تنفجر عاطفة محمد العيد بقصيدة (لا أنسى)،وفيها حقـــد دفين وبغض شديد للعدو.في بدايتها يعطينا صورة لنفسيته المضطربة القلقة الحائرة تجاه المأســـاة التي أفقدته الصواب،فلم يدر كيف يواجهها ،أيواري حزنه أم يهدئ إحساسه أمام هذا الجرح الذي لم يجد من يعالجه،أم يرجو علاجه ممن أحدثوه؟فهم في جماح،أيحـــاول تضميده؟ســـيزداد تدفقا:

أأكتم وجدي أم أهدئ إحساسي　　وثامن ماي جرحه ما لـــه آســـي
وأرقب ممن أحدثوه ضمـــــــاده　　وهم في جماح لم يميلوا لإســـلاس
تمر الليالي وهو يدمى فلم نجـــد　　له مرهما منهم سوى العنف والباس
إذا ما رجونا برأه ثـــر دافقـــا　　بأحداث سوء وقعها مؤلم قاســـي[1]

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف المأساة،ويعطينا صورة مروعة عن جرائم الاستعمار كـــذبت ادعاءاته ووعوده،حيث أخليت الديار من أهلها بقوة،وسيق الأحياء إلى القبور بقسوة،لا فـــرق بين كبيرهم وصغيرهم،فالعدوان سيل جارف،منبعه بشاعة فعل المستعمر،ومصـــبه الســـجون والمحتشدات التي تتفنن زبانيتها في صنوف التعذيب،فاســـتبيحت حرمـــات النساء،وســـلبت حليهن،وجردن من ممتلكاهن،إنها جرائم يعجز اللسان عن ذكرها والقلم عن وصفها:

فضائع ماي كذبت كل مزعم　　لهم ورمت ما روجوه بإفلاس
ديار من السكان تخلى نكايـــة　　وعسفا وأحياء تساق لأرماس
وشيب وشبان يسامون ذلـــة　　بأنواع مكر لا تحد بمقيـــاس
وأحباس شر أجمعت سجناؤها　　ومعتقلوها أنها شر أحبـــاس
ومعتقلات في العراء مبيـــدة　　عليها لصوص في ملابس حراس
وغيد من البيض الحسان أوانس　　تهان على أيدي أراذل أنكاس
ويسلبن من حلي لهن مرصع　　بكل كريم من جمان وألمـــاس
وينكبن في عرض لهن مطهر　　مصون الحواشي طيب العرف كالآس
فيا لك من خطب تعذر وصفه　　فلم تجر أقلام به فوق أطراس [2]

بيد أن الحل الأخير من هذا الوباء الاستعماري في نظر الشاعر، لم يعد في تعداد الجرائم ووصف المآسي،وإنما ينبغي أن يتجه صوب تحضير الوسائل المادية للحرب والاستعداد للتضحية:

1- العيد محمد:الديوان،ص325.

2- العيد محمد: المصدر نفسه،ص326.

ولا خير في عد المظالم وحدها   إذا لم نبن عن مرهفات و أتراس [1]

ويختم محمد العيد القصيدة بجملة من النتائج هي بيت القصيد،وأهمها:

إن وعود الاستعمار مجرد أكاذيب،لا تعدو أن تكون إلا سرابا خادعا،وإن الطلاق معـــه أصبح ضرورة حتمية،وعلى الشعب أن يطّرح اليأس و يتهيأ للعمل الثوري المسلح:

وما وعدهم إلا سراب بقيعـــة   وما عهدهم إلا مداد بقرطاس

ويا أيها الشعب المروع لا تضق   بدنياك ذرعا واطّرح خلق الياس

وقل للذي آذاك لا وصل بيننا   وموعدنا العقبى فما أنا بالناسي[2]

والملاحظ أن القصيدة تمتاز بصدق العاطفة وحرارتها،وعمق التأثير لأن الشاعر معاصـــر لتجربته،عاش أحداثها،ومست كل الجوانب حياته فجاء التعبير عنها قويا صادقا.

وإذا أردنا المقارنة بين المأساة كأحداث وقعت،وبينها كإحساس عاشه الشاعر،فإننا نجد أن محمد العيد حضر الحدث،وعاناه وجدانيا ثم عبر عنه من منطلق نفسي ممزوج بالــدم والألم والحسرة والحزن،وحتى عندما يتحدث محمد العيد عن الوصف الخارجي للمأساة(فضائع العدو) فان ذلك يتم من منطلق نفسي،وهو ما يعني أن الشاعر لم يصف الحدث لينقله إلى عقولنا،وإنما لينقله إلى وجداننا فنشعر كأننا عشنا المأساة.

والقصيدة مقارنة بما قبلها من نصوص ثورية فيها تطور كبير في الموقـــف،وجرأة غـــير معهودة كما يرى أبو القاسم سعد الله:« فبعد الحرب العالمية الثانية،وبعد واقعة 8 مايو الرهيبة بدأ الشاعر عهدا جديدا في الحكم على السياسة،فلم يعد شعاره الهدوء والرفق والحذر والاتعاظ بالسالفين العاثرين بل أصبح شعاره:

حياتك حرب للضعيف فكن بها   قويا أبيا أن تذل وتخضعا».[3]

ويضيف أبو القاسم سعد الله:« و أصبح يخاطب القيادة ويخاطب الشـــعب بلهجـــة لم يتعودوها منه...لهجة فيها كثير من الصراحة والعنف والإصرار».[4]

أما النموذج الثاني الذي يعبر عن مدى التطور الحاصل في مواقف محمـــد العيـــد بعـــد أحداث الثامن ماي،والذي يدل على وضوح الهدف،هو القصيدة التي نشرت سنة 1950 بجريدة

1- العيد محمد:الديوان ،ص326.

2- العيد محمد:المصدر نفسه،ص327.

3- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص109.

4- سعد الله أبو القاسم:المرجع نفسه.ن ص.

المنار:وفيها دعوة صارخة إلى استنهاض العزائم،واغتنام الفرصة لكسر قيــود الاســتبداد،ورفع الظلم،وتحقيق الاستقلال في وطن حر،يرفرف على ربوعه علم الحرية ويحميه جيش قوي:

حثوا العزائم واصدقوا الآمالا إن الزمان يسجل الأعمالا

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا

الأسر طال بكم فطال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا

لا أمن إلا في ظلال مرفرف حرّ لنا عالٍ ينير هــلالا

من فوق جند بالعتيد من القوى يلقى العدو ويصمد استبسالا[1]

ومعاني القصــيدة حماســية تــثير الجمــاهير،فهي بمثابــة التعبئــة للــنفير(حثوا،يــا قوم،هبوا،فكوا،حطموا الأغلال).

ويسود القصيدة في آخرها جو من التفاؤل،فالاستقلال قريب المنــال إذا تحققــت إرادة الشعب،وأخلص هذا الأخير عزمه«ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ».[2]

وإذا أراد الشعب نال مــراده ولو أنه كالنجم عز منالا

الله في عون الشعوب فمن يرم تعويقها بالقمع رام محالا[3]

وعلى الرغم من أن القصيدة كغيرها صادرة عن مناسبة وطنية،فإنها لم تكن رهينتها،وإنما ترجم الشاعر من خلالها ما كان يجول في نفس الشعب الجزائري من آمال في التخلص من قيود الاحتلال البغيض،فقد كان الهدف الأول من أهداف الثورة المباركة هو انتزاع الاستقلال مــن أيدي مغتصبيه وكان محمد العيد من أكبر المتحمسين لذلك:«ولعل محمد العيد أول من صرّح بالاستقلال والحرية والعَلَم والجيش الوطني من بين إخوانه الشعراء،ذلك أن الشعراء الجزائــريين - وهو منهم- كانوا يختبؤون وراء الكلمات ولا يصرحون بما يودون ».[4]

1- العيد محمد:الديوان،ص339.

2- سورة الحج،الآية 38.

3- العيد محمد: المصدر نفسه ،ص 340.

4- سعد الله أبو القاسم:دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص45.

4 - محمد العيد وثورة أول نوفمبر 1954:

إن علاقة المثقفين الجزائريين بالثورة التحريرية الكبرى هي علاقة الروح بالجسد،فقد كان المثقفون هم المصدر الذي استلهم منه الشعب الجزائري المدد المعنوي الذي تسلح به في جهاده المرير الذي أعلنه سنة 1954.« إن مهمة أصحاب الكلمة ليست أن يقاتلوا – وقد يفعلـــون- بل أن يصوغوا وجدانات المقاتلين،وهذا هو دورهم الخطير».[1]

فإليهم يرجع الفضل في توعية الشعب وتمسكه بشخصيته،وحفظه كيانه،وصـــيانته مـــن التشرذم.

وهذه الروح المعنوية الوقادة التي مكنت من القيام بالثورة هي نتيجة للأفكار التي كـــان ينشرها زعيم جمعية العلماء المسلمين عبد الحميد بن باديس،التي اعتنقها كـــثير مـــن المـــثقفين الجزائريين ومشوا في خط الثورة مناضلين أو فدائيين« ولقد شهد بذلك العديد مـــن المـــثقفين الذين قدموا أرواحهم فداءا لتحيا الجزائر أمثال عمارة رشيد وعبد الرحمن طالب،وأحمد بوزقاق وعلي بومنجل وغيرهم كثير».[2]

ولئن آثر بعض المثقفين حمل البندقية،واعتبارها أحسن وســـيلة لتحريـــر الجزائـــر مـــن الاستعمار،فإن البعض الآخر فضل الجهاد بالكلمة لإيمانه بما لهذه الأخيرة مـــن دور في بلـــورة الوعي الثوري وشحذ للعزائم،وبعث للهمم،لأن مهمة الأدباء كما يرى حنا مينه هي هندســـة النفوس البشرية.[3]

ومن هؤلاء محمد العيد آل خليفة الذي كان له موقف واضح مـــن الاســـتعمار ومـــن الثورة،التي تحدث عنها ودعا إليها قبل اندلاعها بعقود - كما سبقت الإشـــارة -كمـــا تنبـــأ بحدوثها بوقت قريب، فهذا محمد العيد يتنبأ بإشراق فجر الثورة من الأوراس فيبعث تنبآته شعرا للشعب الجزائري في قصيده الخالد[4] الذي ألقاه سنة 1947 بباتنة،على إثر دروس قام بها البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين،هذا القصيد الذي يستهله بقوله:

---

1 - مينه حنا والعطار نجاح:أدب الحرب،ص34-35.

2- قسوم عبد الرزاق:(نوفمبر والمجاهدون بالكلمة)، مجلة الأصالة،عدد 73- 74 وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـــة، سبتمبر أكتوبر 1979،ص70.

3 - ينظر: مينه حنا والعطار نجاح:أدب الحرب،ص35.

4 - ينظر: قسوم عبد الرزاق:(نوفمبر والمجاهدون بالكلمة، مجلة الأصالة،عدد 73- 74) وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية،سبتمبر أكتوبر 1979،ص70.

بباتنة رعـــد البشائـــر لعلعـــا فأطرب أوراسا بها والشلعلعا[1]

وفي هذه القصيدة يقدم الشاعر مفهومه للإنسان الحر،ألا وهو الـــذي يتـــيمم معهـــدا لاقتباس العلم الصحيح النافع أو هو الذي يخوض الوغى في كتيبة ليحرر البلاد و يلقى الشهادة وهما الأمران اللذان يرى الشاعر أن الشعب الجزائري أحوج ما يكون إليهما حيث يقول:

وما الحر إلا من تيمم معهـــدا ليقتبس العلم الصحيح فينفعا

وإلا من اختاض الوغى في كتيبة ليفتح مصرا أو يلاقي مصرعا

فيا أيها الشعب الذليل أما ترى لجارك هما بالسيادة مولعـــا[2]

وهذه أبيات أخرى من قصيدة له قالها قبل الثورة بشهرين أي في شهر ســـبتمبر ســـنة 1954 بمناسبة افتتاح مدرسة باتنة العربية الحرة التابعة لجمعية العلماء،يدعو فيها أبناء شـــعبه إلى الجهاد لتحرير بلاده من العدو الذي عاث فيها فسادا ويعدها أنه رهن إشارتها ليفديها بروحه:

حثثنا نحو باتنـــة المطايـــا وجئناها نزف لها التحايـــا

أليست أخت (أوراس) المعلى وجارة (توقر) الخصبة الحنايا

لقد أصغى إليك الدهر أذنا ليروي ما تسجل من قضايا

فسجلها له آثـــار صـــدق مخلـــدة بأيديك السخايـــا

ولا تسجيل للآثـــار إلا ببذل المال أو بذل الضحايا

ولا أشهى لأحرار المبـــادي من التحرير للنسم السبايـــا

بلادي لا تركت إلى بغـــاةٍ تشينك بالفساد و لا بغايا

أعديّ للمعالي السير وامضي ولا تهني بجهدك أن تعايا

فنحن يداك في كسب المعالي ونحن فداك من كل البلايا[3]

وقد صدق تنبؤ محمد العيد حين اندلع لهيب الثورة المباركـــة مـــن الأوراس الأشـــم ، واسترخص الجزائريون أنفسهم يوم الروع،وراحوا يبذلونها قرابين لتحرير بلادهم و لم يعد المجال مفسوحا للكلام بعدما نطق الرصاص كما عبر عن ذلك شاعر الثورة مفدي زكريا:

نطق الرصاص فما يباح كلام وجرى القصاص فما يتاح ملام

1- العيد محمد:الديوان،ص185.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص187.

3- م ن،ص217،218.

ولأنه «لا مكان للكلمة في ساحة القتال »[1] فقد صمت محمد العيد،وصمت معه كـــثير من الأدباء،فلم يعد الشعب الجزائري يسمع إلا لعلعة الرصاص،ودوي القنابل يقـــول خـــرفي صالح:«إن الشعراء الذين سبقوا ميلاد الثورة بأشعارهم ركنوا في عهدها إلى ما يشبه الصـــمت المطبق فاستقبلوها بهدوء المنتظر المتوقع،وكمون الموقد للفتيلة يترقب انفجارها».[2]

ويضيف:« سكت محمد العيد،فلم ينتظر ديوانه الضخم غير قصيدتين يرجع تاريخهما إلى عهد الثورة،وهو الشاعر الذي كان ينفح الثورة في الثلاثينات بقصيدة في كل مطلع شهر حتى تميز به عقد بأكمله، لم يكد يشق له غبار».[3] والقصيدتان هما(مناجـــاة بـــين أســـير وبـــين أبي بشير)،و(أبا المنقوش)،« وربما نظم الشاعر غيرهما في عهد الثورة كما سمعـــت مـــن بعـــض أصدقائه،ولكنه ضاع في حملات التفتيش المتعاقبة التي تعرض لها الشاعر»[4].

وقد وجدت كتابات كثيرة قبل الثورة تعلل صمت الأدباء منها:مقالة عبد الوهاب بـــن منصور(مالهم لا ينطقون)،ومقالة حمزة بوكوشة (هل في الجزائر شعراء)[5].

وقد حلل الأدباء أنفسهم أسباب صمتهم هذا،بالوضعية الصعبة التي كانـــت تعيشـــها الجزائر،يقول عبد الرحمان شيبان:« إن الأديب الجزائري في بؤس شامل،فهو لا يجد من المال ما يسد به الرمق فضلا عما يشتري به كتابا يستمد منه الوحي والإنتاج،ولا يجد من الوقت مـــا يقوم فيه بواجبات مهنته،ولا يجد من الحالة النفسية ما يملك معه رشده حتى يسطر كلمة ممتعـــة أو مفيدة،وهو فوق ذلك لا يجد من الحرية ما يعلن به رأيا جريئا،يخـــالف نزعـــة أو يعـــارض نزعة،إنه يعيش تحت أحكام عرفية فرضتها عليه الشخصيات والهيئات»[6] .

ومن غير شك أن هذا الوضع قبل الثورة هو نفسه بعد الثورة، يضاف إلى ذلك ألـــوان القهر التي تعددت فكانت من وراء صمت محمد العيد وغيره من الشعراء عن مواكبة الثورة في مراحلها الأولى، فطريق الكلمة الحرة كما يرى محمد مصايف صعب« إن طريق الكلمة الحـــرة المدوية، لم يكن في يوم من الأيام مفروشا بالورود».[7] فكان محمد العيد مـــن الأوائـــل الـــذين

1 - مينه حنا والعطار نجاح:أدب الحرب،ص28.

2- خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص223.

3- خرفي صالح: المرجع نفسه، ص 224.

4 - م ن ،ص224.

5 - ينظر:شلتاغ عبود شراد:حركة الشعر الحر في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1985،ص25.

6 - البصائر:عدد 13 ليوم 16 جانفي 1953،نقلا عن شلتاغ عبود شراد:حركة الشعر الحر في الجزائر،ص26.

7- الشريف جلال فاروق:إن الأدب كان مسؤولا،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق1988،ص105.

بطشت بهم يد الاستعمار،وانتهى به الأمر من السجن إلى الإقامة الجبرية،وكانت وضعيته آنذاك سيئة للغاية يقول عنها هو نفسه «كنت لا أخرج من البيت،وكان احتكاكي بالناس لا يتجاوز الدقائق المعدودة،وكنت أغتنم تلك اللحظات لأؤكد للزوار قرب انفـــراج الأزمـــة وحتميـــة النصر».[1] وكثيرا ما كنت أتلو على مسامعهم قوله تعالى:« إني لأجد ريح يوســـف لـــولا أن تفندون».[2]

ومن أسباب صمت الشاعر،يروي سعد الله أن محمد العيد بعد إطلاق سراحه امـــتحن امتحانا عسيرا حيث«اقتيد مع مجموعة من السجناء إلى خلاء وهناك أعدم رفقاؤه الواحد تلـــو الآخر أمام عينيه،وهو ينتظر دوره،ولكن القدر حال دون ذلك وأطال في عمر الشاعر».[3]

وهو امتحان عسير،قل من سلم منه،فالنفس ضعيفة،والشجاعة لم تكن مطلقـــة تتســـلق بالكلمة على جدار الموت.

وفي رواية أخرى ينقلها محمد بن سمينة عن حال الشاعر أثناء الثورة يقول فيها:« كنت أكتب و أكتم ما أكتب»[4].

وظاهرة صمت الأدباء أو قلة إنتاجهم في ظروف معينة «ليست بدعا في تـــاريخ أهـــل الفكر والأدب، و لا في تاريخ الشعر والشعراء في القديم ولا في الحديث»[5].

ويؤكد صالح خرفي هذه الظاهرة على لسان الأدباء أنفسهم«وليس من قبيل الصدفة أن يتظافر الشعراء – ممن واصلوا رسالة القول من الرعيل الأول أو بدأوها من الشباب الصـــاعد- على تأكيد ظاهرة الصمت هذه،بل تقديسها والاعتزاز بإخلاء الميدان للغة الرصاص،واستحياء الشعر العيي،من الســـلاح المفصـــح المبين،فـــ(مفـــدي زكريـــا) يبعـــث بقصـــيدة مـــن أعماق(بربروس)بعنوان (تعطلت لغة الكلام)،وهو لا يبيح لنفسه الكلام إلا ليؤكـــد قداســـة الصمت» [6]. وفي مثل هذه الظروف يرى محمد مندور: « إن الأدب قد يمهد للثورة ولكنـــه لا يستطيع النمو في لهيبها لانعدام المناخ الملائم للإبداع الفني»[7] .

1- ابن سمينة محمد:محمد العيد دراسة تحليلية لحياته،ص105.

2 - سورة يوسف الآية 93.

3- سعد الله أبو القاسم،محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص148.

4 - ابن سمينة محمد: المرجع نفسه،ص108.

5 - م ن،ص109.

6 - خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث،ص225.

7- مندور محمد:الأدب ومذاهبه،نقلا عن: ابن سمينة محمد: المرجع نفسه،ص106.

هذه الظروف كفيلة بالإجابة عن أسباب ندرة شعر الشاعر أثناء الثورة ويرى محمد بن سمينة أنه«يجدر بالمرء ألا يندهش إذا لم يعثر في ديوان محمد العيد على أكثر من أربع قصائد ومقطوعة واحدة،وأن يكون هو كل ما يمثل حصيلة ما أنتجه الشاعر أثناء الثورة،وهذا على خلاف ما يذكر بعض الدارسين من أن للشاعر قصيدتين فقط من نتاج الثورة».[1]

وهذه القصائد هي على التوالي(استقلال السودان)،(أمير المؤمنين)،(مناجاة بين أسير وأبي بشير)،(أبا المنقوش)و(سأمضي وأترك شعري)،وهي على قلتها لم تتناول الثورة بشكل مباشر.

إن قلة شعر محمد العيد المواكب لثورة التحرير لا يعني توقف قلبه عن الخفقان باسم الجزائر وشعبها،وبالاستقلال والحرية،ففي القصيدة التي ألقاها سنة 1956.بمناسبة استقلال السودان،كانت الجزائر حاضرة بقوة،فمن خلال مؤازرة السودان ومشاركته فرحته يتساءل محمد العيد عن الجزائر وهل حان وقت تحريرها،وتقرير مصيرها كبقية البلدان العربية التي بليت بهذا الداء وتخلصت منه،يقول:

من مبلغ السودان عنا أننـا　　　شيع لـه بشعورنا خـلان
نتبادل القبلات باستقلالـه　　　فرحا وإن طافت بنا الأحزان
متسائلين عن(الجزائر) هل دنا　　　تحريرها أم حظها الحرمـان؟
ومتى تقرر كالشعوب مصيرها　　　فقد اقتضى تقريرها الإبان؟
ومتى تفوز بنعمة استقلالهـا　　　فقد استقلت دونها الأوطان؟[2]

وبالنظر إلى الواقع آنذاك فإن تساؤلات الشاعر مشروعة فالثورة عمت أرجاء الوطن،و لم تعد قضية الاستقلال إلا مسألة وقت فقط .وخلال سنوات الثورة السبع كان الشاعر يخضع إلى رقابة صارمة،حضر عليه فيها مغادرة بيته فعاش بذلك محروما من حريته معزولا عن الناس،رفيقه الوحدة،معرضا كل لحظة من الليل أو النهار إلى حملة من حملات الإرهاب يفاجئه بها جنود الاحتلال«كما كان يستدعى بين الحين والآخر للاستنطاق».[3]

ويمكن أن نقف على الظروف التي كان الشاعر يعيشها من خلال قصيدته (أبا المنقوش) التي ألقاها سنة 1959 يناجي فيها جبل أبي المنقوش، الذي يربض على إحدى جنبات بسكرة،كأنه يحرسها،ويحميها من بطش الأعداء على حد قوله:

1- ابن سمينة محمد: محمد العيد دراسة تحليلية لحياته،ص107.

2- العيد محمد:الديوان، ص356.

3- ابن سمينة محمد: المرجع نفسه،ص46.

أبا المنقوش هل تدري بحـــالي   فأنت اليوم جاري في الجبال
ببسكرة النخيل حططت رحلي   وأنت بأرضها حامي الرحال
رأيتك مشرفـــا أبدا عليهـــا   كإشراف الولي على العيـــال
رماني حول سفحك موج دهري   أسيــــرا بعد أحداثٍ طـــوال
فعشت به (كيونس) في سقام   لدى قومي ولكن في انعزال[1]

ولكن هذه الوحدة التي يعانيها الشاعر،وهذه الغربة المفروضة عليه في وطنه«هذه الوقفة لم تتحرر من الحيرة المتطلعة والاستفسار الدائب عن مصير الثورة والشعب المصابر».[2]

(أبا المنقوش) خبرني فـــإني   أحب شفاه مثلك بالسؤال
متى يأتي بربك نصر شعب   يقاسي كل ألوان النكـــال
مضت حجج له خمس شداد   وموطنه بنار الحرب صال[3]

ولكن هذه الحيرة تتحول مع نهاية القصيدة إلى يقين بأن الهـــدف اتضـــح،وأن النصـــر قادم،فبعد المخاض يترقب المولود:

ترقب خير مولود جديـــد   بمولده تمخضت الليـــالي
فإن الثورة اكتشفت مداها   ولاح لها التحرر كالهلال
وقل لابن الجزائر كن صمودا   فنصر الله للبأساء تالـــي[4]

وفي قصيدة أخرى ألقاها الشاعر أثناء الثورة وهو في إقامته الجبرية حيث«أطـــل عليـــه الطائر(أبو بشير)[5] فكان بينهما ما كان بين(أبي فراس)والحمامة،و(سليمان) والهدهـــد،وكانت هناك مناجاة بين أسير وأبي بشير،وفي هذه المناجاة وضعت الحرب أوزارها بين الشاعر واليأس بقدر ما احتدمت الحرب على قمم الأطلس،فأشاح الشاعر بوجهه عن اليأس متطلعا إلى تباشير اليوم الموعود».[6]

1- العيد محمد: الديوان،425.

2- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث،ص267.

3- العيد محمد: المصدر نفسه،ص425.

4- م ن،ص425.

5- أبو بشير:طائر صغير يستبشر الناس برؤيته أو سماع صوته،ولذلك كنوه بهذه الكنية.

6- خرفي صالح:شعراء من الجزائر،ص179.

جزمت بقرب إطلاق الأسير غداة سمعت صوت أبي بشير
وجئت أبشـــه نجواي ســـرا ومن للحر بالصوت الجهير
أناجيه بآمالـــي وحالـــي واستفتيه عن شعبي الكسير
فقال:لقد أتيتك من بعيـــد فاصغ إلي وارو عن الخبيـــر
كما أصغى سليمان قديمـــا إلى أنباء هدهده الصغيـــر
سيحمد شعبك العقبى قريبا ويحرز نصره بيـــد القديـــر[1]

والقصيدة كما هو ملاحظ نابعة من رؤية الشاعر المؤمن بالنصـــر،الذي يـــرى تباشـــير الاستقلال تلوح في الأفق،لتبدد ظلام الاستعمار عن سمائها.وهذا ما تحقق فعلا.

وهكذا فإن شعر محمد العيد انطلق من عمق المجتمع مقاوما ثائرا من أجل تحطيم قيـــود الاستعمار،فبث في شعبه روح الوطنية فثار مقتلعا جذور الظلم،وطهّـــر الأرض مـــن دنـــس الاستعمار،وكان شعر محمد العيد صدى لهذه الأحاسيس،وترجمة لهذه المشاعر التي تخـــتلج في صدور الشعب،وإننا نلمس بوضوح إخلاص الشاعر وأصالته العربية الإسلامية،لأنه«كمعظـــم إخوانه من الجزائريين يعيش حياة لم يكن يحياها ملكا لنفسه،وإنما كان يحياها جنديا إلى جانب أمته في صراعها مع المعتدين الغاصبين».[2]

وهذه السمة لا تنطبق على محمد العيد فحسب،حيث يمكن تعميمها على معظم الشعراء الذين عاصروه،يقول عبد العزيز شرف:« ويمكننا أن نقـــول إن الشـــعر الجزائـــري النـــاطق بالفصحى قد سار جميعا هذه المسيرة في الدعوة إلى المقاومة من خلال شكل تقليـــدي يـــتغنى بالجهاد والنضال ويدعو إلى وحدة الجزائر ثم يواكب الأحداث السياسية».[3]

وهكذا كان للكلمة دورها،فكان للرصاصة دورها،وحين انطلقت الرصاصـــة خفـــت صوت الكلمة أحيانا،ولكنها لم تنم،وكان لها مكان،ولئن لم يحمل محمد العيد البندقية،و لم يطلق رصاصة،فإنه سخر شعره لقضايا وطنه،وعبأ شعبه بشحنات هائلة من القيم الوطنيـــة،والمبادئ الثورية،التي كانت المدد المعنوي في محاربة الاستعمار.

1- العيد محمد:الديوان،ص422 ــ 423.

2-ابن سمينة محمد: محمد العيد دراسة تحليلية لحياته،ص137.

3- شرف عبد العزيز:المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر،منشورات وزارة الثقافة،دمشق 1971،ص34.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

I. الاقتباس من القرآن

1- الاقتباس اللفظي

2- الاقتباس المعنوي

II. اللغة والأسلوب

1- اللغة

2- الأسلوب

III. الصورة الشعرية

1- صور مصدرها ديني

2- صور مصدرها الطبيعة

3- الرمز

IV. الموسيقى الشعرية

1- الموسيقى الخارجية

2- الموسيقى الداخلية

الدراسة الفنية

I- الاقتباس من القرآن الكريم:

من المؤكد أن أثر القرآن في الحركة الأدبية، لم يكن بدعا في حياة المجتمعات الإنسانية،وفي استجابتها للتطورات الفكرية،فالقرآن أثناء نزوله كان أسلوبا من أساليب الفكر،ونمطا من أنماط السلوك،ونظر إليه على أنه أثر فني بارع ملأ النفوس دهشة وروعة ومن ثمة لا بد أن يترك آثاره في الحياة الفنية كما تركها في الحياة النفسية والاجتماعية،ومن هنا كان للأدب أن يكون قوة فاعلة في نطاق الدين،وألا يحيد عنه قيد أنملة.وهذه الظاهرة ليست بدعا في الأدب العربي كما يرى الدكتور محمود السمرة«أما الأدب في الغرب فقد نشأ نشأة دينية،وفي ظل الدين ازدهر،فإن الإحساسات الخلقية،والأذواق الفنية مصدرها الدين.ومن اليونان إلى آخر الدولة الرومانية كان مظهر الفن الأعياد العظيمة،وهي أعياد دينية قبل كل شيء».[1]

وحين نتبع الحركة الشعرية العربية في العصور المختلفة نجد أن إعجاز القرآن بمعانيه ومبانيه كان سبيلا إلى قلوب كثير من الشعراء،وقام فيها مقام النموذج الرفيع الذي تحاول أن تحتديه، و قد تجلى ذلك بوضوح في الكثير من أشعار الشعراء الذين رأوا فيه المعين الصافي الذي لا ينضب.

وانطلاقا من هذا فإن محمد العيد لم يكن بدعا في الشعراء في علاقته بالقرآن الكريم، خاصة إذا نظرنا إلى الفترة التي جاء فيها،فترة الاستعمار وسياسة التجهيل بمفهوميه،تجفيف منابع التعليم،وتسفيه العقول بإفساد الأخلاق التي مارسها على الشعب الجزائري،هذه الظروف اقتضت أن تكون الانطلاقة بالرجوع إلى المنابع الأولى،وهي الثقافة الإسلامية الأصيلة ممثلة في القرآن الكريم الذي كان من أقوى العوامل الاجتماعية وأكثرها تأثيرا في الحياة الثقافية« بسبب ما يتضمنه القرآن من التوجيه الشامل للحياة الاجتماعية»[2].ولهذا كان من الطبيعي أن يتأثر به محمد العيد- كما تأثر به أسلافه- وينهل من اللغة والفكرة والأسلوب،وأن يفوق تأثره هذا جميع معاصريه،ويمكن إرجاع ذلك إلى سببين:

أولهما:أن نشأة الشاعر نشأة دينية صرفة،فقد كان أبوه السيد خليفة حم علي شيخ طريقة دينية في عين البيضاء ونشأ بهذه المدينة وحفظ القرآن ثم واصل تعليمه ببسكرة على يد

1- السمرة محمود: القاضي الجرجاني الأديب الناقد،ط1،منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت1966، ص164.

2- الرفاعي أحمد: الشعر الوطني الجزائري1925-1954،رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1979/78،ص194.

مشايخ وعلماء شهرتهم دينية،وأنهى دراسته بتونس من جامع الزيتونة الذي كانت شهرته دينية وثقافية في المغرب العربي كمعقل إسلامي عربي قديم[1].

ثانيهما:ارتباطه بالحركة الإصلاحية،وملازمته لأقطابها الثلاثة:(ابن بـــاديس،الإبراهيمي والطيب العقبي) وقد ازدادت صلته بهؤلاء الأقطاب بعد سفره إلى الجزائر العاصمة التي كانت الحركة الإصلاحية والثقافية بها في الثلاثينيات أعظم نشاطا وأشد حيوية وأكثر تنوعا منـــها في غيرها،وكان الشاعر على اتصال بمركز معظم هذه النشاطات وهو(نادي الترقي)،الذي كـــان ملتقى العلماء والأحباب ومنطلق اللقاءات الفكرية وكان ما يدور في ذلك النادي مـــن أكـــبر المنابع التي استقى منه الشاعر أفكاره[2].

مع العلم أن الحركة الإصلاحية منذ ظهورها كان توجهها مزدوجا،التوجه الأول هـــو الإصلاح الديني،اعتمادا على القرآن الكريم والحديث الشريف والأثر،كمـــا تجلـــى ذلـــك في مدارسها،والتوجه الثاني هو الاهتمام بالتراث الأدبي العربي القديم الذي نظرت إليه علـــى أنـــه أقوى رافد يخدم اللغة ويحميها،يقول محمد الهادي الزاهري«بأنه لا يمكن للغة العربية أن ترقى في ألسنة أبنائها ما لم تستمد رقيها من روائع فحول الأدب العربي القديم،من أمثال عبـــد الحميـــد الكاتب،وابن العميد والجاحظ والحريري،والبحتري وأبو تمام والمتنبي»[3].

ومن هذين الرافدين نهل محمد العيد-كما نهل معاصروه،بيد أن الشاعر فاق غـــيره في اعتماد اللغة والمعاني والصّور القرآنية ووظفها توظيفا موفقا في معظم شعره،ولعل ذلك يعود إلى خصائص القرآن ذاته فهو كما يقول إبراهيم أنيس«و الجمال في أسلوب القرآن أن معظمه جاء متناسق المقاطع يصلح أن يضمن في شعر الشاعر دون مشقة أو عنت»[4].

ومحمد العيد الذي حفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظافره وتعهده منذ صباه،وحين كان يافعا وشابا،أدرك أن القرآن هو المثل الأعلى في قواعد النحو والصرف والبلاغة،ولم يعرف أثرا أدبيا قبله ماثله في ذلك،فأكب عليه يستقي منه لفظا ومعنى، لدرجة أن معظم قصائده لا تخلـــو من تضمين من القرآن الكريم لفظا ومعنى،أو من الحديث النبوي والتاريخ الإسلامي ومواقـــف رجاله.

1- ينظر سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص86.

2- ينظر ابن سمينة محمد:محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته،ص25.

3- ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث،اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص45-46.

4- إبراهيم أنيس:موسيقي الشعر،ط 3،مكتبة الانجلو المصريةالقاهرة 1965،ص309.

وقبل أن نعرض لأثر القرآن في شعر محمد العيد،نشير إلى تعريف التضمين والاقتباس عند النقاد والأدباء.

«فالتضمين في البديع أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية أو حديثا أو حكمة أو مثلا،أو سطرا أو بيتا من شعر غيره بلفظه ومعناه».[1]وهو عند ابن الأثير « أن يضمن (أي يدخل) الشاعر شعره،والناثر نثره كلاما آخر لغيره».[2]

أما الاقتباس في عرف البلاغيين فهو: « أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله تعالى خاصة».[3]

وقد كان محمد العيد بارعا في تمثيل النصوص القرآنية في شعره يقول أبو القاسم سعد الله:« وكان الدين من أكبر العوامل التي تجتذب الأسماع وتؤثر في القلوب،وكان محمد العيد بارعا في استيعاب المبادئ الأخلاقية الدينية وتقديمها في قالب شعري محبوب»[4].

ويؤكد محمد العيد التصاقه الشديد بالقرآن الكريم ونهله من نبعه مفردات وتراكيب ومعاني حين يقول:[5]

يقولون هل نقبت في الكتب باحثا	فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت فلم أشرب من الكأس فضلة	يزاحمني في رشفها ألف شارب
ومن كان للأسفار في العلم راغبا	فإني للأسفار لست براغب
فحولي كتب الله من كل شارق	تزودني علما ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب	وعن كل بحث في المراجع ناصب[6]

فالشاعر هنا ينكر أن يكون قد تأثر بمصدر معين،أو اقتفى أثر أحد،ولا يعترف إلا بكتب الله مصدرا يستمد منه المعرفة.

1 - أنيس إبراهيم:المعجم الوسيط،نقلا عن السد نور الدين:الأسلوبية وتحليل الخطاب،ص119.

2 - الشيباني نصر الله بن محمد:الأدب السائر نقلا عن: لزهر فارس:الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف،(رسالة ماجستير)،جامعة منتوري قسنطينة 2004-2005،ص113.

3 - طبانة بدوي:معجم البلاغة العربية نقلا عن: لزهر فارس: الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف،ص88.

4 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص216.

5 - سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه،ص92.

6 - ابن سمينة محمد: تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة،ص225.

1- الاقتباس اللفظي:

حين يتحدث الدكتور محمد ناصر عن شعراء الجزائر المحافظين،وعن الظـــواهر الفنيـــة البارزة في شعرهم بشكل لافت للنظر مثل ظاهرة تضمين القرآن الكـــريم في أشـــعارهم أو اقتباسهم منه يقول:« ليس غريبا على شاعر مثل محمد العيد،وهو على ما يعرف عليه من ورع وتقوى،وتمسك بالقرآن الكريم قراءة وتطبيقا أن يرى في لغة القرآن النموذج الذي يجـــب أن يحتذى،روعة بيان وسلاسة منطق»[1].

وبجولة قصيرة في ديوان محمد العيد ندرك مدى شيوع الألفاظ الواردة في القرآن الكريم في قصائده إما تضمينا وإما لفظا صريحا، يقول في قصيدة(صرخة ثورية) سنة 1932:

إذا زلزلت بالخطوب البلاد فلا خير في حذر أو تقية[2].

فهو يضمن شعره لفظ ومعنى الآية:« إذا زلزلت الأرض زلزالها»[3].

ويرى أحمد الرفاعي أن اقتباس محمد العيد في هذا الموضع يقلل من معنى الزلزال الوارد في الآية الكريمة وهو زلزال عام وشامل،بينما معنى الزلزال في بيت محمد العيد محدود من حيث المكان والتأثير[4].

ويقدم الرفاعي موضعا آخر يعتبره اقتباسا جيدا وهو من قصيدة(استوح شعرك)إحدى حوليات الشاعر التي ألقاها سنة1937:

يا شعب إن الكون حقلك فأحترث وازرع فحقل الكون أخصب مزرع[5].

وهو اقتباس من الآية«من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كـــان يريـــد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»[6]،والآية تعبر عن نوعين من الكسب الأول دنيوي لا يراعي حق الله والعباد،والثاني كسب تضبطه الشريعة الإسلامية بحـــدودها المفصـــلة للحلال والحرام،وقد قدم الثاني على الأول في الآية الكريمة لأهميته.

1 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص297.
2 - العيد محمد: الديوان،ص417.
3 - سورة الزلزلة:الآية1.
4 - ينظر الرفاعي أحمد:الشعر الوطني الجزائري(1925-1945)،ص195.
5 - العيد محمد:الديوان،ص949.
6 - سورة الشورى:الآية20.

ويقول في قصيدة (يوم الشعب) التي ألقاها في الذكرى الثانيـــة للمـــؤتمر الإســـلامي سنة1937،والتي خاطب بها الاستعمار الفرنسي:

أين المفر من الإلا ه وحكمه أين المفر؟
أو تبغي وزرًا يصو نك منه،كلا لا وزر[1]

فكلمات هذين البيتين مأخوذة من قوله تعالى:«فإذا برق البصر وخسف القمر وجمـــع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر،كلا لا وزر»[2]،وحين يســـتعمل محمـــد العيـــد الألفاظ الواردة في القرآن،فهو لا يخرج بها عن معانيها في المعاجم اللغوية لتحمل دلالات إيحائية أخرى كما هو الشأن عند الرمزيين والرومانسيين،ولعل ذلك يعود إلى أن محمد العيد قد تـــأثر بلغة القرآن تأثرا كاملا«وقدّ سها تقديسا مطلقا،وعدّ الخروج عن معاني ألفاظها غير جائز،ومن ثم اكتفى باللفظة وما تحمله من معنى دون أن يخـــرج بهـــا إلى معـــنى جديـــد كمـــا فعـــل مفدي زكريا »[3]،ولننظر هذه الأبيات من قصيدة ألقاها سنة 1936:

حسبنا في جهادنا أن من جندنا القدر
كنتم خيـــر أمـــة اخرج الله للبشـــر
لا تخافوا لا تحزنوا إن عقابكم الظفـــر[4]

فقد أخذ الشاعر في البيت الثاني والثالث اللفـــظ ومعناه،البيـــت الثـــاني مـــن قولـــه تعالى:«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر...»[5]،والبيت الثالث من قول تعالى:«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتترل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنـــوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[6].

ويقول في قصيدة(حزب مصلح) سنة1936:

سر مع التوفيق فهو الدليل حصحص الحق وبأن السبيل
من يقل لا تأمنوا الغدر قلنا حسبنا الله ونعم الوكيل[7]

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص309.

2 - سورة القيامة:الآية20.

3 - بري حواس:شعر مفدي زكريا،دراسة وتقويم،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر1994،ص401.

4 - العيد محمد:الديوان،ص134.

5 - سورة آل عمران،الاية110.

6 - سورة فصلت،الاية30.

7 - العيد محمد،الديوان،ص129،131.

فعجز البيت الأول مقتبس من قوله تعالى:«قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »[1] ،وعجز البيت الثاني مأخوذ من قوله تعالى:« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم والوكيل »[2].

ومحمد العيد لم يكتف بتوظيف اللغة والأساليب القرآنية فحسب،بل كان متجاوبا مع المناسبات الدينية،وكثير من قصائده تصدر بعناوين مقتبسة من القران الكريم،ونكتفي هنا بتقديم قصيدة واحدة هي(ختمت كتاب الله)التي ألقاها سنة1938 بمناسبة ختم ابن باديس القرآن الكريم تدريسا وتفسيرا.فإن عنوان القصيدة،ومناسبة إلقائها،والمكان الذي ألقيت فيه،كل ذلك يشهد على أن القرآن يشكل المصدر الأساسي الذي ينهل منه الشاعر،ويزيد من طابع القصيدة الديني ما وظف فيها من ألفاظ ومعاني مقتبسة من القرآن الكريم،يقول فيها:

إذا كنت حزب الله سرا وجهرة   فثق أن حزب الله لا بد ينصر[3]

فهذا البيت مقتبس من قوله تعالى:« أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون»[4].

ويقول في قصيدة (لا أنسى) التي ألقاها بعد أحداث 08 ماي 1945 مشيرا إلى الوعود الفرنسية التي يشبهها بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً وما هو بذلك يقول:

وما وعدهم إلا سراب بقيعة   وما عهدهم إلا مداد بقرطاس[5]

فهذا البيت مقتبس من قوله تعالى:« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب»[6].

---

1 - سورة يوسف،الآية51.

2 - سورة آل عمران،الآية173.

3 - العيد محمد:الديوان،ص159

4 - سورة المجادلة:الآية22.

5 - العيد محمد:الديوان،ص327.

6 - سورة النور:الآية 39.

2- الاقتباس المعنوي:

الاقتباس المعنوي هو أن يتصرف الشاعر فيما يقتبسه،فيحدث بعض التحوير الطفيف على العبارة أو الجملة القرآنية المقتبسة،وذلك لتتماشى مع ما تتطلبه الصياغة الشعرية،أو الموقف الذي يريد الشاعر توظيفها فيه:

«الاقتباس تضمين النثر أو الشعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما،ويجوز أن يغير في الأثر المقتبس قليلا».[1]

وحين نواجه شعر محمد العيد نجد أنه قلما تخلوا قصيدة له من توظيف كلمة قرآنية،أو اقتباس معنى وارد في آية من الآيات،وما أصعب الأمر عليه أن ينفلت من التأثيرات القرآنية وهو كما يقول عنه سعد الله«أن صلة الشاعر بالدين كانت أقوى من أن تقاوم،وأوضح من أن تكون محل مناقشة،وقد تواترت الأخبار عن عارفيه وتلاميذه وأصدقائه أنه كان تقيا ورعا في مظهره وسلوكه،كما أن ما لدينا من شعره يدل على أنه كان يستلهم كثيرا من خواطره وأفكاره من رصيده الديني»[2] .

وما يؤكد هذا الحكم ما نسوقه من أشعار في ديوانه،وما يغلفها من مسحة قرآنية ،يقول محمد العيد في قصيدة في(أذن الشرق) سنة 1936:

وقعدنا مع الخوالف نخزى   بضروب من الأذى ونُكَادُ
إن أفكارنا تحاك الغشاوا   ت عليها وتضرب الأسدادُ[3]

فمن كانت صلتة بالقرآن قوية مستحكمة يذهب مع كلمة الخوالف إلى قوله تعالى: «وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين،رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون»[4].

كما ذهب مع كلمة الغشاوات إلى قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم غشاوة ولهم عذاب عظيم»[5].

وهذه المفردات القرآنية التي استعملها محمد العيد ليست تقريرية فهي تتجاوز مدلولها الوارد في القرآن الكريم خصوصا إذا عرفنا المناسبة والظروف التي ألقى فيها القصيدة،وهو يرثي

---

1 - أمين أحمد،والجارم علي: البلاغة الواضحة ط 17 دار المعارف بمصر،1968،ص270.

2 - سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص100.

3 - العيد محمد:الديوان،ص118.

4 - سورة التوبة: الآيتان 86-87.

5 - سورة البقرة: الآية 7.

لحال الأمة العربية مشرقا ومغربا،و يلقي باللائمة على شعوبها لتقاعسها عن طلب العلم وتحقيق المجد.

كما نهل محمد العيد من حوض قصص الأنبياء في القرآن الكريم موظفا ذلك بطريقة ذكية تلائم المقام وهوحاذق في ذلك كما يرى سعد الله:« والشاعر لحذقه في الاقتباس لا يأتي به إلا عندالضرورة،ولا يسوق المعنى الديني في ثوبه الشعري إلا إذارأى الموقف يتطلب ذلك»[1].

يقول في قصيدة(بين الشك والتشكي) سنة 1933 مقتبسا من قصة يوسف عليه السلام:

وطني الذي هموا به و دليله   كدليل يوسف ثوبه المقدود

فهو مقتبس من معنى الآية الكريمة «فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم»[2].

ويقول في قصيدة (أيها الرافعون القصور) سنة1934:

فشا الجوع واشتد عسر المعاش   وعادت سنو يوسف الغابرة

إذا أصبح الناس غُلفَ القلوب   فما تنفع الأرؤس الحاسرة[3]

فالبيت الأول فيه إشارة إلى قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام« ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون»[4].

أما البيت الثاني ففيه إشارة إلى قوله تعالى:«وقالوا قلوبنا غُلفُ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون»[5].

ويضيف الشاعر مستلهما من قصة يوسف عليه السلام في قصيدته المطولة (من وحي الثورة والاستقلال)

زف البشير إليه نصره   من بعد عدوان أطال فأضجرا

حيا بها كقميص(يوسف)وجهه   فرأى كـ(يعقوب) الضياء وأبصرا[6]

1- سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص27.

2- سورة يوسف:الآية 28.

3- العيد محمد:الديوان،ص250-253.

4 - سورة يوسف:الآية 28.

5 - سورة البقرة: الآية 88.

6 - العيد محمد:الديوان،ص445.

وفي البيتين تضمين لمعنى قوله تعالى: « فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون»[1].

وهو اقتباس في منتهى الروعة والجمال،فإن فرحة الشعب الجزائري ببشارة الاستقلال لا تقل عن فرحة يعقوب عليه السلام المزدوجة بعودة البصر إليه،وأوبة يوسف بعد زمن طويل.

هذا قليل من كثير مما يحمله ديوان الشاعر من معاني القرآن الكريم،التي تركت بصماتها واضحة جلية على أشعاره،وأكسبتها أصالة وعمقا،وطبعتها بطابع القوة والجزالة.

و إن عيب على محمد العيد أنه« كان يسرد اللفظة ويتركها على معناها كما هي في السياق القرآني»[2]،و لم يكن يفجّرها لتحمل دلالات إيحائية بعيدة عن هذا السياق،نقول إن محمد العيد جاء في عصر كان الشعب الجزائري فيه في حاجة ماسة إلى الأخلاق والحرية والخبز،وليس بحاجة حتى إلى الشعر بحد ذاته،لذا سخر شعره لهذه الغايات أساسا ،فلم يكن الشعر عنده ترفا فكريا فهو «يهدف في أكثر ما يقول إلى غاية دينية واضحة »[3].

---

1 - سورة يوسف:الآية 96.

2 - بري حواس: شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم،ص405.

3 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص100.

II – اللغة والأسلوب:

من المصطلحات التي شاعت في النقد الحديث،وشغلت النقاد مصطلح التشكيل في الشعر.وتعد هذه الظاهرة من الظواهر العامة التي يحرص عليها في دراسة القصيدة الحديثة للرفع من مستوى الشعر«فالأساس القوي الذي تقوم عليه القصيدة العربية الحديثة ويمنحها القيمة الفنية اللائقة بها هو تشكيلها تشكيلا مناسبا ونعني بذلك الإطار الذي يستعار لها في سبيل الكشف عن قيمتـــها ومضمونها »[1].

وعلى هذا الأساس فإن معنى التشكيل في الشعر هو «الأدوات التي يتألف منها المعمـــار الأدبي»[2].

من خلال القولين السابقين ندرك أن مفهوم التشكيل في الشعر لا يخرج عمـــا اصـــطلح عليه في النقد القديم بالشكل والمضمون أو المبنى والمعنى،وكل ما ارتبط بهمـــا« وللتشـــكيل في القصيدة الحديثة وجهان،أحدهما خارجي والآخر داخلي،فالتشكيل الخارجي يعني بناء القصيدة بناء متلائم الأجزاء ... أما التشكيل الداخلي فعناصره متنوعة وعديدة أبرزها عنصرا الصـــورة والموسيقى»[3] . ونود في هذا الجزء التعرف على أبرز عناصر التشكيل الشعري عند محمد العيد آل خليفة وهي اللغة،الأسلوب،الصورة الشعرية، والموسيقى.

1- اللغة: قبل التطرق إلى اللغة الشعرية عند محمد العيد، يجدر أن نشـــير إلى مـــدلول ومفهوم اللغة الشعرية بصفة عامة ذلك لأن اللغة هي البوابة التي يدلف منها إلى عـــالم الـــنص الرحب،وأن أي فهم له لابد أن يتم بالقراءة الصحيحة لمعجمه،الذي لا يعدو أن يكون إلا«نتاج تراكم وتحصيل لعدد كبير من النصوص»[4] هذه النصوص تخزنت في ذهن الأديب ثم تفاعلـــت وتمخضت لينتج عنها نص ما.

وإذا كانت اللغة بالمفهوم العام،كما يرى ابن جني« حد اللغة أصوات يعبر بها كل قـــوم عن أغراضهم»[5].

---

1 - الحاوي إبراهيم:حركة النقد الحديث المعاصر في الشعر العربي ط1 مؤسسة الرسالة،بيروت 1984،ص208.

2 - المقالح عبد العزيز:الشعر بين الرؤيا والتشكيل،ص 193.

3 - الحاوي إبراهيم: المرجع نفسه،ص207.

4 - السد نور الدين:الأسلوبية وتحليل الخطاب،ص97.

5 - ابن جني:الخصائص،نقلا عن حماد أحمد عبد الرحمان:العلاقة بين اللغة والفكر،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، مصر1985،ص18.

أو هي وسيلة أو «أداة للتواصل»[1] فإن اللغة الشعرية كما يعرفها العقـاد هـي اللغـة التي«بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه، ولو لم يكن منه كلام الشعراء.»[2].

ومن زاوية أخرى فإن وظيفة اللغة في العمل الشعري«لا تقتصر على المعـاني الذهنيـة بدلالاتها المعجمية المحددة فحسب، وإنما مهمتها الأولى أن تثير الأحاسيس والمشاعر لدى المتلقي بصورها وظلالها.وتلك هي الوظيفة الحقيقية للفظة في التعبير الأدبي، وهو ما يميزها حقـا عـن وظيفة اللفظة في التعبير العلمي الذي يهدف إلى تأدية المعنى المجرد بدقة ووضوح»[3].

وبناء على هذا فإن اللغة تكون إما وسيلة لبلوغ غاية وهي المعنى، وإما أن تكون وسيلة وغاية في حد ذاتها وهذا في العمل الأدبي، ولهذا فهي تقوم بوظيفتين أساسيتين، إما أن تكـون أداة لنقل الحقائق العلمية يراد من خلالها التوصيل والتبليغ، ولكنها إضافة إلى ذلك قد تـؤدي وظيفة انفعالية عند التعبير عن العواطف والأحاسيس، وفي هذه الحالة تكون غاية في حد ذاتها يرقى بها أصحابها إلى منزلة فيها مهارة وبراعة، وخصائص جمالية تستروح بها النفوس وتتلـذذ بها الآذان.

وهذه المفاهيم المرتبطة باللغة الشعرية ليست جديدة فمنذ القديم أكد الباحثون في نشأة اللغة وتطورها أن «اللغة والسحر والشعر ظواهر مرادفة ومتساندة في حياة الإنسان ارتبطـت ببعضها منذ النشأة الأولى ارتباطا وثيقا»[4].

وقد لاحظ مصطفى مندور الارتباط الوثيق بين طبيعة اللغة وعلاقتها بالشعر في قولـه: «لعل الاستخدام الشعري للغة هو أقرب الاستخدامات من طبيعتها، ولسنا نرى الشعر ضـربا من الإيقاع الموسيقي فحسب، إنه خلق لغوي»[5].

---

1 - محمد ناصر بوحجام:أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث.نقلا عن: بيطام مصطفى:الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي(1954-1962) دراسة موضوعية فنية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1998،ص322.

2 - العقاد عباس محمود: اللغة الشاعرة،نقلا عن بيطام مصطفى:المرجع نفسه،ص323.

3 - ناصر محمد:الشعر الجزائري اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص 281.

4 - الورقي سعيد:لغة الشعر العربي الحديث مقدماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية،دار النهضة العربية،بيروت ط3 1984،ص62.

5 - مصطفى مندور:اللغة والحضارة.نقلا عن: الورقي سعيد:لغة الشعر العربي الحديث مقدماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية،دار النهضة العربية،بيروت ط3، 1984، ص63

أما الدكتور غنيمي هلال فيرى في علاقة اللغة بالإبداع الأدبي أنه«إذا كان العمل الأدبي - بعامة - يتوقف على الدقة في الصياغة فإن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائه...وذلك أن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيحاء بالمعاني في لغتـــه التصويرية الخاصة به»[1].

تلكم هي أهمية اللغة ودورها كبير في الشعر، فإذا كان الشعر يتكـــون مـــن العناصـــر الآتية:الفكرة والعاطفة والصورة والأسلوب، فـــإن اللغـــة هـــي الأداة الفنيـــة لبنـــاء هـــذه العناصر،وهي«مجموعة من الألفاظ تحمل خصائص يمكن أن تتغير من شاعر الآخر في مصدرها المستقاة منه،وفي درجة قوة معانيها،وفي تجاورها أي في التراكيب مما يـــؤدي إلى مـــا يســـمى بالأسلوب»[2].

ونظرا لأهمية اللغة و دورها في الحكم على الشعر إيجابا وسلبا رأيت أن أقف على هذا الجانب الفني الهام من شعر محمد العيد، متتبعا بعض الخصائص التي تميز لغته الشعرية:

أ- الطابع التقليدي:

مما لا شك فيه أن اتجاه محمد العيد الأدبي، هو اللغة البيانية القديمة وقد استطاع بفضـــل تكوينه العربي الإسلامي أن يملك ناصيتها ويروض قوافيها،وهو يعد من القلـــة القليلـــة الـــتي استثمرت التراث الأدبي واقتدت به في أساليبه البيانية الرائعة،يقول ناصر محمد «والعجيـــب في الأمر أن أغلبية الشعراء في هذه المرحلة لم يستطيعوا استثمار التراث الأدبي والإقتـــداء بـــه في أساليبه البيانية الرائعة...و لا يمكن أن نستثني من هذا الحكم سوى بعض الممتازين مثل محمـــد العيد»[3].

والواقع أن الإنتاج الأدبي – ومنه شعر محمد العيد- المصوغ باللغة الفصيحة المتحـــررة من الركاكة والتكلف،والقيود اللفظية التي طبعت أدب تلك المرحلة هذا الإنتاج«يعد دفاعـــا علميا عن اللغة وقدرتها على الوفاء بالتعبير عن كل ما هو جدي في الحياة،وهذا الدفاع العلمي لا يقل شأنا – إن لم يزد – عن الدفاع المباشر،ويعد ذلك من أدب المقاومة لمحاولات القضـــاء على لغة العرب ومحاربة وحدتهم»[4].

---

1 - هلال محمد غنيمي:النقد الأدبي الحديث،ط1،دار العودة بيروت،1982،ص408.

2 - الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص363.

3 - ناصر محمد: الشعر الجزائري اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص281.

4 - خضر عباس:أدب المقاومة،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1968،ص82.

والمتتبع لديوان محمد العيد يلاحظ ارتباطه بالمعجم اللغوي للشعر العربي القديم،حتى وإن كانت الموضوعات التي يعالجها حديثة. ومن أمثلة الشعر الذي يشبه معجم القصـــيدة القديمـــة بكل خصائصها الفنية قوله في قصيدة (يا فتية العلم شدوا العزم):

اليوم أسدي على نول من الأدب مطارفي من خيوط الشمس للشهب

اليوم أهدي تحياتي وموعظتـــي إلى العباقـــرة الصيابـــة النخب

النازلين كقطر الغيث منسكبـــا في ظل قطر لهم بالبشر منسكب

الزاحفين لغارات النهى طلبـــا والجامعين عليها الهمّ في الطلب[1]

فالمتأمل لكثير من الكلمات التي وظفها الشاعر هنا يدرك أنها كانت متداولة في قصائد أبي تمام،والمتنبي وغيرهما مثل(الشهب،مطارفي،خيوط الشمس)هذا بالإضافة إلى القـــدرة علـــى التصوير التي تجلت في التشبيه المفصل(تشبيه العبـــاقرة بقطـــر الغيـــث) ،وفي طـــرق تحســـين الكلام(كالتصريع) في البيت الأول، والجناس بين(قِطر،قُطر) بالإضافة إلى جزالة وقوة الألفـــاظ مثل(العباقرة،الصيانة،النازلين،الزاحفين).

ومن ملامح تقليدية اللغة عند محمد العيد طريقة الاستهلال في بعض قصائده،التي بدأها على شاكلة امرئ القيس في مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يقول محمد العيد في قصيدة(تحية الشهاب للشباب):

خليا عنكما حديث احتجابي عرجاني على العلا عرّجاني

اركبا بي النجاح وخوضـــا بي عباب الإصلاح فهو عبابي

واطلبا بي رغائب الشعب إني في سبيل العلى وقفت طلابي[2]

فهو يخاطب صاحبيه الحقيقيين أو المفترضين كما جرى ذلك التقليـــد بـــين الشـــعراء القدامى.

وحين يستلهم محمد العيد من الشعر العربي القديم،يستروح نسائم التراث بملكـــة فنيـــة كبيرة لنتأمل قوله في قصيدة(استوح شعرك):

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص231.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه ،ص87.

من فيكم يحيى خلالا أربعــا يحيى الجزائر بالخــلال الأربــع
صدق(العتيق)وعزة(الفاروق) في حلم(ابن عفان)وعلم الأصلع[1]

فهو اقتباس من قول أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم الخليفة العباسي حيث يقول:[2]

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

أما أهم ظاهرة من الظواهر اللغوية عند محمد العيد،فهي منبعــه القرآني،والــذي يمــد نصوصه بالكثير من التضمينات القرآنية،في شكل تحويلي إلى جمل قرآنية ذات دلالات عميقــة أحيانا وفي شكل ألفاظ بعيدة عن مفهوم التضمين المتعارف عليه،وقد تم الحديث عن هذا الأمر في المبحث السابق من هذا الفصل.

وهكذا نستنتج أن العناية بالقاموس القديم من طرف محمد العيد،وباقي شعراء الإصلاح عملية مقصودة،وهي شكل من أشكال المقاومة نظرا لما أصاب اللغة العربية من تدمير على يــد المستعمر،«فشعراء الإصلاح باعتبارهم رجال علم وفكر ديني إصــلاحي رأوا في اللغــة أمــرا مقدسا،لأنها لغة القرآن،فالتجديد فيها،أو الخروج عن مقاييس القدماء أو الثورة على قوالبها يعد خروجا على المقدسات»[3].

ولقد كانت المرحلة التي عاشها محمد العيد وأمثاله،مرحلة بعث، لاقوا خلالها كثيرا من المحن المتعلقة بمصير هويتهم كغيرهم من الشعراء العرب،مما جعلهم يتمسكون بقوة بكــل مــا يشدهم نحو تراثهم ويذكرهم بأجدادهم،فكان «الأسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة بني العرب،كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالإجلال والتقديس فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب»[4].

ب- السهولة والبساطة:

يقول رمضان حمود في شأن اللغة«لا يسمي الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها، بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهــرة الباســقة لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امرئ القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين»[5].

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص149.

2 - الرفاعي أحمد:الشعر الوطني الجزائري(1925-1945)،ص202.

3 - بوقرورة عمر:الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث1945-1962،منشورات جامعة باتنة،(دت)،ص195.

4 - الدقاق عمر:الاتجاه القومي في الشعر العربي،ط3 جامعة حلب،سوريا 1977،ص452.

5 - رمضان حمود:بذور الحياة،طبعة تونس 1928،ص125.

وقال لينين لممثلي المنظمات الشيوعية لشعوب الشرق سنة 1919: «لكي تصـــلوا إلى قلوب الجماهير عليكم أن تتحدثوا إليها باللغة التي تفهمها»[1].

وعلى هذا فاللغة مستويات، كما هو الشأن بالنسبة للناس،فاللغة التي توصِل إلى عامـــة الناس تختلف عن اللغة التي توصِل إلى رجال الفكر والعلم.إذا كان الموضوع يفرض طبيعة اللغة التي يعبر بها عنه فإن«الفئة التي يتوجه إليها الموضوع تفرض على الشاعر أن يختار لموضوعه هذا لغة تجعله مفهوما، لأنه إذا كان المفكر يريد لأفكاره أن تصل إلى الآخرين فلا بد له أن يضـــع هؤلاء الآخرين باعتباره وهو يصوغ أفكاره»[2].

وإيمانا منه برسالة الشعر في معالجة قضايا وطنه وأمته،تحرى محمد العيد اللغـــة الســـهلة البسيطة،والمعاني الميسورة المأخذ،والصور القريبة المنال،والجمل السهلة التراكيب،المرتبة العناصر فقارئ شعره في الغالب لا يحتاج إلى قاموس لغوي لفهم الألفاظ والمعاني،ولكن هذه السهولة لم تكن حائلا دون جمال شعره،وقوة تأثيره«وإذا كانت لغة محمد العيد أميل إلى الجزالـــة لفظـــا وتركيبا فإنه لم يكن يميل إلى الغريب من اللغة إلا إذا وقع في التركيب لفظ يناسب المكان»[3].

وهذه السمة ليست خاصة بمحمـــد العيـــد وإنمـــا يشـــترك فيهـــا جميـــع الشـــعراء الإصلاحيين«والذي يلاحظ في لغة الشعراء الإصلاحيين هو ما تمتاز بـــه مـــن بساطة،ويســـر وسهولة،ومرد ذلك يعود فيما نحسب إلى أسباب منها:أن الشعراء الإصلاحيين بحكم رؤيتـــهم التقليدية للغة لم يحاولوا أن يتعاملوا مع اللغة تعاملا غير عادي باستخدام الرمز»[4].

وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى هذا أثناء دراسته لشعر محمد العيد فقال: «إنك تقرأ شعره فلا تحتاج معه إلى قاموس ينجدك في تفسير الغامض من الألفاظ،ولا تحتاج إلى كد ذهني للوصول إلى ما يريد من المعاني،فهو شعر قريب من النفس لبعده عن التكلـــف مـــن نـــاحيتي الأسلوب والمعنى... »[5].

ومن مظاهر البساطة في شعر محمد العيد آل خليفة هذه الأبيات من قصيدة (ثورة بنت الجزائر)،التي يتوجه فيها إلى المرأة لتحث الخطى هي الأخرى وتساهم في تحرير البلاد:

---

1 - دكروب محمد:الأدب الجديد والثورة،ط3،دار الفارابي،بيروت،لبنان1990 ،ص52.

2 - دكروب محمد:المرجع نفسه ، ن ص.

3 - دوغان أحمد:شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1989،ص29.

4 - ناصر محمد:الشعر الجزائري اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص287.

5 - سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص213.

ساهمي في الجهاد، جند الجهاد وأعدّي الفــدا لنصر البلاد
يا فتاة البلاد شعبك نــادى فاستجيبي بعزمــة للمنادي
كيف يرضى الجمود من كان حيــا ليس يرضى الجمود غير الجمــاد[1]

ثم يتوجه بالخطاب إلى الجنسين معا لمواصلة الثورة قائلا:

فلنثر ثورة على الظلم كبــرى ولنحطم سلاسل الأقيــاد
ولنقم من رقادنـــا،فهو عــارٌ هل يفيد الرقاد غير الكساد
ولنصح صيحة اللبوءات في الغا ب لنحظى بحرمة الآســاد[2]

فالذي يتأمل هذين المقطعين من القصيدة،لا يجد كلمة واحدة غريبة تدفعه إلى الاســتعانة بالقاموس،ولا جملة فيها تقديم أو تأخير يحول دون فهم المعنى المراد،ولا صورة بيانية مجنحــة،ولا رمزا غريبا،ولكن هذا كما يرى أبو القاسم سعد الله: «لم يحل دون نجاحه (الشاعر) ولا سيما في المجتمع الذي كان يلقيه على سمعه،فهو مجتمع بسيط ساذج،ولعل فيه التلاميذ الصــغار،والكهول الذين لا يقرؤون و لا يكتبون والشيوخ الذين ليس لهم حظ من العلم إلا حفظ القرآن وبعــض الأحاديث والمتون القديمة»[3] .

فأدب محمد العيد هو أدب المواطن الاجتماعي البسيط،العامل المضطهد الفقير،المناضل في السر والعلن الذي يعمل لأجل قضية وطنه،وليس أدب شعراء البلاط والقصــور الــذين يقــول عنهم مالك حداد: «إن شعراء البلاط والقصور قد خانوا المثل الإنساني الأعلى الذي يزعمــون أنهم يمثلونه،كما خانوا الشعر الذي يدعون أنهم حملة لوائه»[4].

2- الأسلوب: لإدراك ما هو جوهري في النص الأدبي بطريقة علمية دقيقة ظهر خــلال النصف الأول من القرن العشرين جماعات من الدارسين قاموا بتآليف عديدة حول مــا يســمى بالأسلوب بالمفهوم العام،لكن مضامين هذه المؤلفات معقدة نابعة مــن رؤى مختلفــة المآكــل والمشارب،وبسبب اختلاف المصادر ظهرت اتجاهات متعددة في الأسلوبية،والأسماء التي تتصــدر هذه البحوث:

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص430.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه ،ن ص.

3 - سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص214.

4 - حنا مينة والعطار نجاح:أدب الحرب،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق 1976،ص210.

«معروفة جيدا (كـــارل فوسلر،وليوســـبتشر،وهلموت هاثفيلد،وبيرجيرود،ودامســـوا ألونسو،... وهم يستقون جميعا من ف.ديسوسير من تفريقه الذي أصبح الآن كلاسيكيا بـــين اللغة والكلام»[1].

وجاء بعد المجموعة السابقة كتاب كثيرون،شكلوا مدارس كان هدفها دراسة لغة الإبداع الشعري،وطرق التعبير فيه يقول (دامسو ألونسو) أحد رواد هذه المدارس: «الأسلوب هو الهدف الوحيد للنقد الأدبي،والرؤية الحقيقية لتاريخ الأدب،يكمن في تفريق وتقـــويم،وربط وتسلســـل الأساليب الخاصة»[2].

ومن هنا جاءت الأسلوبية،وهي بالتأكيد جديدة في اللغة العربية وهي مشتقة من كلمـــة (أسلوب) التي تعني في معناها العام طريقة،أو فن الكتابة،وتكون الأسلوبية إذن دراسة الأســـلوب الأدبي.

فما هو الأسلوب الأدبي في نظر هؤلاء الدارسين وأمثالهم؟

يقول بوفون«الأسلوب هو الرجل ذاته»[3]،وهذه نظرة تتجاوز الإطار اللغـــوي للـــنص كدراسة اللغة،والتراكيب والصور،إلى صاحبه فهي نظرة تعطي بعدا نفسيا للأسلوب وتجعـــل الدراسة تتجه نحو صاحبه لمعرفة شخصيته والعوامل المؤثرة في نفسيته.

يقول ريتشاردز أن:«الطريقة التي يستعمل بها الشاعر الألفاظ هي سر الشاعر نفســـه،ولا يستطاع تعلمها،فالشاعر يستطيع أن يستعمل الألفاظ استعمالا ناجحا،ولكنه لا يدري كيف تتم هذه العملية»[4].

وتذهب (اليزبيت درو) إلى «أننا نقوّم القصيدة بالقدر الذي نحس فيه بصوت الشـــاعر الخاص وهو يخرج الألفاظ مخرجا يجعل اللغة معبرة عن حقيقة نفسه في اللحظة الـــتي يكتـــب فيها»[5].

---

1 - هوجو مونتين: ،(الأسلوب و الأسلوبية) ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم مجلة الفيصل السعودية عدد 109،السنة 10، مارس أفريل 1986،ص41.

2 - هوجو مونتين: المرجع نفسه، ن ص.

3 - م ن ،ص42.

4 - الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص374.

5 - الشيخ صالح يحيى:المرجع نفسه،ص374.

أما (رولان بارث) فيقول عن الأسلوب: «إن الأسلوب هو الطريقة التي يتم من خلالها تعبير الكاتب عن أفكاره،أي كيفية التشكيل اللغوي الذي أنجز بواسطته الكاتب أفكاره ورؤاه»[1].

وإذا كانت هذه نظرة النقاد والشعراء الغربيين إلى الأسلوب فما هي نظرة النقاد العرب إليه؟.

يرى مصلوح سعد أنه مادامت اللغة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير فإن الأسلوب« يمكن تعريفه بأنه اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين،ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة».[2]

أما حسين محمود عارف وآخرون فيرون أن الأسلوب هو«طريقة التعبير وخصائصه»[3].

من خلال التعاريف السابقة نصل إلى إن الأسلوب هو الإطار الذي يصب فيه الشاعر أو الكاتب أفكاره،وبالتالي فالأسلوب قضية خصوصية،إذ لكل شاعر أسلوبه الخاص،ومميزاته التي يمتاز بها سواء في اللفظة أو في التركيب،والأسلوب كما نعرف ينقسم إلى ثلاثة أقسام،الأسلوب العلمي،والأسلوب الخطابي،والأسلوب الأدبي،وهذا الأخير هو هدفنا في هذا الموضع ومن مميزاته أن« الجمال أبرز صفاته،وأظهر مميزاته،ومنشأ جماله ما فيه من خيال رائع،وتصوير دقيق،وتلمس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء،وإلباس المعنوي ثوب المحسوس،وإظهار المحسوس في صورة المعنوي»[4].

ونحن إذا تعرضنا لأسلوب محمد العيد،فإننا نجده سهل اللفظ،بسيط التعبير،سليم التراكيب،واضح الفكرة،قريب الصورة،فهو أسلوب،متأثر بتربية الشاعر ونشأته وظروفه،وظروف وطنه لأن الحياة الأدبية بجميع جوانبها تتفاعل مع الظروف الاجتماعية والسياسية وتتأثر بها،لهذا لم يكن أسلوبه من الأساليب الممتازة الرفيعة،ولا من الأساليب الساقطة،فهو كغيره من شعراء الجزائر أقرانه اختاروا النمط:

---

1 - السد نور الدين:الأسلوبية وتحليل الخطاب،ص29.

2 - مصلوح سعد: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية،عالم الكتب،(دت)،القاهرة،مصر،ص37-38.

3 - حسين محمود عارف ومحمد علي حسن:دراسات في النص الأدبي،العصر الحديث،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،ط4،الإسكندرية 1998 ،ص8.

4 - الجارم علي وأمين مصطفى:البلاغة الواضحة ،ص13.

«الأوسط الذي ارتفع عن الساقط السوقي»[1] فلم يرق أسلوبه إلى الأساليب القوية الجزلة،ويعود ذلك للتأثير السلبي للبيئة الثقافية الوطنية، وترديها بسبب سياسة الاستعمار،وضعف الحركة النقدية،ومتطلبات الحالة الراهنة التي جعلت الشعراء ينظرون إلى وظيفة الشعر ورسالته«فلقد كان الشعراء آنئذ يكتبون لجمهور الشعب،ويستخدمون الشعر أداة من أدوات الإصلاح،فالشاعر منهم إنما يتوجه بعمله الشعري إلى الغير لا إلى نفسه...ومن ثم فهو يحاول أبدا أن يكون واضحا في ألفاظه ومعانيه،يتوخى البساطة المتناهية في الألفاظ والتراكيب»[2].

وقد أكد هذه الحقيقة محمد ديب«في قلب كل كاتب حق،وكل فنان صادق تكمن رسالة وطنية لا تقوم له قائمة بدونها»[3].

ويضيف: «إن كتابنا الجدد قد توصلوا إلى حقيقة أكبر عندما جعلوا من المسالة الوطنية المضمون الإنساني والاجتماعي لآثارهم»[4].

وعلى هذا الأساس فإن الأسلوب في نظر محمد العيد أو الشكل الشعري الذي اختاره هو موقف الثبات من أحداث الواقع الذي فرضه الاستعمار «والذي يريد أن يستجيب إلى أشكال الثبات في الواقع فإنه يلوذ – أدرك أو لم يدرك – بأشكال الثبات العمودية في الشعر،والعكس صحيح.إذ من يتمرد على الأولى لا بد أن يتمرد على الثانية »[5].

فاختار محمد العيد الثبات على القيم الوطنية،وبالتالي الثبات على شكل الموروث الذي يغذي هذه القيم كشكل من أشكال الأصالة.

وبناء على هذا فإن الدارس لشعر محمد العيد آل خليفة والمتمعن في أسلوب نظمه للشعر يمكنه أن يقف على الخصائص التالية:

أ- **المباشرة والتقريرية:** المعروف عن الشعر أنه من الفنون الجميلة التي تعتمد على كثير من الأدوات الفنية التي تستمد منها قيمتها كالرمز والموسيقى والصورة الشعرية،وإذا رجعنا إلى شعر محمد العيد- من باب الإنصاف- لا نقول إن شعره يخلو من هذه الأدوات،وإنما هو كما

---

1 - الرفاعي أحمد:الشعر الوطني الجزائري 1925-1954،ص204.

2 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص287.

3 - مينة حنة والعطار نجاح:أدب الحرب،ص199.

4 - مينة حنة والعطار نجاح:المرجع نفسه، ن ص.

5 - المقالح عبد العزيز،الشعر بين الرؤيا والتشكيل،ص198.

يرى محمد ناصر له مستويان من الأسلوب«بل إننا نلحظ فرقا جليا بين لغة النصوص التي كتبها محمد العيد تحت إلحاح المشاعر الذاتية الخالصة،وبين لغة تلك النصوص التي يقف فيها أمام جمهوره في مناسبة أو عيد»[1].

فالنصوص الأولى تخطى فيها محمد العيد الدلالة المعجمية للألفاظ التي وظفها،وفجر فيها أبعادا جديدة كما هو الشأن في قصائده الذاتية(أين ليلاي،يا ليل،يا هزاري،يا فؤادي،يا بحر)[2]

ولننظر إلى هذه القطعة من قصيدته (يا ليل) التي ابتعدت فيها كل الكلمات عن تقريريتها، وحملت إيحاءات،وإشارات لا نجد مثلها إلا عند الرومانسيين أو الرمزيين:

يا ليل طلت جناحا　　　متى تريني الصباحا
أرى الكرى صدعني　　　بوجهه وأشاحا
كأنني رهن سجن　　　لم أرج منه سراحا
كان تحتي شوكا　　　يشوكني أو رماحا
أبيت وسنان مضنى　　　أرجو المنى أن تتاحا
ضمآن أنشد ماء　　　يشفي الغليل قراحا[3]

وهل الليل إلا الاستعمار؟وهل هذا الكرى إلا الحيرة والقلق التي تقض المضاجع بسبب التفكير في كيفية الخلاص،وهل السجن إلا الوطن الذي أصبح مغارة تثير الخوف؟وهل أمنية الشاعر وضمأه إلى شيء غير الحرية والاستقلال؟.

أما بقية نصوص الشاعر التي كان يقف فيها أمام جمهوره فقد تميزت بالتقريرية والمباشرة والوصف،والتشخيص للواقع الذي يعمل الشاعر على تغييره،ومن ثمة فإن المواضيع الاجتماعية والسياسية التي كانت محل اهتمام الشاعر فرضت عليه هذا الأسلوب«ومن هنا نرى أن الأسلوب يصبح جزء أساسيا من الموضوع،بل هو العامل الحاسم هنا،سواء في وصول الموضوع إلى الجماهير أم في طمس هذا الموضوع أو قتله إذا صيغ بلغة لا تفهمها الفئة الموجه إليها»[4].

وهذا يعني أنه إذا أراد الشاعر أن تصل أفكاره إلى الآخرين فعليه أن يضعهم في اعتباره ويخاطبهم باللغة التي يفهمونها وقد دعا إلى هذا رمضان حمود قائلا على الشعراء:

---

1 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص283.

2 - أنظر القصائد في الديوان فهي على التتابع:63،54،49،45،41

3 - العيد محمد:الديوان،ص45.

4 - دكروب محمد:الأدب الجديد والثورة،ص56.

«أن يتنازلوا إلى مخاطبة الطبقة الوسطى والسفلى من الأمة،أي العامة التي هي هيكـــل الشعوب ومرجعها الوحيد عند المدلهمات،ويقتدوا بشعراء فرنسا،وأدبائها الكبار إبان انفجـــار الثورة الكبرى... »[1]

وفي هذا المجال يقول أندري جيـــد: «يوجـــد دائمـــا في كـــل مجـــال طريقـــان أو اتجاهان...فهناك الشعر المعاكس (بما لهذه الكلمة من معنيين وهما التـــأملي والمعـــاكس شـــأن المرآة)ويقابله من الجانب الآخر الشعر المباشر.وقد نبعت جميع روائع الشعر العقلي بفرنسا مـــن الاتجاه الأخير أي من الشعر المباشر »[2].

وللدلالة على هذه السمة يكفي أن نورد هذه القصيدة القصيرة التي بعنـــوان (بلادنـــا أسيرة) والتي يصور فيها الشاعر وضع البلاد و أحوال العباد:

أزرى بنا الذل يا خليلي   فهل إلى العز من سبيل؟
بلادنـــا أصبحت ذلولا   أسيرة في يد الدخيل
وحكمنا اليوم شر حكم   وجيلنا اليوم شر جيل
متى نرى قائدا حكيمـــا   يبين عن رأيه النبيل؟
أنرتجي للهدى وصـــولا   ونحن ركب بلا دليل؟
لكن سنسعى برغم هذا   لرد سلطاننا الجليل
لا تحسبـــوا رده بعيـــدا   فإنه غير مستحيـــل[3]

فالقصيدة واضحة اشتملت على استعارة في البيت الأول،وعلى تشبيه بليغ،و لم يخـــرج الشاعر عن الأساليب القديمة في بقية الأبيات.

ب– شيوع النبرة الخطابية:

نقصد بالنبرة الخطابية شيوع أسلوب معين في شعر محمد العيد،وهذا الأسلوب يحمل من سمات الخطابة وخصائصها أكثر مما يحمل من سمات الشعر،مع العلم أن هذه الفنـــون الأدبيـــة يميزها عن بعضها البعض ما تحمله من خصائص.

---

1 - رمضان حمود:بذور الحياة،ص56.

2 - مالكولم كولي وبتر روكس:أراغون شاعر المقاومة،ترجمة عبد الوهاب البياتي وأحمد مرسي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط2،بيروت 1994،ص13.

3 - العيد محمد:الديوان،ص347.

فحينما نقرأ قصائد الشعراء الجزائريين عامة،و الكثير من شعر محمد العيد خاصة نشعر أن ما يفرق بينها وبين الخطابة هو الوزن والقافية الملتزمة فقط، فأما ما عدا ذلك فهو من صميم أسلوب الخطابة،حيث تسيطر كثير من العناصر التي توحي بذلك،مثل طابع الوضوح الذي يكتسي القصيدة واستعمال أحرف التنبيه،والمزاوجة بين الأسلوبين الخبري والإنشائي،حيث يكثر الاستفهام والنداء والتعجب والأمر والنهي،وتتعدد أغراضها البلاغية تبعا لحالة الشاعر أو حالة السامعين،ويكثر الاقتباس و التضمين من القرآن الكريم،ومن الحديث الشريف.

ولتوضيح ذلك نسوق هذا النموذج لمحمد العيد من قصيدة ألقاها في حفل الجمعية الخيرية بالعاصمة سنة 1935 يقول:

الحمد لله معطي الحسنيين معـــا	لكل حزب على طاعاته اجتمعـــا
الحمد لله ما في الصالحين أخ	منا أجاب أخا للصالحات دعـــا
آمنت أن عصور الخير مقبلـــة	لا ريب في صدق برق قبلها لمعـــا
يا أيها الناس أنتم في السلالة من	أب وأم فكونوا إخوة شرعـــــا
لا تقطعوا لا تخونوا في معائشكم	ما ألف الله من أنسابكم ورعى
لا تزرعوا الشر فالأيام محصدة	كل امرئ حاصد فيها الذي زرعا
ما بال قوم إليها أخلدوا سفها	آثروا فوقهـــا اللذات والمتعـــا
ما بال قوم على مولاهم اجترأوا	حتى إذا اقتص منهم أعولوا جزعا[1]

إن هذه الألفاظ التي وردت في القصيدة وتكررت أحيانا(الحمد لله،يا أيهـــا،فكونوا،لا تقطعوا،لا تخونوا،لا تزرعوا،ما بال قوم) ألفاظ تناسب خطب الوعظ التي كان الشعب الجزائري في أمس الحاجة إليها في تلك الفترة.

وكما هو معروف فإن لكل ظاهرة أسبابها،وأول أسباب شيوع النبرة الخطابية في شعر محمد العيد هي مواجهة المرحلة التاريخية الصعبة المتمثلة في الاستعمار،الذي وجد الشاعر نفسه في مجابهته - كغيره - منخرطا في الحركة الإصلاحية،هذه المجابهة التي كانت تقتضي أسماع الصوت لكل جزائري ليحدد مسؤوليته من الواقع الراهن.

1 - العيد محمد:الديوان،ص254-255.

وثاني الأسباب هو ارتباط شعر محمد العيد بالمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت تنظمها جمعية العلماء في نشاطاتها الشاملة. «ولقد كانت المناسبات الاجتماعية والأعياد الدينية التي تنظمها الحركة الإصلاحية غالبا،الحافز الأساسي لكتابة الشعر»[1].

ويقول أبو القاسم سعد الله في هذا الجانب«ولعل هذه أبرز ميزة في شعره فإن أكثر من ثلاثة أرباعه كان مرتبطا بمناسبة تاريخية أو اجتماعية أو وطنية»[2].

وقد صدق صديقه محمد البشير الإبراهيمي حين قال: «رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها،وله في كل ناحية من نواحيها وفي كل طور من أطوارها وفي كل أثر من آثارها القصائد الغر والمقاطع الخالدة»[3].

ولكن هذه المناسباتية لم تكن لتؤثر على شاعرية محمد العيد،يضيف سعد الله معلقا على موقف الإبراهيمي من شعر الشاعر: «وإذا كان هذا قول أديب مصلح فإن الناقد لا ينظر إلى شعر محمد العيد على هذا الأساس إذ لا يهمه ما فيه من تواريخ وأسماء ومراحل،ولكن ما فيه من صدق وإخلاص للفن وما فيه من روح بنائية ودفء نفسي »[4].

وفي اعتقادي أن شعر محمد العيد ومعاصريه يجب أن يحكم عليه بالنظر إلى ذاته وملابساته، فلا يراعى في نقده إلا هو نفسه،دون النظر إلى مواكبته تطور الآداب ومسايرة مقتضيات الفن في عصره أو عدم مسايرتها،فظروفه خاصة،و تقييمه يجب أن يكون كما يرى الرومانسيون «الأدب يجب أن يحكم عليه بالنظر إلى ذاته وملابساته،فلا يراعى في نقده إلا هو نفسه،إذا وجد فيه ثمار فإن وجود هذه الثمار يلغي ما قد يوجد به من أشواك(أي المحاسن تزيل مواطن الضعف »[5].

إذن فشعر محمد العيد بمقياس عصره يعتبر حديثا،إذا ما قارناه ببعض ما عاصره كما عبر عن ذلك ابن قتيبة قديما:

---

1 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص290.

2 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص290.

3 - سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه ،ص219.

4 - م ن ،ن ص.

5 - أمين أحمد:النقد الأدبي،موفم لنشر،المؤسسة الوطنية لفنون المطبعية – الجزائر 1992،ص458.

« ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن،ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر،وجعل كل قديم حديثا في عصره»[1].

أما من حيث مستواه فقد سلم من الانحطاط الفكري،ومن ضعف التأليف وأخطاء الإعراب،ومن خلل الوزن الذي تميز به كثير من الشعر في عصره إلى حد بعيد،كما سلم من الوصف الذي أطلقه رمضان حمود على الشعر سنة 1927:«نعم إنك لا ترى في هذه السنين الأخيرة إلا مخمسا ومشطرا ومعارضا ومحتذيا،ومادحا،و هاجيا ومتغزلا و مسمطا أو غير ذلك »[2].

كما يمكن اعتباره جديدا لأنه كان ثورة على الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية التي سادت لوقت طويل،واحتذاؤه النموذج القديم في شكل القصيدة ولغتها وأسلوبها هو نوع من البعث الحضاري الذي لا ينطلق إلا على أسس كما هو شان كل نهضة أدبية.

تلكم بعض الخصائص العامة لشعر محمد العيد،وهناك خصائص أخرى سبق الإشارة إليها في الأجزاء السابقة من هذا البحث،وتبقى خصائص أخرى نشير إليها – إن شاء الله – في دراسة الصورة الشعرية والموسيقى عند الشاعر.

---

1 - ابن قتيبة:الشعر والشعراء ج1، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر،دار المعارف،القاهرة ،مصر(دت)،ص63.

2 - حمود رمضان:بذور الحياة،ص105.

III- الصورة الشعرية:

إن اهتمام النقاد بالصورة الشعرية ليس وليد اليوم أو الأمس وإنما هو قديم قـــدم الأدب والفن،وتعود جذور هذه القضية إلى عهد اليونان حيث ارتبطت بأصول فلسفية،ومن ثم انتقلت الصورة بمعناها الفلسفي إلى العرب مع الفلسفة اليونانية،يقول علي البطل: « لقد سقطت كلمة الصورة ـ بمعناها الفلسفي ـ إلى العرب مع الفلسفة اليونانية،وبالذات الفلسفة الأرسطية حيـــث دعم الفصل بين الصورة والهيولى[1] في هذه الفلسفة فكرة المعتزلة القائلة بالفصل بـــين اللفـــظ والمعنى في تفسير القرآن الكريم،وسرعان ما انتقل هذا الفصل بين اللفظ والمعنى إلى ميدان دراسة الشعر الذي هو رافد من روافد تفسير القرآن»[2].ويرى جابر عصفور مثل هذا الرأي: « ولقد تبلور هذا الفصل بين الألفاظ والمعاني ـ أول ما تبلور ـ في بيئة المعتزلة الذين ألحوا على فكـــرة المجاز وحاولوا من خلالها فهم النص القرآني فهما يتره العقيدة عن كل ما يتعارض مـــع أصـــل التوحيد الاعتزالي»[3].

وفي هذا الإطار دار جدل كبير بين الفلاسفة واللغويين والبلاغيين حول مفهوم الصورة ومصادرها ودورها وأنواعها البلاغية، و« ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعريف الصورة مما جعلها تأخذ دلالات مختلفة»[4] مع العلم أن النقد العربي القديم كان يتناول الصـــورة الشـــعرية ضمن دراسته للأنواع البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية،وسائر أضرب المجـــاز،ولم تكـــن الصورة الشعرية مصطلحا نقديا كما هو الشأن بالنسبة للعصر الحديث.

ويتحدث أبو هلال العسكري عن الصورة الناجحة في ميدان الوصف قائلا: « إن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره لك،فتراه نصب عينيك»[5].

---

1 - الصورة هي الشكل،والهيولى هي المادة،فالمنضدة هيولاها الخشب والغراء،وصورتها هي التركيب المخصـــوص الذي تألف به الخشب والغراء حتى ظهر على هذا الشكل.ينظر البطل علي:الصورة في الشعر العربي حتى أواخـــر القرن الثاني الهجري،هامش الصفحة 15.

2 - البطل علي: الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري،ط3،دار الأندلس للطباعـــة والنشـــر، بيروت1983،ص15.

3 - عصفور جابر:الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،دار الثقافة للطباعة و النشر القاهرة 1974،ص381.

4 - بن غلاب مبروك:الصورة الشعرية عند محمد آل خليفة،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة قسنطينة 1988، ص11.

5 - العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين الكتابة والشعر،ط1،دار الكتب العلمية بيروت 1981،ص128،129.

أما عبد القاهر الجرجاني فيقول في هذا الشأن أن الصورة وصف دقيق للأشـــياء شـــأنه شان تقليد الصناعات الحِرفية أو نحت التماثيل الهدف منه هو إثـــارة الإعجـــاب«فالاحتفـــال والصنعة التي تروق للسامعين وتروعهم والتخيلات التي تهز الممدوحين وتحركهم،وتفعل فعـــلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش أو بالنحـــت والنقر فكما أن تلك تعجب وتخلب وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة، لم تكـــن قبـــل رؤيتها،ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه...كذلك حكم الشعر فيمـــا يصـــنعه مـــن الصور،ويشكله من البدع،ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت،في صورة الحي الناطق»[1].

ويبين ابن سينا وظيفة التصوير في الشعر عند القدامى إذ يقول إن العرب«كانت تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر في النفس أمرا من الأمور تعد به نحـــو فعـــل أو انفعال،والثـــاني للعجب فقط،فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه»[2] .

ونخلص إلى أن مفهوم الصورة عند القدامى هو التصوير الدقيق للأشياء، وهـــي نظـــرة مستمدة من الطبيعة،ومن حدود الخيال العربي القديم الـــذي لم يكـــن في الغالـــب يتجـــاوز المحسوسات،دون التفات إلى المشاعر والأحاسيس لأن الشعراء«لم يتخذوا الصورة الشـــعرية وسيلة تنقل للمتلقين انفعالاتهم وأفكارهم وتجاربهم،وإنما قصاراهم في ذلك أن يصفوا الأشـــياء وصفا أمينا لا أثر فيه للإيحاءات النفسية والتلميحات الرامزة فيه»[3].

هذا هو مفهوم الصورة في النقد العربي القديم، أما مفهومها في النقد الحديث فهو مفهوم جديد،يستمد أصوله من التأثر الناتج عن الاحتكاك بالآداب الغربية،وخاصة بعد الدراســـات النفسية على يد علماء النفس وربطها بالأدب وعملية الإبداع.

وقد احتل مفهوم الصورة الشعرية في النقد الحديث مكان الصدارة في الخصائص الفنية التي يجب توفرها في العمل الشعري،في النقد الغربي والعربي على حد سواء،ففي النقد الغـــربي يقول بول ريفردي، وهو شاعر فرنسي حديث،معرفا الصورة:

---

1 - الجرجاني عبد القاهر(أبو بكر عبد الرحمن 471هـ:أسرار البلاغة،ط1،تحقيق عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف،دار الجيل بيروت 1991،ط1،ص310.

2 - عصفور جابر:الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،ص403.

3 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص464.

«إن الصورة إبداع ذهني صرف وهي لا يمكن أن تنبثق عن المقارنة،وإنما تنبثـق مـن الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة..إن الصورة لا تروعنا لأنها وحشية أو خيالية،بل لأن علاقة الأفكار فيها بعيدة وصحيحة»[1]

أما فرويد فيعرف الصورة الشعرية بأنها: «رمز مصدره اللاشعور، والرمز أكثر امـتلاءا وأبلغ تأثيرا من الحقيقة الواقعة،فهو ماثل في الخرافات والأساطير والحكايات والنكات وكـل المأثور الشعبي»[2].

وعلى هذا الأساس تبقى الصورة الشعرية الوسيلة التي يستخدمها الشاعر استخداما فنيا المراد منه إيصال حالة شعورية انتابته إلى المتلقي، وجعله يشاركه هذا الإحساس،وبهذا تكمـن قيمة الصورة الشعرية في مدى إيفائها بما سبق ذكره وهو ربط المتلقي بالمبدع في حالة شـعورية مشتركة.

ومن هذا المنظور فإن إدراك الصورة في العمل الأدبي عند هؤلاء سيكون صعبا للغايـة يتطلب ثقافة عالية ومقدرة كبيرة على التذوق،وإحساسا مرهفا شـفافا،وهذه عمليـة ترتفـع بالشعر إلى أبراج عاجية يكون عندها بعيدا تماما عن العامة.

أما النقاد العرب فلم يكونوا بمعزل عن التطورات التي حصـلت في المفـاهيم الأدبيـة والنقدية في العصر الحديث ومنها مفهوم الصورة الشعرية. حيث يعرفها عز الـدين إسماعيـل بأنها«تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع»[3]، وهو تعريف لا يختلف عن التعاريف السابقة في جعل الصورة الشعرية عملية ذهنية معقدة.

وبقول الدكتور أحمد كمال زكي: «الصورة على ما نعرف هي لب الشـعر ومنـاط قدرة الشاعر الفنية،وما يصحبها من عرض تقرير قد يكون ضربا من التفكير الواعي أو شـيئا يقتضيه الموقف،و لاسيما إذا كان موضوعيا،ولم يكن عجيبا من أجل ذلك أن يلجـا الشـعراء المصورون القدامى - من أمثال أبي تمام- إلى الحكمة الشعرية من حيث كونها تلخيصا لموقف أو تجميعا لمغزى مجموعة من الصور»[4].

---

1 - إسماعيل عز الدين:التفسير النفسي للأدب،ط4،دار العودة بيروت لبنان 1981،ص70-71.

2 - إسماعيل عز الدين:المرجع نفسه ،ص74.

3 - م ن ،ص66.

4 - زكي أحمد كمال:النقد الأدبي الحديث،أصوله واتجاهاته،الهيئة المصرية العامة للكتاب1973،ص174.

أما عبد القادر القط فيرى أن«الصورة الشعرية هي الشكل الفني الذي تتخـــذه الألفـــاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص،ليعبر عن جانب من جوانـــب التجربـــة الشعرية الكاملة في القصيدة،مســـتخدما طاقـــات اللغـــة وإمكاناتهـــا في الدلالـــة والتركيـــب والإيقاع،والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس،وتميزها مـــن وســـائل التعـــبير الفني،والألفاظ والعبارات مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني،ويرسم بها صوره الشعرية»[1].

ومن خلال هذه التعاريف فان الصورة الشعرية هي الإطار المناسب الذي يســـكب فيـــه الشاعر ما يختلج في نفسه(أعماقه) من أحاسيس وتصورات.أما غنيمي هلال فيتحدث عن صـــور الأسلوب الفنية قائلا: «نقصد بها الصور الجزئية التي ينقل بها الكاتب أفكاره،ويصيغ بها خيالـــه فيما يسوق من عبارات وجمل»[2].

ويقول في موضع آخر معرفا الصورة: «فليست الصورة إلا علاقة بين الشيء و دلالتـــه الصورية في الوعي،وخطأ جسيم أن نخلط بين هذا الوعي والشيء المادي الخارجي»[3].

وهذه النظرة إلى الصورة هي نظرة من زاوية نفسية بحتة.

ويتحدد إبداع الصورة بمدى نجاحها في نقل الفكرة أو الشعور.ونختم التعاريف السابقة بالمفهوم الذي أعطاه عبد الملك مرتاض للصورة: «هي شيء يجنح نحـــو تقريـــب حقيقـــتين متباعدتين»[4] وعلى الرغم من هذا التطور الذي طرأ على مفهوم الصورة الشعرية فـــإن شـــعر الشعراء الجزائريين ومنهم محمد العيد آل خليفة ظل بعيدا عن هذه المفاهيم،ويرجع النقاد ذلـــك إلى عدة أسباب منها أن ثقافة أغلب الشعراء الجزائريين كانت ثقافة عربيـــة خالصـــة تســـتمد جذورها من التراث القديم ومن المدرسة الإحيائية في المشرق«و لم تطعم بالإطلاع علـــى الآداب الأجنبية،و لم تثر بالتجارب العالمية الغنية بخيالها وصورها»[5].

1 - القط عبد القادر:الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر،دار النهضة العربية بيروت 1978،ص435.

2 - هلال محمد غنيمي:الأدب المقارن،دار العودة بيروت 1983،ص182-183.

3 - هلال محمد غنيمي:النقد الأدبي،ص435.

4 - مرتاض عبد الملك: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية")،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991،ص49.

5 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص267.

والسبب الآخر أن أغلب الشعراء الجزائريين نشأوا في بيئة صحراوية بسيطة تركت أثرها على نفوسهم،فجاءت صورهم أشبه بنفوسهم الواضحة البسيطة التي تتميز بالمباشرة والوضوح.

والسبب الأخير هو النظرة الموضوعية التي سيطرت على مواقف الشعراء الجزائريين،والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي دفعتهم إلى تسخير الشعر في سبيل الوظيفة الاجتماعية «ولقد أدرك هؤلاء الشعراء جيدا هذه الوظيفة الاجتماعية للشعر.ومن ثم اعتمد الخيال الشعري لديهم في تجميعه للصور وحشده لها على مراعاة روح الاعتدال والوضوح،وعلى الانصراف إلى التعلق بالمظاهر الواقعية والمكانية،وهي كلها أمور حسية»[1].

هذه الظروف هي التي دفعت محمد العيد إلى تبني الوظيفة الاجتماعية للشعر فقد كانت المقاومة هي السمة المسيطرة على شعره،مقاومة ثقافة الاستعمار،مقاومة الجهل والانحراف،مقاومة الأمراض الاجتماعية الأخرى،ودعوة الشعب إلى النهوض«فلا غرابة إذن وأمام تلك المسؤولية أن تتحول مهمة الشاعر من فنان يخلق الصور ويجري وراء الألفاظ إلى مفكر يرسم الطريق لأبناء أمته»[2].

ولنعرج على ديوان الشاعر محمد العيد لنرى مقدرته على الإبداع والابتكار في تشكيل الصورة،وأول ما يمكن قوله في هذا المضمار أن صوره الشعرية لا تخرج من الناحية الشكلية عن الإطار الذي رسمه القدامى،من تشبيهات واستعارات وكنايات...الخ.

وكانت غايته من ذلك نقل مشاعره ومواقفه نحو ما يعيشه وما يشاهده إلى الشعب الجزائري،ولنتأمل هذا المقطع من قصيدة (استوح شعرك):

والقوم كالأسد الروابض جثم   من حولهم أو كالنسور الوقّع
قل للجزائر وهي أم مرضع   مثل اللبوءة أي أم مرضع
أبناؤك الأشبال فيك تزاوروا   وتزاءروا في الغيل منك بمسمع
قد خانهم فيك الشريك فلم يبح   طيب المناخ لهم وحسن الموقع
أطعمت مكثرة فأطعمت العدى   لا تكثري الإطعام كي لا تطمعي
بوركت من وطن تسامى فالتقى   بالمنتهى في مستواه الأرفع
يحميه شيب كالملائك طيبة   وشبيبة مثل النجوم اللمع

---

1 - الورقي السعيد: لغة الشعر العربي الحديث مقدماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية،ص101.

2 - الورقي السعيد:المرجع نفسه،ص102.

العلم سلطان الوجود فسد بــه من شئت أو ذد عن حياضك وادفع
الجهل أشبه بالغراب فما لــه من مترل غيـر الخـراب البلقــع
الفجر يؤذن بالطلوع فرحبـي بالنور غبّ ظلامـك المتقشـع[1]

الخيال وليد العاطفة،وهو الذي ينتج الصور التي تشيع الروعة في الأدب،ولذلك تتلون الصور بلون العاطفة،وهي في هذا النص مرة يغمرها السرور والتتفاؤل،ومرة حزينة متألمة مطبوعة بواقع الاستعمار المر.ففي البيت الأول تشبيبهان يوحيان بالشجاعة والقوة والتأهب،وفي البيت الثاني تشبيه الجزائر بالأم المرضعة،وباللبوءة القادرة على حماية أشبالها،وفي البيت الثالث تشبيه الشبيبة الملبية للنداء بالأشبال التي تزأر،وسر جمالها الإيحاء بالاستعداد للمستقبل، وفي البيت الرابع كناية فالاستعمار شريك لكنه خائن مستأثر،وفي البيت الخامس استعارة شبهت الجزائر من خلالها بمضيافة أكثرت الإقراء فأطمعت في خيراقما الأعداء،وفي البيت السابع تشبيهان شبه من خلالهما حماة الجزائر من الشيوخ بالملائكة،ومن الشبيبة بالنجوم،وهي صور توحي بالتسامي والترفع،وفي البيت الثامن تشبيه بليغ شبه العلم فيه بسلطان العقول،واستعارة تصريحية شبه فيها الحمى بحياض الماء وفيها تأثر واضح بقول زهير بن أبي سلمى: ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يتق الشتم يشتم[2]

وفي البيت التاسع تشبيه الجهل بالغراب الذي لا يحوم إلا على الأرض،اليباب وهي صورة توحي بقتامة الوضع الثقافي للجزائر إبان الاستعمار،وفي البيت الأخير استعار لفظ الفجر للاستقلال الذي كان الشاعر يراه قريبا وفيها تجسيم للمعنى وإيحاء بالتفاؤل،وهذه الصور في الغالب ترتبط بموجودات حسية وبالتالي فهي تقترب من السطحية،ويعلل أبو القاسم سعد الله ذلك بقوله:«وقد اختلفت الموضوعات التي طرقها في الوصف،ولكنها جميعا تتفق في ظاهرة واحدة هي أن الشاعر وقف حولها كالمصور الضوئي يلتقط المنظور والمحسوس دون أن يتعمق إلى ما في الصورة من أبعاد،بل دون أن يشرك معه هذه الصورة في الإحساس أو يخلع عليها من ذاته ألوان الحب والبؤس أو ألوان الكآبة والابتسام شأن العبقريين من الشعراء و لاسيما شعراء المدرستين الرومانسية والرمزية»[3].وهي الملاحظة نفسها التي نجدها عند عبد الملك مرتاض

1 - العيد محمد:الديوان،ص143-144-145.

2 - الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد):شرح المعلقات السبع(د ت)،ص...

3 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص165.

الذي يرى أن محمد العيد ظل ثابتا في مساره الشعري، وطريقته في بناء الصورة تعتمد علـــى: «اختيار اللفظ وانتقاء العبارة واصطياد الصورة المألوفة لدى القارئ العربي التقليدي»[1].

وهذا الحكم على الرغم من أنه ينطبق على شعر محمد العيد إلى أبعد الحدود لأنه كان يهتم بالموضوعات التي يعالجها بالدرجة الأولى،فقد ارتبط شعره بالحياة الوطنية وكان ســـلاحا ينازل به الاستعمار،ويحث به مواطنيه علـــى اليقظة،والمقاومـــة،أو تـــوجيههم إلى الســـلوك الحسن،على الرغم من ذلك فإنه لم يهمل الجانـــب الجمـــالي فشـــعره يزخـــر بالتشـــبيهات والاستعارات،وهذه السمة لا تخص محمد العيد فحسب بل يشترك فيها جميع شعراء الضاد في عصره.يقول أحمد توفيق المدني في مقدمة كتاب(الثورة في الأدب الجزائري) لصـــلاح مؤيـــد: «وشعراؤنا فوق ذلك كلهم من الشعب،من صميم الشعب،فهم الألسنة الطبيعية التي سجلت أحاسيس الشعب كعدسة مصورة بالغة الإتقان،ليس فيها تنسيق ريشة المصور ولـــيس فيهـــا التغرير ببريق الألوان الزاهية،هي صورة طبق الأصل لا زيادة ولا نقصان».[2]

وبما أن التشبيه كان أفضل صورة عند محمد العيد يقرب بـــه الحقـــائق إلى الأفهـــام ويوضحها بذكر ما يماثلها،فقد كان أكثر الصور تداولا في شعره الذي تغلب عليـــه النظـــرة الواقعية للأشياء،ومن الأمثلة على ذلك قوله في ذكرى المؤتمر الإسلامي:

ويا أملا تألـــق مـــن بعيـــد كمثل النجم آن لك الصعود

ويا شعب اجتنب حرب التعادي وخل اللغو فهولها وقـــود

ولا تيأس من الفـــوز المرجـــى فقد يخضر بعيد اليبس عود[3]

ففي البيت الأول تشبيه مرسل مفصل ذكرت أركانه الأربعة وسر جماله هو الإيحـــاء بالتفاؤل.وفي البيت الثاني تشبيه بليغ حيث شبه اللغو في الحديث الذي يذكي نار الفتنة بالوقود الذي يلهب النار،وجمال الصورة هنا في التحذير الذي يوجه الشاعر لشـــعبه،والبيت الثالـــث تشبيه ضمني،تحدث فيه الشاعر عن النصر المرتقب للشعب،وهو أمر معنوي،وأقام عليه الدليل الحسي وهو اخضرار العود بعد اليبس.

---

1 - مرتاض عبد الملك: (دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي")،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1992،ص52.

2 - مؤيد صلاح:الثورة في الأدب الجزائري،نشر مكتبة الشركة الجزائرية ومكتبة النهضة المصرية بالقاهرة (دت)،ص6.

3 - العيد محمد:الديوان،ص305،303.

ومن تشبيهاته واستعاراته الرائعة قوله في قصيدة يا نفس:

وأغرب خطب هالني خطب موطن   لنا منعته الشمس أسـراب أغرب
كما حبست عنه الرياح وعارضت   له دون سيل القطر من كل مسرب
بأجنحة سـود كـأن خيالهـا   ظلام بليل قاتـم الوجـه غيهب
فيا لك فردوسـا تحـول دمنـة   ويا وحشتا من أغرب فيك تعب
وما أنا إلا طائـر فـوق بانـة   يردد سجعـا خافتـا ذات مغرب
يسر بـه تحت الدجـى متسـترا   ليأمـن رمـي الصائـد المترقب
فلا تحقـري صوتي الرقيق فإنـه   من الشعب كالسلك الرقيـق المكهرب[1]

في هذا المقطع رسم الشاعر صورتين كبيرتين كليتين حزينتين عناصرهما الوطن والشاعر، تتشكلان من صور جزئية ،فالصورة الأولى حالة الوطن الجريح وما حل به من ظلام بسبب فقدان الحرية التي استعار لها الشاعر لفظ أسراب الأغرب ذات الأجنحة السود التي تشبه ظلام الليل (للدلالة على جنود الاستعمار ذوي البذلات السود) ،فحولته إلى ما يشبه القبر،وهي صورة تثير الحسرة والأسى والتشاؤم،والصورة الثانية هي صورة الشاعر الذي تحول إلى طائر فوق بأنة يردد لحنا خافتا حزينا زمن الغروب، يسر به خوفا ليأمن رمي الصائدين،وسر جمال هذه الصورة المركبة أنها تشخص لنا نفس الشاعر الحائرة القلقة التي يطلب منها الشاعر ألا تحتقر صوته،الذي يسري في عروق الشعب كما تسري الكهرباء في السلك،أي أنه يلقى الاستجابة المطلوبة.

وقد كثرت الصور البيانية في قصائد محمد العيد،و اختلفت مصادر بنائها،فمنها ما شكل من مصدر ديني هو القرآن الكريم،ومنها ما شكل من عناصر الطبيعة ومنها ما نحا نحو الرمز.

1- صور مصدرها ديني:

للحديث عن هذا الأمر يجدر بنا أن نسوق هذا القول للدكتور محمد ناصر« فقد حددت الثقافة السلفية منذ البداية الإطار الذي كان الشعراء المحافظون يضعون داخله صورهم الشعرية،هذا الإطار الذي لا يخرج عن التراث في مصادره المعروفة،قرآنا كريما،وأحاديث شريفة،وأدبا عربيا قديما»[2].

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص289-290.

2 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص470.

وبوسع أي دارس لشعر محمد العيد أن يلمس أثر القرآن في جل شعره فقد وقف منــه موقف المقدس لمعانيه المعظم لمبانيه، فقلما تخلو قصيدة من ذلك،وقد تم الحــديث عــن تــأثره بالقرآن في الألفاظ والمعاني،وسنقصر الحديث هنا على جانب الصور.

لقد أدرك الشاعر أن « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن وهــو القاعــدة الأولى فيه للبيان،وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأغراض »[1] كما أدرك قوة علاقة الشعب الجزائري بالقرآن الكريم، فراح يستمد غالبية صوره منه،ومن ذلك حديثه عن وطنــه الأســير وشعبه المضطهد الذي ليس له من يترجم معاناته التي يعانيها إلا صورة سيدنا (يوسف) المظلوم من طرف امرأة العزيز التي اتهمته بهتانا،ولم يكن له ما يؤكد براءته إلا قميصه المقدُود:

وطني الذي هموا به ودليله كدليل يوسف،ثوبه المقدُود[2]

فهي صورة مأخوذة من قوله تعالى:«فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيــدكن إن كيدكن عظيم»[3].

وفي الثلاثينيات عندما اشتدت الأزمة الاقتصادية وضاقت سبل العيش بالجزائريين، لم يجد الشاعر لذلك الوضع في قسوته سوى صورة السنين السبع المعروفة بسني يوسف:

فشا الجوع واشتد عسر المعاش وعادت سنو يوسف الغابرة[4]

فهي صورة مأخوذة من قوله تعالى:« ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون»[5].

ويقول مخاطبا المجلس الإداري لجمعية العلماء عام 1933:

صف الجزائر فيما شئت من كرم ولذ بها حرما ناهيك عن حرم

ألمّ ركبك فاهتزت له وربت كالأرض غبّ نزول الهاطل العمم[6]

فصورة الأرض في البيت الثاني مأخوذة من معنى الآية الكريمة:« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج»[7].

---

1 - قطب سيد:التصوير الفني في القرآن،نقلا عن:لزهر فارس:الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف،ص83.

2 - العيد محمد:الديوان،ص22.

3 - سورة يوسف،الآية28.

4 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص250.

5 - سورة يوسف،الآية 48.

6 - العيد محمد:الديوان، ص102.

7 - سورة الحج،الآية 5.

وحين يتحدث عن وعود الاستعمار للشعب الجزائري،لا ينسى أن هذه الوعود لا تعدو أن تكون إلا سرابا خادعا، يقول في ذكرى 8 ماي 1945:

وما وعدهم إلا سراب بقيعة　　　　وما عهدهم إلا مدادًا بقرطاس[1]

وهي صورة مأخوذة من قوله تعالى« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب»[2].

ويقول في رثاء أحمد شوقي مستلهما قصة موسى عليه السلام:

أتت الفصحى فرَفّت وزفّت　　　　مثلمــا يأتي الطيــور البكــورُ

وأضاءت حولهــا فهي نـــار　　　　و الورى موسى وشخصك طور[3]

وهي صورة مركبة شبه فيها فصاحة الشاعر أحمد شوقي بالنـــار الـــتي تضــيء مــا حولها،والمستمتعين بهذه الفصاحة شبههم بموسى عليه السلام دلالة على الانبهار،وشبه أحمــد شوقي بجبل الطور دلالة على مكانته وعظمته،وهي صورة لا تخلو من مبالغة.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه النماذج،كيف كان محمد العيد يتواصل مــع القــرآن بلغته وصوره،فطهر في معظم شعره،يسوق صوره في كل موقف من المواقف الشعورية والنفسية التي تشبهها.

2- صور مصدرها الطبيعة:

إن الخيال في الشعر لا يتنافى مع الحقيقة ولا يجاوز الواقع«ولكنه وسيلة للتعبير عنــهما بقوة لا تخلوا من جمال وتأثير»[4]،وحين نتحدث عن الصور الشعرية التي استمدها محمد العيــد من الطبيعة سواء أكانت مظاهرها حية،أو جامدة،فإننا لا نعني بذلك مجرد الوصف كما شــاع في شعر القدامى،صحيح أن محمد العيد تناول هذا الغرض وأجاد فيــه في مواقــف، وكَبَــا في مواقف أخرى[5] لكن صور الشاعر الوصفية ما تلبث أن تلتحم بعاطفته،فتصبح الجمــادات فيها كائنات حية تفيض حيوية ونشاطا تخلع على النفس ألوان البهجة والسرور.ومن الأمثلــة الدالة على ذلك هذه المقطوعة التي يتحدث فيها عن حالة الجزائر بعدما غطتها الثلوج:

---

1 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص327.

2 - سورة النور، الآية39.

3 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص 458.

4 - الشيخ صالح يحي:شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص390.

5 - ينظر سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص165.

اصح قلبا فوجدك اليوم حمق   إن وجه الطبيعة اليوم طلق

زانت الجونة السماء فزالت   ظلمـــات بها ورعد و برق

وبدا النور من وراء الغيابات   فما في خلالها اليـــوم ودق

وبدا البحر ساكنا غير موجات   عليها طيـــر أبابيل بهق

وأرى الثلج ذاب إلا بقيـــا   ت بها الدور توجت فهي بلـــق

خالعات على الربى حللا بيـــ   ضاً بدت تحتها غلائل زرق[1]

نلاحظ في هذه القطعة صورا كثيرة جعل منها قلبه محاورا لـــه يـــدعوه إلى الصـــحو والاستبشار،وجعل الطبيعة إنسانا طلق المحيا،والسحب تزين الســـماء، والنـــور يبـــدو مـــن الغيابات،والبحر ساكنا،والطيور بلقا،وهي صور تعكس السرور و الفرح الذي يغمـــر نفـــس الشاعر في تلك اللحظة،ومن الصور التي تتجلى فيها الطبيعة بوجه سافر،وشكل ملؤه الحركـــة والحبور قول الشاعر:

وجوّ عجيب ينثر الثلج ناصعـــا   كذوب لجين أو يرى منه أنصعا

وشمس خلال السحب تبدو وتختفي   حياء ويرجوها النبات لتسطعـــا[2]

فعلى الرغم من أن محمد العيد ألقى القصيدة في مناسبة معينة هي أعمال ودروس قـــام بها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين،فإنه ربط بين جـــو المناســـبة السارة،وبين تجاوب الطبيعة مع ذلك الجو،فجعل المظاهر الجامدة ناطقة متحركة تشـــترك مـــع البشر في مميزاته،فيصبح الجو شخصا ينثر الثلج الناصع البياض الشبيه بالفضة الذائبـــة،وتتحول الشمس إلى أنثى ذات حياء تظهر و تتستر خجلا.و يتحول النبات إلى ولهان متيم بها يرجوهـــا أن تخرج من خدرها.

وفي قصيدة (جمال الريف)،يجعل محمد العيد مـــن الطبيعـــة مصـــدرا للإلهام،ومبعثـــا للإحساس،ومثارا للانشراح والفرح،ثم يخلع على كل مظاهرها الحركة والحياة في صور تجعـــل من الريح فنانا ماهرا يعزف الألحان ومن الروض معجبا يصفق لها،ومن الأشجار مغنيا متجاوبا مع ألحانها:

هزتك للشعر حنات وأشواق   وعاودتك حساسات وأذواق

اليوم صدرك للأفراح منشرح   فما عليه من الأتراح أغلاق

---

1 - العيد محمد: الديوان،ص23.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص186.

أقم هنيئا فما في القلب موجدة ونم قريرا فمــا بالعين أرّاق
حيتك في البدو كل الكائنات به الريح عازفة والروض صفاق
والحقل محتفل الأشجار من طرب تشدو وتهفو به ورقٌ وأوراقُ[1]

هذه باختصار بعض الصور التي استمدها الشاعر من خلال الطبيعة،ونقل بها إحساســه إلى القارئين،وهي كما يلاحظ لا تخلوا من جمال وروعة.

3- الرمز:

من أبرز القضايا النقدية في الشعر الحديث،قضية الرمز،ولقد شاعت في الشعر والنقــد شيوعا كبيرا،وصارت أداة من أدوات التعبير،ولئن ارتبط مفهوم الرمز في القديم بالخروج باللغة عن مألوف العادة،وتحدد في ألوان البيانات المعروفة كالاستعارة والمجاز والكناية والتشــبيه،فإن الرمز في العصر الحديث ارتبط بالأساطير،وبالتالي اتجه بالشعر إلى الغموض الــذي يحجــب في غالب الأحيان عملية فهم النص الأدبي، وبالتالي تذوقه.

والرمز في اللغة العربية هو«ما أخفي من الكلام،وأصله الصوت الخفي،الذي لا يكــاد يفهم»[2].

وإذا رجعنا إلى مدلول الكلمة في القرآن،فإن كلمة رمز واردة في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام:« قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمــزا»[3]، والرمز هنا معناه الإشارة التي تقوم مقام الكلام.

ويعرِّف غنيمي هلال الرمز في الأدب قائلا:«الرمز هنا معناه الإيحاء،أي التعــبير غـــير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في أدائها الوضعية والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء،بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح»[4].

إذن فوظيفة الرمز هي وظيفة الصورة الشعرية،وهي التعبير عن التجــارب والشــعور بطريقة فنية. والرمز حسب تصنيف الدكتور يحي الشيخ صالح يمكن تقسيمه إلى نوعين:« الرمز الخاص أو الشخصي،وهو الذي يأتي به الشاعر أصالة دون أن يسبقه إليه غيره،والرمز العام أو

1 - العيد محمد:الديوان،ص56.
2 - ابن زروق نصر الدين:الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة،ص152.
3 - سورة آل عمران:الآية 41.
4 - هلال محمد غنيمي:النقد المقارن،ص398.

التراثي:وهو الذي يملك أساسا من الدين أو التاريخ أو الأسطورة،فيتداوله غير واحد من الشعراء،مستلهمين جوانبه الذاتية،وطاقات إيحائه الكامنة فيه»[1].

وفي شعر محمد العيد نجد كثيرا من الرموز العامة استقى أكثرها من القرآن الكريم،وبعض هذه الرموز ورد في شكل تشبيهات واستعارات قريبة المنال سبقت الإشارة إليها.

فمن القرآن الكريم أخذ الشاعر صورة يونس عليه السلام ومعاناته،ليعبر عن محنته وعن عذابه النفسي في إقامته الجبرية ببسكرة سنة 1959:

أبا المنقوش هـــل تدري بحـــالي؟ فأنت اليوم جاري في الجبال

رماني حول سفحك موج وهري أسيرًا بعد أحـــداث طـــوال

فغشت بـــه كيونس في سقـــام لدى قومي ،ولكن في انعزال[2]

ويقول في رثاء الباحث الجزائري محمد بن أبي شنب:

إن ذكرى(محمد) نار موسى سوف يأتي من بعدها الخير يترى[3]

ولعل ذكر نار موسى هنا يوحي بقصة موسى عليه السلام،فهو النبي الصبور الـــذي لا تزعزعه المحن،وناره هي شعلة الهداية التي ينتظرها الشعب الجزائري.

وقال محمد العيد مشيرا إلى مقارعة ابن باديس لآراء المستشرق آشيل الذي أراد النيـــل من الإسلام مستلهما قصة عاقبة التدمير من القرآن الكريم:

دمغت أقوال آشيل كما دمغت أبطال أبرهة الطيرُ الأبابيلُ[4]

كما استعمل الشاعر كثيرا من الرموز للدلالة على الحرية،حيث أطلق عليها اسم(ليلى) في قصيدة(أين ليلاي؟)،ودعاها بـــ(ذات الفخار)في موشح(يا هزاري)،ودعاها بـــ (الورقـــاء، وبالحمراء) في قصيدة(استقلال ليبيا).وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في مباحث سابقة.

1 - الشيخ صالح يحي: شعر الثورة عند مفدي زكريا،ص335-336.

2 - العيد محمد: الديوان،ص425.

3 - العيد محمد:المصدر نفسه، ص 452 .

4 - م ن، ص86.

كما استعمل كثيرا من الرموز للدلالة على الاستعمار،مرة يرمــز لــه بــالغراب،ومرة بالثعلب الماكر والذئب المحتال،وتارة يشبهه بالليل يقول في قصيدة يا نفس:

وأغرب خطب ها لي خطب موطن لنا منعته الشمس أسراب أغربِ[1]

ويقول في قصيدة(الترحيب بالحجاج):

وكيف رضينا أن نعيش أذلــة ضعافا يرانا الغير أحقر من هبا؟

حيارى كقطعان جفتها رعاهًا فأغرت هِا خصمين ذئبا وثعلبا[2]

ويقول في قصيدة (ياليل):

يا ليل طلت جناحــا متى تريني الصباحــا

يا ليل أسرفت بــردًا وظلمــة ورياحــا

أطفيء حروبك عنــا ولا تزدهــا لقاحــا

نفسي إلى الفجر تاقت متى أرى الفجر لاحا[3]

وقد سلك الشاعر طريق التعبير الرمزي اتقاءً لشر الاستعمار،فرمز له بالليل الأســود، ورمز إلى الاستقلال بالفجر و بالصباح،ورمز لأعمال القهر والتسلط والطغيان والقمع والموت بالبرد و الظلمة و الرياح.

إن هذه الرموز بسيطة،لأن العلاقة بين الرمز والمرموز إليه علاقة مادية حسية مما يجعلها في متناول من هي موجهة إليهم.

هكذا إذن حددت وظيفة الشعر عند محمد العيد طبيعة صوره الشــعرية ودور الخيــال فيها،فقد اعتمد في بناء صوره على الاعتدال والوضــوح وعلــى الاعتمــاد علــى المظــاهر الواقعية،والمدركات الحسية المعلومة،وهذا لا ينقص من قيمة شعره الذي أدى وظيفته التي يعبر عنها محمد العيد في قصيدة بلادي قائلا:

أصرح أحيانا بقصدي واضحا وألحن أحيانا فهل أنت فاهم[4]

1- العيد محمد: الديوان،ص289.

2- العيد محمد: المصدر نفسه، ص 195.

3- م ن،ص45-46-48.

4 - م ن ،ص139.

IV – الموسيقى الشعرية:

لا شك أن الإنسان اهتدى إلى الشعر بفطرته،وطبيعته التي فتنها ما في الكون البديع من حسن التناسق،وجميل الانسجام،فقد تأثر بما سمعه من صــفير الريــاح،وخرير الميــاه،وحفيف الأوراق،وخشخشة العشب،وزقزقة الطير،فتحرك وجدرانه،ونطق لسانه شاديا بمــا في هــذا الكون من موسيقى،وهكذا نشأ الشعر مرتبطا بالغناء.

وكان الشعر اليوناني كذلك مرتبطا بالغناء «كان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلــة موسيقية خاصة»[1]،وقد قال أفلاطون في شأن الموسيقى«لا ينبغي أن نمنع النفس من معاشــقة بعضها بعضا،ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبــدانهم ترنمــوا بالألحان؟»[2].

أما بالنسبة للعرب قديما فهم أمة شاعرة،فالعربي كان يقطع المسافات البعيدة على ظهر راحلته التي تهتز به اهتزازات بطيئة أو سريعة،وتحرك قرائحه بوقع مناسمها أو سنابكها فتوحي له بالألحان المناسبة لهذه الاهتزازات أو الإيقاعات يحدوها بها،« فأذن الناقة فهمت موسيقى الشعر قبل الحادي»[3].وكان عرضة للهموم فخفف عن نفسه بالغناء.

وهكذا كان الشعراء في الجاهلية يتغنون بشعرهم وقت إنشاده، فقد كانــت العــرب تسمي الأعشى صناجة العرب،وكان حسان يقول:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار[4]

وقد تجسدت الصياغة الموسيقية في الشعر العربي في بحوره وقوافيه التي وصلتنا عن طريق الخليل بن أحمد،ومن جاء بعده من نقاد.

وقد أدرك النقاد العرب القدامى ما للموسيقى من أهمية في الشعر ولذلك تواتر تعريفهم للشعر بأنه«إنه قول موزون مقفى يدل على معنى »[5] لأن الموسيقى في العمل الفني تعد أهــم العناصر التي يرتكز عليها ذلك أن العلاقة بين الموسيقى والشعر علاقة ترجع إلى طبيعة الشــعر

---

1 - خفاجي محمد عبد المنعم :الشعر الجاهلي،دار الكتاب اللبناني1986،ص190.

2 - هلال محمد غنيمي:النقد الأدبي،ص461.

3 - أبو السعود سلامة أبو السعود: الإيقاع في الشعر العربي،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية، مصر2002،ص3.

4 - خفاجي محمد عبد المنعم :الشعر الجاهلي،ص 189.

5 - ابن جعفر قدامة:نقد الشعر ط3،تحقيق كمال مصطفى،مكتبة الخانجي،القاهرة،مصر 1979،ص17.

نفسه،الذي نشأ مرتبطا بالغناء،ومن ثم فإنهما يصدران من نبع واحد وهو الشعور بالوزن والإيقاع[1].

فالموسيقى إذن هي عنصر أساسي في القصيدة، بواسطتها يتمكن الشاعر من نقل تجربته الشعرية إلى الملتقى لأن في الإنسان زوايا نفسية مطوية لا تستجيب إلا للإيقاع الموسيقي.

والهدف من الموسيقى هو التأثير شأنها في ذلك شأن الصورة الشعرية «لكن الموسيقى تتدخل في تحديد مغزى الصورة ،ومعاني القصيدة بصورة عامة لأنها – أي الموسيقى-هي الأسهل والأبسط في عملية التذوق لدى القارئ أو المستمع،ولأنها أيضا،هي الأسبق زمنيا في عملية الإدراك والتمثل»[2].

ولقد كان للموسيقى أبلغ الأثر في النفوس لدرجة أن العرب كانوا يحذرون من«ميسم الشعر ومن شدة وقع اللسان،ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجو،وقد جمع الجاحظ بعض أقوال الشعراء في التحذير من ميسم الشعر»[3].

ويعلل الدكتور غنيمي هلال ضرورة الموسيقى في الشعر بقوله« والشعر في استعانته بالموسيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية لأن الموسيقى طريق السمو بالأرواح،والتعبير عما يعجز التعبير عنه»[4].

وقد كانت دراسة الموسيقى في الشعر القديم تنصب على العناصر الخارجية ممثلة في الوزن(البحر)الناتج عن البيت ذي الشطرين المتساويين المقسم إلى تفعيلات،والمنتهي بمقطع صوتي يسمى قافية مختومة بحرف يلتزمه الشاعر من بداية القصيدة إلى نهايتها هو حرف الروي الذي تسمى القصيدة غالبا باسمه مثل(لامية الشنفرى،سينية البحتري،نونية ابن زيدون)،« وفي النقد القديم نلاحظ اهتماما بالوزن دون الإيقاع،أي بالموسيقى الخارجية دون الداخلية »[5].أما النقد الحديث فبالإضافة إلى العناصر السابقة يلج عالم النص الأدبي،ويستبطن أغواره بحثا عن نوع ثاني من الموسيقى هو الموسيقى الداخلية المرتبطة بالحالة الشعورية للشاعر والناتجة عن

---

1 - ينظر عبد الدايم صابر:موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور،نشرمكتبة الخانجي بالقاهرة1993،ص87.

2 - الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكرياء،ص296.

3 - عوني محمد عبد الرؤوف:القافية و الأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي بمصر1977،ص87.

4 - هلال محمد غنيمي:النقد الأدبي،ص380.

5 - الشيخ صالح يحيى:المرجع نفسه،ص295.

الإيقاع المترتب عن وسائل متعددة«أهمها التكرار، تكرار كلمات معينة أو متشابهة،أو حرف أو حروف متحدة المخرج أو متقاربة أو ذات صفة جرسية واحدة»[1].

وهناك من يرى أن الموسيقى الداخلية ذات جانبين هامين هما«اختيار الكلمات وترتيبها،والمواءمة بين الكلمات والمعاني التي تدل عليها»[2].

وإذا تم استقراء ديوان محمد العيد آل خليفة في مجال الدراسة العروضية،فإن أول ما يلفت النظر هو محافظته الشديدة على القصيدة العمودية،والتزامه القوي بالأوزان التقليدية المعتمدة على القافية المطرّدة،مع العلم أن هذه ميزة معظم معاصريه من الشعراء،وإن كان لا بد من تعليل لتلك الظاهرة، فإن معظم نقاد الجزائر آنذاك يجمعون على أن أغلبية الشعراء انضووا«تحت لواء حركة إصلاحية محافظة كانت ترى في الحفاظ على القصيدة العربية بشكلها التقليدي حفاظا على مقوم من مقومات الشخصية العربية الإسلامية،ولعلها كانت تعتبر ذلك وجها من وجوه مقاومة الاستعمار الغربي الدخيل»[3] .

وقد كان مفدي زكريا أكثر جرأة وصراحة-كما عهدناه-في تعليل هذه الظاهرة حين تحدث عن ديوانه وما قد يواجهه من طرف دعاة الشعر الجديد حيث قال:« قد لا يجد عشاق- ما يسمونه بالشعر الجديد- في (اللهب المقدس)ما يشبع غرائزهم المشبوهة في جحيم النهود والبراعم والفساتين...ولكن سيجد فيه (الشعراء الناس) صلة رحم وثقى بعزّ أمجادهم،وتجاوبا صادقا مع مشاعر العروبة الزاحفة في كل بلد عربي يقدر ما لكلمة(عروبة) من عظمة وجلال،وسيجد فيه رواد(التجديد الرصين)ما يدعم عقيدتهم في أن عمود الشعر العربي- غير المغموز النسب- يبقى شامخا أمام أي تجديد في التعبير والتفكير في حدود(الشخصية الذاتية) للغة صمدت في وجه الزمن»[4].

ويعلل عبد العزيز قاسم تعلق محمد العيد وأمثاله بالقافية تعليلا نفسيا،فعنده أن «ثقل الماضي لم يضغط على حظوظ أمة بقدر ما ضغط على حظوظ الأمة العربية،وعلى الرغم من أن

---

1 - الشيخ صالح يحيى: شعر الثورة عند مفدي زكرياء،ص294.

2 - حسين محمد عارف،وعلي محمد حسين:دراسات في النص الأدبي العصر الحديث،دار الوفاء للطباعة و النشر،ط4 1998،ص13.

3 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص191.

4 - زكريا مفدي:اللهب المقدس،المكتب التجاري بيروت 1961 نقلا عن:مجلة آمال (وزارة الثقافة،الجزائر) عدد1 (د ت) ،ص95.

المثقفين العرب قد عاشوا في قرارة أنفسهم انهيار قيم الحدود تحت صدمة واقع جديد،تفجر في وجهها فجأة بعد سباة القرون،فإن كثيرا منهم قد جعل الحنين قيمة تعويضية»[1].

ويضيف ركيبي عبد الله سببا آخر مكّن لمفهوم القصيدة التقليدية عند شعراء الجزائر ومنهم محمد العيد،وهو«أن النقد عندنا قد تخلف عن ركب الشعر،خاصة(النقد المنهجي) الذي يعتمد على التحليل والتفسير والتقويم وعلى الاستشهاد بالنص ودراسته بموضوعية،فالجرأة في نقد كهذا لم تظهر في الجزائر إلا في وقت متأخر جدا»[2].

ويضاف إلى العوامل السابقة المناخ الذي نشأ فيه الأدب الجزائري آنذاك والظروف التي كانت تتحكم فيه،وهي ظروف لا يجهلها أحد،فزمن الشاعر ربما كان الإنسان مهيئا للإطراب عن طريق القصيدة العمودية،والقافية الموحدة،مما دفع الشعراء إلى عدم التفكير في شعر يكون بديلا لمعيارية سابقة مألوفة.

وبناء على ما سبق فإن من يتأمل الدراسة الإحصائية التي قدمها الدكتور محمد ناصر في نسبة شيوع الأوزان في شعر الشعراء الجزائر الإحيائيين ومنهم محمد العيد- وهي جهد كبير في الرصد والاستقصاء- فإنه لا يكاد يجد فرقا كبيرا بين نسب الأوزان التي كانت شائعة في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي وبين هذه النسب في ديوان محمد العيد رغم ما نجده من نظمه في المجزوءات وقصار القصائد،وبالتالي فإن دراسة التشكيل الموسيقي عند محمد العيد لا تحيد عنه كما هو في دراستها في الشعر القديم في شكلها الخارجي ممثلة في الوزن و القافية،وهذا لا يعني خلو شعر محمد العيد من عناصر الموسيقى الداخلية التي هي من أكثر القضايا إلحاحا في الشعر المعاصر،و سنحاول بعد قراءة متأنية لديوان الشاعر تحديد بعض معالم التشكيل الموسيقى الخارجية والداخلية.

1- الموسيقى الخارجية:

أ- البحور المستعملة:

كما سلف القول فإن الشيء اللافت للانتباه في شعر محمد العيد هو محافظته على موسيقى القصيدة القديمة الخارجية،فلم نلحظ على شعره تجديدا في بنائه الموسيقي،أو مغايرة لما هو مألوف في شكل القصيدة العربية العامة،فقد انتهج النهج الذي استقر عليه بناء موسيقى القصيدة في مختلف العصور محافظة على أوزان الخليل المعروفة،وعلى قافية معينة تلتزم بها سائر

---

1 - فؤاد نعمات: خصائص الشعر الحديث،دار الفكر العربي1971،ص43.

2 - ركيبي عبد الله:قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر،ص147.

أبيات القصيدة على وجه العموم،يقول عبد الملك مرتاض: «إن العيد ظل يقرض القصيدة على أصولها العمودية المعروفة في الشعر العربي التقليدي،في شيء كثير من الإقتناع بالمسعى والاقتدار عليه أيضا »[1].

والملاحظة الثانية التي تضاف إلى ما سبق هو طول قصائد محمد العيد ففي ديوانه قصيدة (استوح شعرك) تبلغ مئة وتسعا وعشرين بيتا على قافية موحدة،وعلى نسج بحر واحد هو الكامل ،وفي ديوانه قصائد تتجاوز الثمانين بيتا،وأخرى ما بين الأربعين والخمسين.

وعن نسبة استعمال هذه البحور في شعر محمد العيد،ففي مجموع إنتاجه الشعري(ديوانه وتكملته التي صدرت حديثا)بلغ عدد نصوصه ثلاثمائة وثلاثا وخمسين نصا ما بين قصيدة ونشيد وموشح،ومقطوعة وبيت منفرد، تجلت نسبة استعماله للبحور القديمة كما يلي:

1- بحر الكامل:إذا كان الكامل في الشعر العربي القديم من بحور الدرجة الأولى ذات التفعيلة الواحدة تتكرر ست مرات،وعلى منواله وردت معلقتان هما(هل غادر الشعراء من متردم) لعنترة و(عفت الديار محلها فمقامها)للبيد،وكثير من قصائد المتأخرين كقصيدة(لك يا منازل في القلوب منازل) للمتنبي،فإن هذا البحر عند محمد العيد-كما عند غيره من شعراء الجزائر- نال قصب السبق،فقد استعمله بكثرة بشكله التام والمجزوء،الصحيح والمعتل،وقد بلغ عدد القصائد المنسوجة على منواله ثمانين قصيدة،بنسبة 22.66% أي ما يفوق خمس إنتاج محمد العيد،وقد يعود هذا إلى «ما يمتاز به هذا البحر من إيقاع موسيقي هادئ رصين،وما تعرف به تفعيلاته من جزالة وحسن اطراد (متفاعلن ست مرات) تجعله يتناسب والموضوعات الجادة التي تحتاج إلى نفس طويل»[2].

ويلاحظ أن معظم القصائد التي وردت على هذا البحر طويلة.

2 - بحر الطويل:

إن الطويل في الشعر العربي من أكثر البحور استعمالا« ويكاد يكون ربع الشعر العربي مكتوبا كله على ميزان الطويل»[3]،وقد جاءت على منواله أروع أشعار العرب منها معلقات(زهير،امرؤ القيس،طرفة) وقصائد مشاهير العصر العباسي مثل قصيدة(على قدر أهل العزم) للمتنبي وقصيدة (ألا في سبيل المجد...) لأبي العلاء،أما عند محمد العيد فإن هذا البحر

---

1 - مرتاض عبد المالك:دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد،ص34.

2 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص249.

3 - حركات مصطفى:قواعد الشعر،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر1989،ص56.

يأتي في الدرجة الثانية من حيث نسبة الاستعمال فقد استخدمه في ست وخمسين (56) قصيدة أي بنسبة 15.86%،وهذا يعني أن البحر الطويل-وإن لم تعد له الصدارة- فإنه لم يفقد مكانته بالنسبة إلى الشعراء الجزائر لأنه كان في القديم كما يرى النقاد«الطويل نظم منه ما يقرب مـــن ثلث الشعر العربي،وإنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره ويتخذونه ميزانا لأشعارهم ولا سيما في الأعراض الجليلة الشأن »[1].

3- بحر البسيط:

البسيط من بحور الدرجة الأولى يأتي مباشرة بعد الطويل في نسبة الاستعمال،وهو مـــن البحور المزدوجة التفعيلة جاء على منواله:معلقة الأعشى(ودّع هريرة)،وقصيدة النابغة(يـــا دار ميّة...)،وقصيدة أبي تمام (السيف أصدق أنباء من الكتب)،وقصيدة المتنبي (وا حرّ قلباه ممن قلبه شيم).أما في الشعر الجزائري فإن الملاحظ هو أن جل الشعراء نظموا على منواله أثناء مرحلـــة الإصلاح،والثورة والاستقلال[2]،أما عند محمد العيد فإن هذا البحر يمثل المرتبة الثالثة،فقد نســـج على منواله واحدا وخمسين قصيدة (51)،بسبة 14.44%،وقد استعمل الشاعر هذا البحر تاما، و مجزوءاً.وقد تقاربت موضوعات القصائد المنسوجة على منواله أحيانا،وتباعدت أخرى.

4- بحر الخفيف:

هذا البحر من الأوزان التي قل استعمالها في العصر الجاهلي«فهو يأتي في الرتبة الخامسة بعد الطويل والبسيط والوافر والكامل من ناحية الشيوع»[3]،على منواله وردت معلقة الحــــارث بن حلزة (آذنتنا ببينها أسماء). أما في العصر العباسي فقد أصبح مثار اهتمـــام الشـــعراء،وكثر الناظمون فيه،وألفت على منواله كثير من القصائد الجميلة منها قصيدة المتنبي(صحب الناس قبلنا ذا الزمانا) وقصيدة أبي العلاء (غير مجد في ملتي واعتقادي)،أما في الشعر الجزائري الحديث فقد أقبل الشعراء عليه بكثرة « ولعل ما يلفت نظر الدارس،ما ظهر من الإقبال على البحر الخفيف من طرف الشعراء ولا سيما في الأربعينات وما بعدها»[4].

أما عند محمد العيد فقد نسج على منواله تسعا وأربعين قصيدة(49)بنسبة13.88%،وقد استُعمل بشكليه التام والمجزوء.

---

1 - أنيس إبراهيم:موسيقى الشعر،ص191.

2 - ينظر ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ،ص261.

3 - حركات مصطفى:قواعد الشعر،ص120.

4 - ناصر محمد: المرجع نفسه،ص254.

5- بحر الوافر:

الوافر عند المتقدمين من بحور الطبقة الأولى مستعمل بكثرة،وقد حافظ على هذه المترلة عند الشعراء في العصور الموالية،و على منواله جاءت معلقة عمرو بن كلثوم: (ألا هبي بصحنك فاصبحينا) وقصيدة المتنبي(مغاني الشعب طيب في المغاني)،وقصيدة أبي العلاء (أرى العنقاء تكبر أن تصادا)،وقد كثر استعماله عند الشعراء الجزائريين بشكله الصحيح أكثر من المجزوء كغيره من البحور كما يرى محمد ناصر«وفي ديوان محمد العيد الذي يظم حـــوالي 269 قصيدة ليس من بينها سوى سبع وعشرين قصيدة من البحور المجزوءة »[1].

وقد استعمله محمد العيد في مجموع إنتاجه الشعري(الديوان،وتكملته في ست وأربعـــين قصيدة،بنسبة 13.03%.

6- بحر المجتث:

هذا البحر من الطبقة الأخيرة من حيث نسبة الاستعمال،وهو لا يمثل إلا نسبة ضـــئيلة جدا من الإنتاج الشعري في القديم أوفي الحديث،وقد استعمله محمد العيد في أكثر من ســـبعة عشر قصيدة(17) من مجموع إنتاجه الشعري،بنسبة 04.81%،وما يلاحظ أن معظم القصـــائد التي جاءت على هذا الوزن طويلة.

7- بحر الرمل:

الرمل من بحور الدرجة الثانية متوسط الاستعمال،وهو من البحور الصافية ذات التفعيلة الواحدة(فاعلاتن) تتكرر ست مرات،ورد في الشعر القديم بشكليه التام والمجزوء،وقد اســـتعمله محمد العيد بشكليه.ورد على منواله ثلاث عشرة قصيدة(13)بنسبة 03.86 %،وهـــي نســـبة ضئيلة مقارنة بالبحور السابقة، كما قلّت نسبة استعماله عند الشعراء المحافظين« نلحظ فيه بأن اهتمام بعض الشعراء المحافظين به تقل قلة ملحوظة... كما هو الشأن في ديوان محمـــد العيـــد الذي لم يسجل له فيه سوى 03.23%»[2].

8- بحر المتقارب:

هذا البحر من بحور من الدرجة الثانية استعمله القدامى بنسبة ملحوظة غير أنـــه قـــل استعماله عند شعراء الجزائر الإحيائيين،باستثناء مفدي زكريا الذي تجاوز نسبة 30% في ديوان

---

1 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ،ص266.

2 - ناصر محمد:المرجع نفسه،ص257.

اللهب المقدس ،وتحت ظلال الزيتون والإلياذة[1]،ولكن بمقابل ذلك أعيد له الاعتبار عند الشعراء الذين مارسوا القصيدة الحرة«كما نلاحظ عودة الاعتبار لبحر المتقارب الذي احتل المرتبة الثانية عند شعراء القصيدة الحرة بعد الرجز،وكان يحتل المرتبة السادسة عند شعراء القصيدة العمودية»[2] أما عند محمد العيد فقد استعمله في اثني عشرة قصيدة بنسبة 03.39 % في مجموع إنتاجه،وقد وظفه تاما أكثر منه مجزوء.

9- بحر الرجز:

هذا البحر ذو تفعيلة واحدة هي(مستفعلن) تتكرر ست مرات،ورد تاما ومجزوءا،ولقب بحمار الشعراء لسهولة النظم على منواله،مما جعل كبار الشعراء ينفرون من استعماله،وقد استعمله محمد العيد في اثني عشرة قصيدة،شأنه شأن المتقارب بنسبة 03.39%،وقد استعمله تاما في سبع قصائد،ومجزوءاً في خمس.

10 - بحر الهزج:

هذا البحر قليل الاستعمال في الشعر العربي قديمه وحديثه،وهو يتكون من تفعيلة واحدة (مفاعيلن) تتكرر أربع مرات،ومن الملاحظات المتعلقة بهذا البحر هو التباسه بمجزوء الوافر عندما يسكن حرف اللام في مفاعلتن،فتصير مفاعيلن،وقد بلغت القصائد المنتمية لهذا البحر عند محمد العيد ست قصائد،قصيدتان في الديوان الأم،وأربع في تكملة الديوان،وهي نسبة قليلة تساوي**1.19%**.

11 – بحر السريع:

السريع من بحور الطبقة الثانية من حيث نسبة الاستعمال وهو من البحور المزدوجة التفعيلة،يشبه إلى حد كبير بحر الرجز لأن حشوه هو نفس حشو بحر الرجز(مستفعلن مستفعلن)،وقد استعمله محمد العيد في مجموع شعره فيما لا يتجاوز خمس قصائد،بنسبة 01.41 % وهي نسبة ضئيلة جدا، و الملاحظ على القصائد المنتمية لهذا البحر أن أربعا منها طويلة،وواحدة قصيرة.

1 - ينظر ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص270.

2 - ناصر محمد: المرجع نفسه،ص263.

12 – بحر المتدارك:

هذا البحر لم يكن من مجموع البحور التي اهتدى إليها الخليل بن أحمد «ويقال إن الأخفش هو الذي اكتشف هذا البحر»[1]بعد ذلك،ولذا سمي متداركا،وهذا ما يعني إنه لم يكن معروفا في الشعر القديم،على الرغم من أنه موحد التفعيلة (فَعَلُن تتكرر ثمان مرات)،وقد استعمله محمد العيد في ثلاث قصائد،بنسبة 0.84 %،وقد ورد مجزوءً في قصيدتين وتاما في قصيدة واحدة.

13 – بحر المديد:

هو بحر مزدوج التفعيلة(فاعلاتن،فاعلن) تتكرر،قل استعماله في الشعر العربي القديم والحديث،و لم يرد إلا مجزوءً،أما محمد العيد فلم يستعمله إلا في قصيدتين بشكله التام بنسبة 0.56 %.

وخلاصة القول في هذا المضمار هي مجموع ملاحظات توصلت إليها:

1- إن محمد العيد استقرت في أعماقه صورة مقدسة للتراث،فكان طبيعيا أن يتجه إليه مستلهما أوزانه القديمة الشائعة عند كبار الشعراء يقلدهم في الصياغة والبناء ليعبر عن ظروف و عن واقع شعبه،وأن تأثره هذا بالتراث لم يكن قائما على ارتباط البحر بالحالة النفسية،فأعتقد أن الشاعر حين كان ينظم شعره لم يكن البتة بفكر في البحر الذي ينظم على منواله فالشعر «فيض تلقائي لمشاعر قوية والشاعر عندما تجيش نفسه بالشعر لا يضع في اعتباره بحرا أو قافية وإنما يأتي هذا طواعية ليلائم أحاسيسه وانفعالاته بحكم أن الوزن والقافية جزء لا يتجزأ من العمل الشعري »[2].

2 - إن قضية علاقة الوزن وما يصلح له من أغراض محاولة قام بها القدماء والمحدثون وهي ذات صلاحية نسبية قد تنطبق على بعض الأغراض بشكل لافت كما هو عند محمد العيد،فقد وردت كثير من الموضوعات المتشابهة على وزن واحد،ولكنها لا يمكن تعميمها على شعره،ولا على الشعر بصفة عامة،لأن الشعر ظهر قبل أن تظهر الأوزان،ولأن الأشعار العربية القديمة والحديثة«دلت على أن الشاعر كان يعبر عن عواطف شتى في وزن واحد»[3]،إذن فالربط بين عاطفة الشاعر والوزن الذي يتخيره لموضوع تجربته في قصيدته« قضية شائكة أثيرت من

---

1 - حركات مصطفى:قواعد الشعر،ص137.

2 - بوقرورة عمر:الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث،ص300.

3 - بوقرورة عمر:المرجع نفسه،ص299.

قبل النقاد قديما و حديثا و لم يحسم القول فيها بعد، فبعض النقاد ينتصر لهـــا مثـــل د/ عبـــده بدوي،وبعضهم يرفضها مثل د/ عز الدين إسماعيل»[1].ومحمد شكري عياد«...أتعني أن أغراض الشعر المختلفة تتطلب بحورا بأعينها،هذا عين الباطل،ألسنا نجد مراثي في الطويـــل،وأخرى في البسيط،وأخرى في المنسرح،وهلم جرا ؟ ألا يدل هذا على أن أي بحر من البحور يصـــلح أن ينظم فيه لأي غرض من الأغراض الشعرية»[2].

3- إن محمد العيد كغيره من الشعراء الجزائريين الإصلاحيين،وشعراء العرب الإحيائيين استعمل الأوزان الخليلية،وكانت الصدارة للبحر الكامل،إذ نسج على منواله ما يفوق خمـــس شعره،وقد علل النقاد ذلك بعدة أسباب أهمها فشو هذا البحر«من طرف الشعراء في الـــوطن العربي فقد أصبح هذا البحر في العصر الحديث"معبود الشعراء"يطرقه كل الناظمين»[3].

وقد يكون سبب ذلك هو قرب هذا البحر من الرجز حينما يســـكن ثـــاني متفـــاعلن فتصبح(مستفعلن)،وتتكرر ست مرات كما هو الشأن في بحر الرجز« مما يفسح المجال للشـــاعر ويعطيه حرية في النظم أكثر من غيره»[4].

4- إن محمد العيد نظم معظم شعره على أوزان خمسة هي الكامل ، الطويل، البسيط، الخفيف والوافر.وهذه الملاحظة نفسها تنطبق على الشعر القديم«فثمة أوزان أربعة قيـــل فيهـــا أكثر من أربعة أخماس ما أحصي من الشعر،وهي الطويل والكامل والوافر والبسيط»[5].

5- والملاحظة الأخيرة إن ظاهرة فشو الأخطاء العروضية التي طبع بها الشعر الجزائري في جميع مراحله كما يرى محمد ناصر لم يسلم منها إلا القليل النادر من الشعراء المتمرســـين «مثل محمد العيد آل خليفة ومفدي زكرياء»[6].

فقد قلت الزحافات والعلل في شعره،وأظهر من خلال نظمه معرفة كـــبيرة بـــالبحور الشعرية،وإلماما واسعا بالعروض الخليلي وحتى ظاهرة المجزوءات التي كثرت عند غيره قلت في شعره،وقد نظم في ثلاثة عشر بحرًا كما يبينها الجدول الآتي:

1 - عبد الدائم صابر:موسيقى الشعر العربي بين الثبات و التطور،ص20.

2 - عياد محمد شكري:موسيقى الشعر العربي(مشروع دراسة علمية)،دار المعرفة،القاهرة،مصر1978،ص16.

3 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص251.

4 - ناصر محمد: المرجع نفسه ،ص249.

5 - عياد محمد شكري: المرجع السابق،ص13.

6 - ناصر محمد: المرجع السابق،ص268.

الرتبة	البحر	عدد القصائد	النسبة
01	الكامل	08	%22.66
02	الطويل	56	%15.86
03	البسيط	51	%14.44
04	الخفيف	49	%13.88
05	الوافر	46	%13.01
06	المجتث	17	%04.81
07	الرمل	13	%03.68
08	المتقارب	12	%03.39
09	الرجز	12	%03.39
10	الهزج	06	%01.69
11	السريع	05	%01.41
12	المتدارك	03	%00.84
13	المديد	02	%00.56

ب- القوافي:

لقد لازمت القافية الشعر منذ القديم فحين عرفوا الشعر قالوا: «إنه قول موزون مقفى يدل على معنى »[1]،وقد اهتم بها النقاد،وحثوا الشعراء على ضرورة تخيرها، يقول أبو هلال العسكري لبشر بن المعتمر: «إذا أردت أن تعمل شعرا فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك،وأحضرها على قلبك،واطلب لها وزنا،يتأتى فيه إيرادها قافية يحتملها،فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية،ولا تتمكن منه في أخرى»[2].

و لم تكن القافية سهلة المراد فقد ألح على ضرورتها النقاد، كما تحدث الشعراء عن صعوبة الحصول عليها، يقول سويد بن كراع:

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سربا من الوحش نزّعا[3]

وهذا يدل على المعاناة التي يلقاها الشاعر في سبيل الحصول على البيت الشعري،والقافية خاصة.

كما أن الشعراء يحذرون من«ميسم الشعر ومن شدة وقع اللسان ومن بقاء أثره على الممدوح أو المهجو»[4] وقد جمع الجاحظ أمثلة كثيرة من تلك الأقوال منها قول الأخطل:

حتى أقروا وهم مني على مضض والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر[5]

كما عني المحدثون بالقافية،وبالأثر الذي تحدثه في السامع،يقول أميل البستاني في مقدمته لترجمة الإلياذة«وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر،وحسبك دليلا على ذلك أن جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون بعض،وإذا نظم شاعر واحد قصيدتين على بحر واحد،بمعنى واحد،فلا ريب أن القافية الغناء تميل بالسامع إلى إيثارها على أختها»[6].

وقد أدرك شعراء الجزائر الإيحائيون هذا الأمر فلم يحيدوا عن الاهتمام بالقافية لكونها مكملة للوزن وشريكة له في التأثير،تؤدي وظيفة معنوية وأخرى موسيقية.

---

1 - ابن جعفر قدامة: نقد الشعر،ص17.

2 - عوني محمد عبد الرزاق: القافية والأصوات اللغوية،ص88.

3 - أبو عثمان عمرو بن بحر(الجاحظ) البيان والتبيين ج2 ط5، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة 1985، ص12.

4 - أبو عثمان عمرو بن بحر(الجاحظ): البيان والتبيين ،ج1،ص156.

5 - أبو عثمان عمرو بن بحر(الجاحظ): م ن ،ص158.

6 - عوني محمد عبد الرزاق: المرجع نفسه،ص94-95.

وكما شاعت البحور الخليلية التقليدية في أشعارهم،شاعت القوافي التي اعتمدوها«أما بالنسبة لموضوع القافية فقد ظلت ملتزمة بنظام معين وقافية واحدة في الأغلب الأعم متمثلة في روي الراء والهاء والباء والدال والنون والعين والكاف واللام والواو»[1].

والقافية في اللغة هي آخر الشيء،وقال الأخفش:القافية آخر كلمة في البيت،أما الخليل بن أحمد فقد حددها في آخر ساكن في البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن»[2].

ومن هذا المنطلق اهتم القدماء والمحدثون بمكونات القافية في القصيدة خاصة حرف الروي،والروي«هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة فتنسب إليه فتقال قصيدة لامية،أو ميمية،أو نونية إن كان حرفها الأخير لاما،ميما أو نونا»[3].

وقد تفاوتت حروف الهجاء في مجيئها رويا حسب سهولة مخارجها،وحسن وقعها على الآذان.

وعندما تم استقصاء شعر محمد العيد (الديوان وتكملته) تبين أن الحروف التي تبنى عليها قصائده هي نفسها التي شاع ورودها في الشعر القديم وهي«الراء- اللام- الميم- النون- الباء- الدال»[4].

وهو الأمر نفسه بالنسبة للحروف المتوسطة الاستعمال في الشعر القديم فقد وردت بنفس نسبة الاستعمال عند محمد العيد وهذه الحروف هي: «التاء-السين-القاف-الكاف-الهمزة-العين-الحاء-الفاء-الياء-الجيم»[5].

وهذا الحكم يمكن تعميمه على الحروف التي قل استعمالها قديما، أو ندر أو هجرها الشعراء،فقد قلت عند محمد العيد،أو ندرت أو هجرها و لم يستعملها.

وقد انتهى الاستقصاء إلى تحديد نسبة ورود حروف الهجاء رويا عند محمد العيد كما ينص على ذلك الجدول الآتي:

---

1 - بيطام مصطفى:الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي،ص440.

2 - ينظر،عبد الدايم صابر:موسيقى الشعر بين الثبات والتطور،ص152-153.

3 - عبد الدايم صابر: موسيقى الشعر بين الثبات والتطور،ص165.

4 - عبد الدايم صابر:المرجع نفسه،ص166.

5 - م ن ،ص167.

الرقم	حرف الهجاء	عدد مرات الاستعمال في مجمل شعره	النسبة
1.	حرف الراء	68	% 19.26
2.	حرف النون	47	%13.31
3.	حرف اللام	36	%10.19
4.	حرف الدال	34	%09.63
5.	حرف الميم	28	%07.93
6.	حرف الباء	26	%07.36
7.	حرف العين	18	%05.09
8.	حرف الهاء	16	%04.53
9.	الهمزة	16	% 04.53
10.	حرف القاف	12	%03.39
11.	حرف التاء	06	% 01.69
12.	حرف السين	06	% 01.69
13.	حرف الياء	05	% 01.41
14.	حرف الحاء	04	% 01.13
15.	حرف الجيم	03	% 00.84
16.	حرف الكاف	03	% 00.84
17.	حرف الفاء	02	% 00.56
18.	حرف الطاء	02	% 00.56
19.	حرف الصاد	01	% 00.28
20.	حرف الزاي	01	% 00.28

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن محمد العيد التزم وحدة القافية في جل إنتاجه الشعري، «ولم يخرج عنها إلا في بعض المقطوعات التي تأتي في شكل موشحات،أو رباعيات أو ما ماثل ذلك »[1] مما يوحي أن الشاعر روض قوافي الشعر القديم،ولم تعوزه حتى في القصائد الطوال،فانقادت له ذلولا،وهو حين يخرج عن هذا الخط القديم في القلة القليلة من شعره إنما يؤكد أنه كان قادرا على مجاراة التطور الحاصل في هيكل القصيدة العربية ولكنه لم يكن يرى ذلك من أولويات شعره الذي وقفه على شعبه ووطنه وأمته،كما قال:

وقفت شعري على شعبي أخلد ما   أبداه من مثل عليا بتدويني[2]

وقد بلغت القصائد التي خرج فيها عن وحدة القافية تسعة عشر قصيدة في مجمل إنتاجه الشعري وهي تمثل 05.38 %.

كما يلاحظ اعتماده في قافيته إلى حد كبير على الحروف التي شاع استعمالها رويا في الشعر القديم كالراء والنون واللام والدال والميم و الباء والعين.

كما نلاحظ أن محمد العيد استعمل كثيرا من حروف الهجاء في قوافيه فقد بلغت الحروف التي وردت رويا في مجموع شعره واحدا وعشرين حرفا من مجموع حروف الهجاء، منها حروف ندر استعمالها في الشعر القديم والحديث كالصاد والزاي التي لم ترد في شعره إلا مرة واحدة.

وقد أدرك محمد العيد قيمة الشعر في خدمة القضية الوطنية،وأيقن أن المضمون العظيم ينبغي أن يمتزج بشكل عظيم،«أو بعبارة أخرى المضمون هو الشكل العظيم»[3] فعبر عن هذه الأبيات يبين فيها علاقته بالشعر،وعنايته به،وحرصه على قوافيه لتؤدي دورها:

كذلك كان الشعر آيات رقة   على صور الإبداع منطويات
كلفت به طفلا فكنت أصوغه   بديع اللئالي محكمة الخرزات
وقافية أمست تمثل يوسفا   بما فيه من يمن وحسن صفات
خلعت عليها من شعوري مطارفا   وكللتها ما شئت من خطراتي[4]

1 - سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري-ص225.

2 - بن سمينة محمد:تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة،ص140.

3 - المقالح عبد العزيز: الشعر بين الرؤيا والتشكيل،ص421.

4 - العيد محمد:الديوان،ص11

فقد شبه ما يمتاز به شعره من خصائص بما اشتهر به يوسف عليه السلام من جمال رائع وصفات حسنة.

وقد حالفه التوفيق غالبا فيما يوفره لشعره من «الموسيقى المواتية والقافية المتينة التي تزيد من قوة هذه الموسيقى»[1].

فالشاعر يختار الألفاظ الملائمة للمعاني، ويحسن ترتيبها ترتيبا يلذ السمع ويريح النفس، يبعد عنها كل تنافر،فتنساب على اللسان انسيابا وتقع على الأذن وقعا حسنا ويمكن أن نجد هذا في قصيدته التي ألقاها بباتنة سنة 1937 إثر دروس قام بها رئيس الجمعية(محمد البشير الإبراهيمي):

بباتنة رعد البشائر لعلعا	فأطرب (أوراسا) بها (والشلعلعا)
وجادت غيوث البر كل رحابها	فجادت وعادت للمبارات مرتعا
وأخصبت الآمال فيها وأينعت	كما أخصب الروض الجذيب وأينعا
بمدرسة دينية عربية	أعدت لإرواء المدارك منبعا
نمت و نمى النشء الصغير على الهدى	بها ووعى فيها من العلم ما وعى[2]

فالقافية عينية مرفوقة بحرف مد هو الألف، وحرف العين من الحروف المتوسطة الاستعمال في القديم وقد قال عنها الرازي في نهاية الإيجاز«فأما العين فأنصع الحروف جرسا»[3] هذا ناهيك على أننا لا نجد كلمة واحدة مضطربة في مكانها في البيت،وأن حرف العين تكرر في كل بيت أكثر من مرة، ففي البيت الأول خمس مرات،وفي الثاني والثالث مرتين،وفي الرابع ثلاث مرات،وفي الخامس أربع مرات مع ما في ذلك من جرس موسيقي له وقع على السمع وأثر على النفس.

1 - مصايف محمد:فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث،ص20.

2 - العيد محمد:الديوان، ص185.

3 - الرازي:نهاية الإيجاز، نقلا عن بدوي عبده:دراسات في النص الشعري،ص29.

2 - الموسيقى الداخلية:

إذا كانت الموسيقى الخارجية ممثلة في الوزن والقافية هي التي تحدد اتجاه الشاعر الفني،في احتداء القديم،ونهج سبل من ساروا عليه فإن الموسيقى الداخلية هي التي: «تعكــس شخصــية الشاعر في داخل العمل الفني،وفي سر تفوقه أو إخفاقه في تعامله مــع اللغــة داخــل الإطــار الخارجي »[1].

والموسيقى الداخلية هي «هذا الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من هذا التوافــق الموسيقي بين الكلمات ودلالتها حينا أو بين الكلمات بعضها وبعض حينــا آخــر،أو هــذا الانسجام الصوتي الذي يحققه الأسلوب الشعري من خلال النظم وجودة الرصف على نحو ما يعبر أبو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني »[2].

ومدلول هذا الكلام أن الموسيقى الداخلية تنبعث من حسن اختيار الكلمات الدالة على المعنى،ومن حسن نظمها لتترك أثرها المزدوج أثرها المعنوي على النفس،وأثر جرســها علــى الأذن.

ويحدد النقد الحديث للموسيقى الداخلية - كما يرى يحيى الشيخ صالح -: «شــكلين اثنين أحدهما الموسيقى الصوتية التي يلعب الجرس دورا بارزا فيها،وثانيهما ما يسمى الموســيقى الفكرية التي لا دور للجرس فيها بينما الإيقاع "الفكري"هو الذي يعطي لها صورتها »[3].

أما صابر عبد الدايم فإن الموسيقى الداخلية في مفهومه «هي التي تكسب النص الشعري بعدا تأثيريا تشد إليه القارئ »[4].

وهي تتمثل في عدة عناصر:الإيقاع الباطن الذي نحسه و لا نراه، ويكمــن في تعــادل النظم عن طريق مذاق الحروف وتكرارها،واستعمال حروف مهموسة وأخرى مجهــورة،القيم الصوتية في النص من حركة وسكون ومدلولاتها،وعلو الصوت وانخفاضه أثناء الإنشاد الشعري ليناسب حالات معينة[5].

وبناء على ما سبق فإن الموسيقى الداخلية في أي نص أدبي تنبعث من مــواطن مختلفــة متعددة يوظفها الشاعر تلقائيا أو على وعي تام «هناك إلى جانب الموسيقى الخارجيــة(الــوزن

---

1 - بري حواس: شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم،ص288.

2 - إبراهيم عبد الرحمان:الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية،نقلا عن حواس بري،المرجع السابق،ص288.

3 - الشيخ صالح يحيى:شعر الثورة عند مفدي زكرياً،352.

4 - صابر عبد الدايم:موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور،ص27.

5 - ينظر:صابر عبد الدايم: المرجع نفسه،ص27-28.

والقافية) الموسيقى الداخلية وهي ذات جانبين هامين:اختيار الكلمات وترتيبها،والمواءمة بين الكلمات والمعاني التي تدل عليها »[1].

وتفصيل هاذين الجانبين أن الأول هو إختيار الكلمات وترتيبها،حيث ينتقي الشاعر الحسن من اللفظ ويطرح المستهجن منه،والملاءمة بين هذه الألفاظ،وحسن سبكها «ويدخل في هذا الجانب أنماط متعددة من الموسيقى الداخلية تظهر في التصريع،والتنوين،والجناس والطباق »[2].

أما الثاني فيعني اختيار الشاعر الكلمات التي تناسب موضوعه الشعري «فيختار للحماسة الألفاظ القوية(الجزلة) وللغزل الألفاظ الرقيقة (السهلة) التي تشبه أنسام الصباح،وللفخر الألفاظ القوية التي تشي بالقوة والاعتزاز لدى الشاعر »[3].

وهذا النوع من الموسيقى ليس بدعا في شعر محمد العيد،فهو موجود عنده كما هو عند غيره من معاصريه من شعراء الإحياء، «الواقع أن عناية الشعراء في الاتجاه المحافظ التقليدي بالجانب الموسيقي لم يقتصر على الموسيقى الخارجية للقصيدة بالمحافظة على الإيقاع المتكرر في كل بيت من أبيات القصيدة بحرا وقافية،وإنما تجاوز ذلك عندهم إلى مراعاة الموسيقى الداخلية الناتجة عن مخارج الحروف وتآلف الألفاظ والكلمات ...وقد تميز بهذه الميزة بعض الشعراء نذكر من بينهم محمد العيد،أبو اليقظان،مفدي زكريا »[4].

لكن التفاوت بين هؤلاء يكمن في قدرة كل منهم على التحكم في هذه الظاهرة بما يخدم شعره،ولهذا إذا وجدت عند محمد العيد فهي لم تكن غاية في حد ذاتها،خاصة ونحن نعرف فلسفة هذا الأخير من راء شعره،والغاية التي استعمله من أجلها،فقد سخره لخدمة قضايا شعبه،وثبت على عمود الشعر القديم،مع ما يتطلبه ذلك في بناء القصيدة حيث يقول:

وقفت شعري على شعبي أخلد ما ... أبداه من مثل عليا بتدويني
شعبي الذي شغله شغل لموهبتي ... شعبي الذي كل ما يعنيه يعنيني
أهدي إلى شهداء الشعب قافية ... أثنت عليهم وأدلت بالبراهين
سارت مع الشعب في أطور ثورته ... تحصي مزاياه في شتى الميادين[5]

1 - عارف محمد محمود حسين وعلي محمد:دراسات في النص الأدبي العصر الحديث،ص13.
2 - عارف محمد محمود حسين وعلي محمد:المرجع نفسه،ص13.
3 - عارف محمد محمود حسين وعلي محمد:المرجع نفسه ، ن ص.
4 - ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث،اتجاهاته وخصائصه الفنية،ص194.
5 - بن سمينة محمد:تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة،ص140.

فقد زخر شعره بكثير من ظواهر الموسيقى الداخلية كالتصريع والجناس والطباق والمقابلة والتكرار،كما حالفه الحظ غالبا في العناية باللغة،واختيار المناسب منها للموضوع،وأحسن توظيفها للتعبير عن مشاعره،ونقلها إلى سامعيه،والى قرائه و التأثير فيهم.

أ - **التصريع:** إن أبرز مظهر للموسيقى الداخلية عند محمد العيد هو التصريع، وهو عند علماء العروض « إلحاق العروض بالضرب وزنا و تقفية سواء بزيادة أو نقصان »[1] وقد حرص عليه الشعراء قديما،لدرجة أن جاءت جل المعلقات مصرعة،كما أشاد النقاد القدامى بقيمة هذه الظاهرة،وما تحدثه من تأثير،فقد أعتبر ابن رشيق من لم يصرع «كالمتسوّر الداخل من غير باب »[2] كما اعتبر أن الشعر «قفل أوله مفتاحه »[3].

وقد أدرك محمد العيد قيمة التصريع،فاهتم بتجويد مطالع قصائده لأن ذلك أول ما يقرع السمع،فيجد طريقه إلى النفس.

ونتناول نماذج مختلفة من شعر محمد العيد لنتبين دور التصريع في التأثير على السامع وجلب الانتباه إلى القصيدة، ففي قصيدته (وقفة على قبور الشهداء) التي ألقاها سنة 1966 بمناسبة عيد الأضحى،وموضوعها هو الترحم على أرواح الشهداء:

رحم الله معشر الشهداء   وجزاهم عنا كريم الجزاء
وسقى بالنعيم منهم ترابا   مستطابا معطر الأرجاء
هذه في الثرى قبورهم حوتهم   أم قصور تسمو على الجوزاء؟
أيها الزائرون ساحة طهر   قدسي وعزة قعساء
قد وطأتم ما طاب منها فطبتم   وسعدتم بزورة السعداء[4]

فبالإضافة إلى الاتفاق الحاصل بين نهايتي (شطري البيت الأول) (الشهداء-الجزاء) تنبعث نغمة موسيقية من تكرار حروف معينة في النص كحرف السين الذي لم يخل منه بيت،ويوحي بجو الموقف الرهيب والسكون الذي يخيم على المكان،ثم تتابع حروف المد في الأسماء (شهداء – جزاء – ترابا – مستطابا - الأرجاء...) مما أضفى على النص طابع القوة،وهي تعبر عن انفعالات الشاعر.

---

1 - عبد الدائم صابر: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور،ص49.

2 - ابن رشيق:العمدة،نقلا عن: بدوي عبده:دراسات في النص الشعري العصر الحديث،ص29.

3 - بدوي عبده: المرجع نفسه،ص23.

4 - العيد محمد:الديوان،ص435.

ولنتأمل النموذج التالي،وهو قصيدة (بشرى الجزائر)،فالمناسبة ثقافية هـــي افتتـــاح دار الطلبة بقسنطينة سنة 1953 يقول فيها:

هات البشائر للجزائر هاهتـــا إن الجزائر بصرت غاياهتا
عقدت لها عزماهتا فمن الـــذي غير الإله يحل من عزماهتا
وتدفقت كالسيل ليس يردهـــا خذلان قرباهنا وظلم عداهتا
لولا كوارث بين جنبيها جرت لعددت هذا اليوم عيد حياهتا[1]

لقد كان لهذا الحدث أثر عظيم في نفسية محمد العيد،فمهد لـــه بالتصـــريع (هاهتـــا-غاياهتا)،ثم اهتدى إلى الألفاظ التي لهـــا دلالـــة علـــى فرحـــه وســـروره مثـــل:(البشـــائر، غايات،عزمات،عيد)،ثم اتخذ حرف الهاء رويا مشبعا بالألف،وكرر حرف الهاء ثلاث مرات في كل بيت،والهاء حرف مناسب للتنبيه إلى مثل هذا الحدث الهام،مما أعطى النص موسيقى قوية.

ثم ننظر إلى هذا النموذج من شعره المتعلق بتأملاته وهو صادر عن نفس حزينة جريحـــة في قصيدته يا ليل:

يا ليل طلت جناحا متى تريني الصباحـــا
أرى الكرى صد عني بوجهـــــه وأشاحـــا
أمسى علي حرامـــا ما كان منه مباحـــا
قد ضقت بالهم ذرعا وما وجدت انشراحا
ملت فراشي نفسي واستوحشت منه ساحا[2]

فبالإضافة إلى التصريع في البيت الأول(جناحا،الصباحا)،فإن الإيقاع الـــداخلي لهـــذه القصيدة على الرغم من طابعها الحزين الذي يتطلـــب الموســـيقى الهادئـــة،عالي النبرة،ثقيـــل الموسيقى،حيث يصعب النطق بكلماهتا لاشتمالها على حروف متنافرة جعلـــت مـــن تشـــابه الكلمات المشتملة عليها صعبة النطق لا تجري بطلاقة على اللسان مثل(أرى الكرى صد عـــني، قد ضقت بالهم ذرعا،ملت فراشي نفسي،استوحشت)فهذه العبـــارات يصـــعب نطقهـــا دون تلعثم،وهي تدل على حالة الشاعر النفسية المتوترة،القلقة،بالإضافة إلى التعـــابير الفخمـــة ذات النبرة العالية في القافية ذات الروي (حرف الحاء) الممدودة (المشبعة بالألف) الذي يجعل القارئ يفتح فمه بوضوح (الصباحا،أشاحا،مباحا،استراحا،ساحا).

1 - العيد محمد:الديوان،ص211.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص45.

وما يؤكد عناية محمد العيد الكبيرة بمطالع قصائده،أنه بعد إحصـــاء لمجمـــوع إنتاجـــه الشعري في الديوان،وتكملة الديوان من مجموع 353 نصا ما بين قصيدة ومقطوعـــة وبيـــت منفرد،يوجد 207 نصوص مصرعة بنسبة 58.64 % وهي نسبة تفوق نصف إنتاجه.

كما يلاحظ كذلك أن معظم القصائد المصرعة هي النصوص الطويلة والمتوســطة،ولا شك أن اعتماد الشاعر على التصريع له علاقة باتجاهه الكلاسيكي،والتزامه في شـــعره بكـــل المقاييس التي وضعها النقاد القدامى للشعر، (وحدة البحر،وحدة القافية،وحدة البناء في شـــكل عمودي)[1].

ب- الجناس:

الجناس من طرق تحسين النظم،وقد عرفه ابن المعتز بقوله: «التجنيس أن تجيء الكلمـــة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام،ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها »[2].

وهو تعريف يقصر الجناس على تشابه الكلام في تأليف حروفه،دون إشارة إلى أن يمتـــد هذا التشابه إلى المعاني أم لا.

أما عبد القاهر الجرجاني فحين بين أثر الجناس في جمال الأسلوب،قد أكد « أن الجمال الأسلوبي والإيقاعي المتمثل في الجناس والسجع كان صدى للمعنى الـــذي قـــدح في الـــنفس وأشرف في العقل وتموج في الشعور »[3] يقول: «أما التجنيس فإنـــك لا تستحســـن تجـــانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا،ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا »[4]. وبعد أن يستشهد بأمثلة شعرية لأبي تمام،وغيره يؤكد كذلك مرة أخرى:

«وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا،ولا سجعا حسنا،حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه،وساق نحوه،لا تبتغي به بدلا،ولا تجد عنه حولا،ومن هنا كان أحلـــى تجنـــيس تسمعه أعلاه،وأحقه بالحسن وأولاه،ما وقع من غير قصد من المـــتكلم إلى إجتلابـــه وتأهـــب لطلبه»[5].

---

1 - ينظر: بوفلاقة سعد:(في سيمياء الشعر العربي القديم)مجلة العلوم الإنسانية عدد 23 جوان 2005 جامعة منتوري قسنطينة،ص102، 103.

2 - ابن المعتز:كتاب البديع،نقلا عن عتيق عبد العزيز:علم البديع،ص195.

3 - عبد الدائم صابر:موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور،ص44.

4 - الجرجاني عبد القاهر:أسرار البلاغة،ص25.

5 - الجرجاني عبد القاهر:المرجع نفسه،ص28.

والجناس ينقسم إلى قسمين،تام،وغير تام(ناقص)،فالجناس التام هو ما اتفق فيه اللفظـان في أربعة أمور هي: «أنواع الحروف وأعدادها،وترتيبها وشكلها. والجناس الناقص هـو مـا اختلف فيه اللفظان في أحد الأمور الأربعة السابقة»[1].

وهو من الظواهر الصوتية البارزة بشكل لافت في شعر محمد العيد،ويرجع أبو القاسـم سعد الله ذلك إلى أن محمد العيد درس الشعر العباسي،وعرف ما أحدثته مدرسة أبي تمام مـن فنون التزيين،ثم اطلع على مدرسة البحتري التي تعمـد علـى الطبيعـة والبسـاطة،ووجد في المدرستين مجالا للإقتداء[2].

غير أن محمد العيد لم يسرف في استعمال تلك التحسينات اللفظية ولو كان ذلك على حساب المعنى«فالبديع الذي جاء به ليس إغراقا ولا تعقيدا في الكلام،ولا بعدا بالصورة،ولكنه لا يعدو بعض الحلي اللفظية كالمقابلة والجناس»[3].

ومن الأمثلة على ذلك قول محمد العيد في قصيدة (استوح شعرك):

أبناؤك الأشبال فيك تزاوروا وتزاءروا في الغيل منك بمسمع[4]

فالجناس قائم بين لفظتي (تزاوروا) من الزيارة،و(تزاءروا) مـن لزئير،فـالأولى تـوحي بالاتحاد،والثانية بالقوة والشجاعة وهو المعنى الذي أراده الشاعر.

ويقول في نفس القصيدة عن طبيعة الجزائر الغنية بالخيرات مما جعلها محل الطامعين:

أطعمت مكثرة فأطعمت العدى لا تكثري الإطعام كي لا تطمعي[5]

إن الجزائر كانت تسوق القمح إلى فرنسا،وهذا ما أدته لفظة أطعمت،وقـد كانـت الديون المترتبة عن هذا القمح هي السبب المباشر للغزو،ثم الاستعمار طمعا في الأرض،وهذا ما دلت عليه لفظة أطعمت،ونوع الجناس ناقص.وبالإضافة إلى الإيقاع الذي يحدثه هذا الجنـاس وتكرار حرف الميم خمس مرات وما تركه من أثر،هناك المقابلة الجميلة بين شطري البيت الـتي تدل على براعة الشاعر ومقدرته«وله قدرة فائقة على تشقيق الألفاظ واستحضار ما يقابلها أو يطابقها أو يشبهها حروفا وحجما،ويناقضها معنى ومفهوما»[6].

---

1 - ينظر: عنيق عبد العزيز،علم البديع، ص197 – 205.

2 - ينظر:سعد الله أبو القاسم: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ص227 – 228.

3 - سعد الله أبو القاسم:المرجع نفسه،ص228.

4 - العيد محمد: الديوان،ص143.

5 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص143.

6 - سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه،ص228.

وفي قصيدة (في أذن الشرق) يتحدث محمد العيد عن النيابات في وطنه المستعمر قائلا:

النيابات كلها نائبات والقيادات كلها أقياد[1]

فحين يجانس محمد العيد بين(النيابات،والنائبات)،وبين(القيادات،والأقياد)،بالإضافة إلى ما يحدثه اتفاق الكلمات في الأصوات من جرس موسيقي،هناك الدلالة المعنوية التي تربط بين لفظة(النيابات) التي يخيطها المستعمر على مقاسه،فتعمل لصالحه،وبين لفظة(نائبات) التي تجعل من تلك النيابات مصائب تحل بالشعب،وكذلك شأن كلمة (قيادات) التي يعينها الاستعمار لإدارة شؤونه فتكون أغلالا في رقاب الجزائريين.

وقد استعان محمد العيد بكثير من الألفاظ القرآنية الأكثر دلالة وجانس بينها ليعبر بها عن معانيه من ذلك قوله في قصيدة (الترحيب بالحجاج):

وطوبى لعبد صادق الدين صادع به لا يبالي أن يقال تعصبا[2]

فالجناس هنا بين (صادق،وصادع)،فالثانية مقتبسة من قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »[3].

وهو جناس لا يقتصر على اتفاق اللفظين في النطق وما يحدثه من أثر،بل يحمل دلالة معنوية،هي الصدق في قول الحق،والجهر به دون خوف.

ويقول في قصيدة (دعاة إلى الحسنى):

من يعشُ عن سنن الدنيا يعش هملا ومن يجاوز حدود العقل يرتطم[4]

فقد جانس بين (يعشو،ويعيش)،فالأولى اقتبسها من قوله تعالى «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين... »[5].

ولهذا الجناس دلالة كبيرة على المعنى الذي أراده الشاعر هو:أن من يجاوز الحق ويتعد قوانين الكون يعش شقيا.

ولئن حالف الحظ محمد العيد في الكثير من قصائده،فجاء الجناس عن سجية،فإن لكل فارس كبوة كما يقول المثل.فقد كان أحيانا يتكلفه تكلفا كما هو شأن غيره ويستعمله

---

1 - العيد محمد:الديوان،ص120.

2 - العيد محمد:المصدر نفسه،ص195

3 - سورة الحجر،الآية 94.

4 - العيد محمد:المصدر نفسه،104.

5 - سورة الزخرف الآية 36.

استعمالا لا يستدعيه المعنى، ونشعر أنه عبء على الأسلوب «ومن المؤسف حقا أن ينساق إلى العنت اللفظي شعراء كبار من أمثال محمد العيد،ومفدي زكرياء»[1].

و كمثال على ذلك ننظر هذه القصيدة التي يتحسر فيها على حال شعبه:

يا فؤادا به اخترق   لاعج الهم فاحترق
ما عسى يدفع الأسى   طارقا بالأذى طرق
ما عسى ينفع الأسى   أمة شملهـــا افترق[2]

فقد جانس بين (اخترق،واحترق) (عسى،الأسى)،ولئن كانت بين (اخترق،واحتـــرق) علاقة بين صوت الكلمة ومعناها،فالهم الذي اخترق قلب الشاعر سبب له حرقـــة أســـى،فأثر جرس الكلمتين ينتقل من السمع إلى النفس،فإنه بين كلمتي(عسى،الأسى) لا توجـــد علاقـــة معنوية،وتأثيرها على السامع لا يتعدى الأذن مع العلم أن الجنـــاس بالإضـــافة إلى كونـــه أداة موسيقية،فهو كذلك وسيلة للتعبير عن الأفكار والمعاني.

وظاهرة التزام هذا اللون من البديع يمكن ملاحظتها بجلاء في القصائد التي التـــزم فيهـــا محمد العيد ما لا يلزم «ولابد أن نذكر أن هذه اللزوميات كانت أقرب إلى الـــنظم منـــها إلى الشعر الوجداني الصادق أو الوطني الثائر»[3].

وفي نموذج آخر يقول محمد العيد:

ويا علمي إني أرى بك عالمـــي   بدا بعد ما أخفته عني يد الستر
فأنت حياتي أنت روحي وراحتي   وراحي و ريحاني ويسري من عسري
وأنت صدى عزي،وأنت ندى يدي   وأنت هدى قلبي،وأنت مدى عمري[4]

فقد بلغ الإجهاد البديعي منتهاه[5] بمحمد العيد لدرجة أن جاء البيت الثالث مـــن هـــذه القطعة مكونا من أربع فقرات مسجوعة متوافقة الفواصل- مع العلم أن هذا مـــن خصـــائص النثر- (صدى،ندى،هدى،مدى) وهذا ما يجعل البيت مجرد نظم بعيدا عن الســـليقة الشـــعرية والطبع الذي عرف به محمد العيد.

---

1 - ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث،اتجاهاته وخصائصه،ص629.
2 - العيد محمد:الديوان،ص383.
3 - سعد الله أبو القاسم: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص229.
4 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص433.
5 - ينظر ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه،ص631.

ج- التكرار:

من الظواهر التي برزت في شعر كثير من الشعراء ومنهم محمد العيد آل خليفـــة،ظاهرة التكرار،وهي تعني تكرار بعض الحروف أو الكلمات أو العبارات في القصيدة بدافع معـــين،أو إظهار نزعة معينة كالفرح والحزن،أو الرضى و السخط أو لغرض التنبيه إلى قضـــية أو فكـــرة لتثبيتها في نفوس المتلقين،أو الإلحاح على فكرة معينة في القصيدة أكثر من غيرها.

والتكرار كما ورد تعريفه في القاموس هو «دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه أسرع،أسرع،فإن المعنى مردد واللفظ واحد »[1] ويكون بتكرار لفظ أو لفظة أو جملة،ويعرفـــه علي البطل في معرض حديثه على الظواهر التي شاعت في شعر الرثاء قديما: «...والتكـــرار في حد ذاته وسيلة من الوسائل السحرية التي تعتمد على تأثير الكلمة المكررة في إحـــداث نتيجـــة معينة في العمل السحري والشعائري »[2].

أما نازك الملائكة فترى أن: «أسلوب التكرار يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية،إنه في الشعر مثله في لغة الكلام،يستطيع أن يغني المعنى ويرفعـــه إلى مرتبة الأصالة،ذلك أن يسيطر عليه سيطرة كاملة أو يستخدمه في موضعه »[3].

وهذا يعني أن للتكرار قيمة جمالية في موسيقية القصـــيدة لكـــن إذا أحســـن الشـــاعر استخدامه.

وإذا تأملنا شعر محمد العيد فإن التكرار فيه من السمات البارزة: «في شعره تكرار المعنى الواحد في القصيدة أو القصائد أو تكرار كلمات بأعيانها أو أشطار بذاتها عدة مرات...وهـــذا التكرار قد يقصد به إلى توكيد المعاني وإعطائها صفة الحتمية والوجوب،وقد يقصـــد بـــه إلى الاستثارة والحماس في نفوس الجمهور المســـتمع حـــتى يســـتحوذ علـــى مشـــاعره ويحـــرز إعجابه »[4].

والأمثلة في شعره كثيرة لا يتسع المقام لذكرها،وأكتفي ببعضها،ففي قصيدة يخاطـــب فيها الشباب بمدرسة بسكرة سنة 1947 يقول:

---

1 - شيخون محمود السيد:أسرار التكرار في لغة القرآن،نقلا عن تيبرماسين عبد الرحمن: البنية الايقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر ط1،دار الفجر للنشر والتوزيع القاهرة 2003،ص192.

2 - البطل علي:الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري،ص218.

3 - الملائكة نازك:قضايا الشعر المعاصر،نقلا عن السد نور الدين:القضية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب،ص72-73.

4 - سعد الله أبو القاسم:محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ص217.

أنت من عنصر الخلود لبـــاب   كن إلى المجد طامحا يا شباب
يا شباب اتجه إلى الشرق وأحفظ   كل كتر إليــه انتســـاب
إنما الشرق نسبة العرب الأحـــ   رار لم تنقطع لها أسبـــاب
إنما الشرق للعروبـــة كهـــف   آمن الظل بالأذى لا يصاب
إنما الشرق للعروبـــة وكـــرٌ   من بنيها تؤمــه أســـراب
إنما الشـــرق للعروبـــة وردٌ   بارد الماء سائع مستطاب[1]

فقد كرر أسلوب النداء (يا شباب) مرتين لغرض التنبيه،ثم كرر(إنما)أربع مرات لغرض التوكيد،وكرر كلمة (الشرق) خمس مرات و(العروبة) أربع مرات ليؤكد على امتداد الجزائـــر العربي الإسلامي،ويكذب كل مزعم يخالف ذلك،وكان هذا التكـــرار في القصـــيدة كلازمـــة نغمية(موسيقية) حاول أن يضبط على أساسها مشاعر السامعين.

ومن أمثلة تكرار حرف معين وما يدل عليه من معاني قوله بمناسبة افتتـــاح دار الطلبـــة التابعة لمعهد ابن باديس بقسنطينة:

هات البشائـــر هاتهـــا   إن الجزائر بصرت غاياتها
عقدت لها عزمتها فمن الذي   غير الإله يحل من عزماتها[2]

فتكرار حرف الهاء أربع مرات في البيت الأول والثاني يدل على تهليل الشاعر وفرحـــه بالحدث.

ومثال ذلك يمكن ملاحظته في البيت الآتي في مناسبة الترحيب بالحجاج:

حباكم بحج البيت أكرم من حبا   فأهلا وسلا بالحجيج ومرحبا[3]

فقد تكرر حرف (الحاء) خمس مرات،و(الهاء) مرتين للدلالة على إيحاءات نفسية معينة.

ومن أمثلة تكرار الكلمة قوله في القصيدة السابقة الذكر:

فإن طبت سعيا تلقه عنك راضيا   وإن سؤت سعيا تلقه عنك مغضبا
ومن فر من بعض العباد لبعضهم   فقد فر من أفعى ليقرب عقربـــا
فكن هاربا منهم إلى الله وحده   ولم أر غير الله للمرء مهربـــا[4]

1- العيد محمد:الديوان،ص259-260.

2 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص211.

3 - م ن ،ص194.

4 - م ن،ص197.

فبالإضافة إلى طابع الأبيات الحكمي الذي يجعلها تعلق بالنفس نجد تكرار كلمة (سعيا) في البيت الأول،والفعل (فرّ) في البيت الثاني،ولفظ الجلالة (الله) في البيت الثالث،كما تكـــرر حرف العين،وحرف الهاء بشكل لافت في الأبيات للتعبير عن معانٍ يريدها الشاعر،ولخلق أثـــر معين في المتلقي.

واللافت للنظر أكثر في شعر محمد العيد هو أن التكرار عنده،يمكن اعتباره تقليدا فنيـــا كما يرى علي البطل «ولقد ظل هذا التكرار تقليدا فنيا قائما يلجأ إليه الشـــعراء المتـــأخرون أحيانا »[1].

وما يؤكد ذلك أن معظم قصائد محمد العيد في الرثاء،تتكرر فيها وحدات صوتية معينة لأغراض نفسية،ومثال ذلك قوله في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم:

يا موت فاجأت من لو ضفت ساحته　　　مهلا لوفاك ترحيبا وإكبـــارا
يا موت عدت بنفس خصبة نبتت　　　فيها المبرات مثل الروض أنهارا
يا موت طفت من الأيدي على عضد　　　فدّ وحطمت في الأسياف بتارا[2]

فقد تكرر أسلوب النداء المشتمل على لفظ (الموت) كلازمة موسيقية حزينة مؤثرة.

ومثال ثاني عن ذلك قوله في قصيدة إلى روح شوقي:

عجبا للدار كيف تـــدور　　　نكب الشعر بها والشعور
ذهب الشعر بهـــا حسرات　　　وعرته وحشـــة ونفـــور
فقد الشعر من الشرق شمسا　　　لم يزل منها على الشرق نور
فقد الشعر من الشرق صرحا　　　طالما غنت عليه الطيـــور
فقد الشعر أبا الشعر (شوقي)　　　فطغى الويـــل به والثبـــور[3]

فالشّاعر مقدر لمنزلة أحمد شوقي الشعرية،حزين لفقده الذي ترك فراغا في الساحة الأدبية،وعبر عن حزنه بتكرار عبارة(فقد الشعر) عدة مرات.

وفي قصيدة (الوداع) في رثاء الأمير خالد يقول محمد العيد:

---

1 - البطل علي:الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الرابع هجري،ص220.

2 - العيد محمد: الديوان ،ص454-455

3 - العيد محمد: المصدر نفسه،ص457.

اليوم يا قلب فأهلك تحسرا و التيـــاعـــا
واليوم يا طرف فاذرف منك الدموع تباعـــا
ابك الزعيم المفـــدى ابك الأمير المطاعـــا
ابك الكريم المرجى ابك الغيور الشجاعا
ابك الجليل مزايـــــا ابك الجميل طباعـــا[1]

فهذا اليوم عند الشاعر،وعند الجزائريين يوم مشهود تقطع له القلوب حسرة وأســـى، وعبر محمد العيد عن ذلك بتكرار كلمة(اليوم) مرتين،والفعل(ابك)ست مرات للدلالة على شدة تأثره،وبالغ حزنه.

1 - العيد محمد: الديوان،ص463.

الخاتمـــة:

لقد درج محمد العيد في نشأته الفنية كما درجت الحركة الوطنية في بدايتها صغيرة يطبعها الخوف والتردد،ثم شبت بين الحيرة واليأس تارة،وبين الاندفاع تارة أخرى،ثم وقفت على ســـاقيها واعية لا تهاب،تناور حينا،وتواجه أخرى.

هكذا كان الشاعر فتح جفنيه على وطن في العشرينيات فوجده جريحا يئن تحت جنـــازير جلادي الاستعمار،فانعكس ذلك على شعره الذي وقفه على وطنه وشعبه.

وأدرك أن الخلاص لا يكون فرديا،فكان صوت الشباب،داعية إلى تكوينه بالأخلاق والعلم ليحمل مشعل التحرير عندما يحين أوانه فقاوم الفساد والانحلال والفقر.

وفي الثلاثينيات انبثقت عن الوعي الوطني حركة إصلاحية،كان الشاعر أحد أعضـــائها، ولسان حالها،فعلا صوته معبرا عن مطالبها الإصلاحية،وكان من بين حراسها الأمناء على شخصية الجزائر العربية الإسلامية التي استوحى من تاريخها الحافل أروع آياته من أمجاده الســـالفة لتكـــون حافزا قويا على النهوض،وعرفت هذه الحركة الإصلاحية بالتحدي،كانت تغير المناورة ولا تتوقف في إصدار الجرائد،وكان لمحمد العيد حظ كبير في ذلك.

وقد تفاعلت هذه الحركة الإصلاحية مع السياسيين،وكانت طرفا فاعلا أحيانـــا – علـــى الرغم من التهمة الموجهة إليها بعدم ممارسة ذلك – فاستجاب الشاعر لهذا الواقع وكـــان شـــعره صدى لكثير من الأحـــداث السياســـية،فخاطب فرنســـا قـــائلا بـــأن للشـــعب وزنا،ووطنـــا وشخصية،وتاريخا،فقارع أعداء الإسلام الصـــليبيين والمفتـــونين بهم،وحـــارب الطرقيـــة،وحيا الزعماء،وضمد جراح شعبه،وحث على وحدة الصف و لم الشمل لتفويت الفرصة على العدو.

وبعد مأساة الثامن ماي 1945 أصيب الشاعر كغيره من أدباء الجزائر بفترة ذهول دامـــت ما يقرب سنتين،نطق بعدها بقصيدة (لا أنسى) التي كانت تحولا كـــبيرا في المضـــمون الشـــعري الثوري عنده.

وهذا هو الحظ الذي استمر فيه الشاعر بعد الخمســـينيات،فقد تحـــدث عـــن الجـــيش، والاستقلال، وأرهص للثورة، وتنبأ بها،وأمدها بجهود أكثر من ثلاثين سنة.

وفي هذه الفترة لم يقف محمد العيد بشعره في إطار النظرة الوطنية المحدودة،وإنما تجاوزهـــا إلى سائر أقطار العروبة مشرقا مغربا،فدعا إلى الوحدة،وشارك جميع العرب أفـــراحهم وأتـــراحهم فهلل لاستقلال ليبيا والسودان،ورأى في ذلك بداية تحرر للأمة من الاستعمار،ورثى غـــازي الأول

ملك العراق،وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم،وكان في كل ذلك شديد الاعتزاز بالعروبة والإسلام،كما تجاوز هذه النظرة القومية إلى أبعد من ذلك فتحدث عن بعض الأحداث العالمية.

وعندما اندلعت الثورة المباركة وضع الهزار في قفصه فقل تغريده الذي كان له دور كبير في محاربة الجفاف الثقافي،وتنوير العقول،وحث العزائم وشحذ الهمم،وهندسة النفوس،و لم يكن يثنيه بطش الاستعمار عن ترقب الفرج الذي أضحى قريبا.

وكما سخر محمد العيد قواه المعنوية للمقاومة بكل أشكالها، فقد سخر قواه الفنية لذلك،فعلى الرغم من المناسباتية التي تميز بها شعره والتي كانت مصدر استلهامه للمعاني،فإنه خلا من النزعة الذاتية التي تطبع شعر المناسبات عادة،فكان ملتزما إلى أبعد الحدود بقضايا الوطن و الشعب،و لم يعش لنفسه،بل عاش لغيره،فعاش عالما أوسع،عصره،جيله،وأمته،عاش هموم الجميع وعبر عنها بصدق.

وبالرغم من كون شعره جاء في مرحلة نسخت فيها الثقافة العربية أو كادت،فقد تميز بفصاحة اللغة،وقوة بيانها،وحسن سبكها حيث جارى كبار شعراء العصر العباسي،وقد رأى الشاعر في ذلك تمسكا بالأصالة،وشكلا من أشكال المقاومة للثقافة الغازية.

وإن اضطر الشاعر إلى لغة قاموسية في الغالب لمخاطبة شعبه، فإن ذلك لم يحل دون أن تكون هذه اللغة شاعرية إيحائية في كثير من الأحيان.

وقد تميز محمد العيد بنوع من التسامي الروحي، فتجلى ذلك في أسلوبه التعبيري، فاتخذ من القرآن الكريم منهلا عذبا، ينهل منه الألفاظ والمعاني والرموز والصور البيانية التي لم تكن في الغالب تخرج عن المفهوم القديم الذي يحصرها في التشبيه والاستعارة،والكناية،وسائر أضرب المجاز.

وحتى الرموز التي كان الشاعر يستمدها من القرآن أو من التراث كانت قريبة المنال يفهمها شعبه، و لم تكن رموزا غريبة شاذة كما هو الشأن عند بعض المدارس الأدبية.

أما عن وزن الشعر وموسيقاه، فإن محمد العيد رأى في مرحلة الشعر العمودي ضرورة للفترة التي يمر بها المجتمع الجزائري،وهي تعني الثبات أمام رياح التغريب،وزوابع الردة الثقافية،فاتخذ من العروض الخليلي مرجعيته،لدرجة أن أشهر البحور التي نسج الشاعر على منوالها هي نفسها البحور التي ورد على أوزانها معظم الشعر القديم،والأمر نفسه ينطبق على القوافي.

وكانت المضامين التي تناولها الشاعر محمد العيد - وفق الطريقة التي ارتآها - جزءا من هم الشعب آنذاك، وعبرت عن آلامه وآماله،فتجاوب الشعب مع هذا الشعر،ورآه في قمة الفن،وحسب محمد العيد أنه استطاع أن ينفذ إلى عقل الشعب من خلال قلبه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش.

أ- المصادر

1. العيد محمد(آل خليفة):الديوان،ط1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،مطبعة البعث قسنطينة1967.
2. العيد محمد(آل خليفة):الديوان،ط3،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1992.
3. ابن سمينة محمد:العيديات المجهولة(تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة)،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر2003.
4. الزاهري محمد الهادي:شعراء الجزائر في العصر الحاضر،ج1،ط1،المطبعة التونسية،تونس1962.
5. جريدة البصائر(الأولى):عدد1 لسنة 1935.
6. جريدة البصائر(الثانية):عدد3 لسنة 1947.
7. جريدة المنار:عدد 10 ليوم 1952/10/24.

ب - المراجع

1- الإبراهيمي أحمد طالب:آثار الإبراهيمي،ط1، ج2،دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان،1997.

2- ابن جعفر قدامة:نقد الشعر ط3،تحقيق كمال مصطفى،مكتبة الخانجي،القاهرة،مصر1979.

3- ابن سمينة (محمد): محمد العيد آل خليفة (سلسلة:شخصيات لها تاريخ) ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989.

4- ابن سمينة (محمد):محمد العيد آل خليفة،دراسة تحليلية لحياته،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1992.

5- ابن قتيبة:الشعر والشعراء ج1،تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر،دار المعارف،القاهرة،(دت).

6- ابن قينة (عمر):صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث،أعلام وقضايا ومواقف،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1993.

7- ابن قينة (عمر):في الأدب الجزائري الحديث،تاريخا و أنواعا وقضايا وأعلاما،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995.

8- ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم):لسان العرب،المجلد 12،دار صابر، بيروت(د.ت).

9- ابن نبي (مالك):مذكرات شاهد القرن(الطالب)،دار الفكر،بيروت،1982.

10- أبو اليقظان(إبراهيم):الديوان،ط1،المطبعة العربية بالجزائر، 1350.

11- إسماعيل (عز الدين) التفسير النفسي للأدب،ط4،دار العودة،بيروت، لبنان،1981.

12- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي:تاريخ الأقطار العربية،ج2(قسم الاستشراق)،دار التقدم،موسكو(د.ت).

13- أمين (أحمد):النقد الأدبي(السلسلة الأدبية الأنيس)،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر،1992.

14- أنيس (إبراهيم):موسيقى الشعر،ط3 مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،مصر1965.

15- بري (حواس):شعر مفدي زكرياء دراسة وتقويم،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1994.

16- البطل (علي):الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني هجري،ط3،دار الأندلس للطباعة والنشر،بيروت لبنان،1983.

17- بوحوش (عمار):التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى النهاية،1962،دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان،1967.
18- بوصفصاف (عبد الكريم):جمعية العلماء وعلاقتها بالحركات السياسية الأخرى(931-1945)،ط1،دار البعث قسنطينة،1981.
19- بوقرورة (عمر):الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث(1945-1962)،منشورات جامعة باتنة(د.ت).
20- بيطام (مصطفى):الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي(1954-1962)،دراسة موضوعية فنية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1998.
21- تيبرماسين عبد الرحمن:البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر،ط1،دار الفجر للنشر والتوزيع،القاهرة،2003.
22- الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر):البيان والتبيين،ط5 تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي القاهرة، 1985.
23- الجارم (علي)،وأمين (أحمد): البلاغة الواضحة،ط17 دار المعارف،مصر،1964.
24- الجرجاني (عبد القاهر):أسرار البلاغة،تحقيق عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف،ط1،دار الجيل بيروت،لبنان،1991.
25- جوليان (شارل أندري):أفريقيا الشمالية تسير،الدار التونسية للنشر،تونس،1976.
26- حركات (مصطفى):قواعد الشعر(العروض والقافية)المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر،1989.
27- حسين (محمد عارف)،وعلي(محمد حسين):دراسات في النص الأدبي العصر الحديث،ط4،دار الوفاء للطباعة والنشر،1998.
28- حماد أحمد عبد الرحمان:العلاقة بين اللغة و الفكر،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر،1985.
29- حمادي (عبد الله):أصوات من الأدب الجزائري الحديث،دار البعث قسنطينة،2001.
30- حنا (مينة) ونجاح(العطار):أدب الحرب،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق،1976.
31- خرفي (صالح):شعراء من الجزائر(الحلقة الأولى)،جامعة الدول العربية،معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة،1969.

32- خرفي (صالح): صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
33- خرفي (صالح): الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
34- خرفي (صالح): محمد العيد آل خليفة (سلسلة في الشعر الجزائري الحديث) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984.
35- خرفي (صالح): شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت).
36- خضر (سعاد محمد): الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، 1967.
37- خضر (عباس): أدب المقاومة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.
38- الخطيب (أحمد): جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
39- خفاجي (عبد المنعم): الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، 1986.
40- خليل إبراهيم عبد الرحمان: دور الشعر في معركة الدعوى الإسلامية أيام الرسول (ص)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
41- درار (أنيسة بركات): أدب النضال في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
42- الدقاق (محمد): الاتجاه القومي في الشعر العربي، ط3، جامعة حلب، سوريا، 1977.
43- دكروب (محمد): الأدب الجديد والثورة، ط3، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 1990.
44- دودو (أبو العيد): الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1975.
45- دوغان (أحمد): شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
46- رمضان (حمود): بذور الحياة، طبعة تونس، 1928.
47- ركيبي (عبد الله): الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981.
48- ركيبي (عبد الله): الأوراس في الشعر العربي (ودراسات أخرى)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
49- ركيبي (عبد الله): قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.
50- زكي (أحمد كمال): النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

51- الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد): شرح المعلقات السبع،دار الآفاق،الجزائر،(د.ت).
52- زوزو(عبد الحميد):دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين(1919-1932)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،(د.ت).
53- سارتر(جان بول):عارنا في الجزائر،ترجمة عايدة وسهيل إدريس،ط2،دار الآداب،بيروت،1952.
54- السد (نور الدين):القضية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1986.
55- السد (نور الدين):الأسلوبية وتحليل الخطاب،ج2،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،1997.
56- سعد الله (أبو القاسم):محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث،ط2،دار المعارف بمصر،1968.
57- سعد الله (أبو القاسم):منطلقات فكرية،ط2،الدار العربية،1982.
58- سعد الله (أبو القاسم):تجارب في الأدب والرحلة،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1983.
59- سعد الله (أبو القاسم):الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،ط3،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1983.
60- سعد الله (أبو القاسم):دراسات في الأدب الجزائري الحديث،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1985.
61- سعد الله (أبو القاسم):أفكار جامحة،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1988.
62- سعد الله (أبو القاسم):تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)،ط1،ج8،دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان،1988.
63- سعد مصلوح:الأسلوب دراسة لغوية إحصائية،عالم الكتب،القاهرة،مصر،(دت).
64- سعيفان (أحمد):قاموس المصطلحات السياسية والدستورية الدولية،ط1،مكتبة لبنان ناشرون،2004.
65- سلامة أبو السعود:الايقاع في الشعر العربي،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الاسكندرية،مصر2002.
66- سلمان (نور):الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ط1،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان 1981.

67- السمرة محمود:القاضي الجرجاني الأديب الناقد،ط1،منشسورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر،بيروت،لبنان،1966.
68- الشبوكي (محمد):الديوان،المتحف الوطني للمجاهد،الجزائر1995.
69- الشرباصي (أحمد):سلاح الشعر،الدار القومية للطباعة والنشر،فرع الساحل،(د.ت).
70- شـــرف (عبـــد العزيـــز):المقاومـــة في الأدب الجزائـــري المعاصر،منشـــورات وزارة الثقافة،دمشق،1971.
71- الشـــريف (جـــلال فـــاروق):إن الأدب كـــان مسؤولا،منشـــورات اتحـــاد كتـــاب العرب،دمشق،1988.
72- شلتاغ عبود شراد:حركة الشعر الحر في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1985.
73- شوقي (أحمد):الشوقيات،المجلد الأول،ج2،دار العودة،بيروت،لبنان،1983.
74- الشيخ صالح (يحي):شعر الثورة عند مفدي زكريا،ط1،دار البعث،قسنطينة،1987.
75- الطمار(محمد):تاريخ الأدب الجزائري،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981.
76- عبد الدايم (صابر):موســيقى الشــعر العــربي بــين الثبــات والتطــور،ط3،مكتبــة الخانجي،القاهرة،1993.
77- العسكري (أبو هلال الحسين بن عبد الله):الصناعتين الكتابة والشـــعر،ط1،دار الكتـــب العلمية،بيروت لبنان،1981.
78- عصفور(حابر):الصورة الفنية في التـــراث النقـــدي والبلاغـــي،دار الثقافـــة للطباعـــة والنشر،القاهرة،مصر1974.
79- العلوي (محمد الطيب):مظاهر المقاومة الجزائرية،ط1،دار البعث،قسنطينة 1985.
80- عوني (محمد عبد الرزاق): القافية والأصوات اللغوية،مكتبة الخانجي بمصر1977.
81- عياد محمـــد شـــكري:موســـيقى الشـــعر العـــربي(مشـــروع دراســـة علميـــة)،دار المعرفة،القاهرة،مصر1978.
82- غالي (شكري):أدب المقاومة دار المعارف،مصر،1970.
83- فؤاد (نعمات): خصائص الشعر الحديث،دار الفكر العربي،1971.
84- قليل(عمار):ملحمة الجزائر الجديدة،ج1،ط1،دار البعث،قسنطينة،1991.
85- القط (عبد القادر):الاتجاه الوجداني في الشعر العـــربي المعاصـــر،دار النهضـــة العربيـــة بيروت،1978.

86- مؤيد (صلاح):الثورة في الأدب الجزائري،نشر مشترك بين:الشركة الجزائرية،ومكتبة النهضة المصرية بالقاهرة،د.ت.

87- ما لكولم (كولي)،وبيتر(روكس):أراغون شاعر المقاومة،ط2،ترجمة عبد الوهاب البياتي،وأحمد مرسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،1994.

88- مرتاض (عبد المالك):نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1925-1954)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1971.

89- مرتاض (عبد المالك):بنية الخطاب الشعري،دراسة تشريحية لقصيدة(أشجان يمانية)ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1991.

90- مرتاض (عبد المالك):دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة(أين ليلاي)لمحمد العيد،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1992.

91- مصايف (محمد):فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981.

92- مصايف(محمد): النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي،ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984.

93- المقالح(عبد العزيز):الشعر بين الرؤيا والتشكيل،ط2،دار طلاس للدراسات والنشر،دمشق،1985.

94- مناصرية(يوسف):الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية بين الحربين العالميتين(1919-1939)،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر(د.ت).

95- ناصر (محمد):الصحف الجزائرية(1847-1939)،المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1980.

96- ناصر (محمد):الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية(1925-1975)ط1،دار الغرب الإسلامي،1985.

97- هلال (محمد غنيمي):النقد الأدبي الحديث،ط1،دار العودة،بيروت،لبنان،1982.

98- هلال (محمد غنيمي):الأدب المقارن،دار العودة،بيروت،لبنان،1983.

99- الورقي (سعيد):لغة الشعر العربي الحديث،مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية،ط3،دار النهضة العربية،بيروت،لبنان 1984.

100- وزارة الشؤون الدينية:آثار ابن باديس،ج2،ط1،دار البعث،قسنطينة،1984.

101- يحياوي (الطاهر)وتوامي (محمد):شعراء وملامح،ط1،مطبعة أمزيان،الجزائر،1984.
102- يحياوي (محمد الطاهر):أحاديث في النقد والأدب،شركة الشهاب،الجزائر،1990.

ج- الرسائل الجامعية

1- بن غلاب (مبروك):الصورة الشعرية عند محمـــد العيـــد آل خليفة،رســالة ماجســتير غـــير منشورة،جامعة القاهرة،1988.
2- ابن زروق (نصر الدين):الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة،(رســالة ماجســتير)غـــير منشورة،جامعة، الجزائر 1996/1995.
3- ثليلاني احسن:المقاومة الوطنية في المسرح الجزائري ما بين (1954 و 1962)،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة منتوري قسنطينة،2005- 2006.
4- الرفاعي (أحمد):الشعر الوطني الجزائري(1925-1954) رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة الجزائر،1978.
5- لزهر فارس:الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف،(رســالة ماجســتير)،جامعــة منتـــوري قسنطينة،2004-2005.
6- ولد حسين (فاطمة):الألفاظ السياسية في ديوان محمد العيد آل خليفة،(رسالة ماجستير)جامعة منتوري،قسنطينة،1992/1993.

د- **الدوريات والمجلات**

1- مجلة الآداب:دار المعارف،بيروت،عدد11،نوفمبر1959.

2- مجلة الآداب:جامعة منتوري،قسنطينة،عدد8،2005.

3- مجلة الأصالة:عدد73-74،وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية،الجزائر،سبتمبر-أكتوبر1979.

4- مجلة آمال:وزارة الثقافة،الجزائر،عدد1(د.ت).

5- البصائر (الأولى):دار البعث قسنطينة،عدد1 ليوم27 ديسمبر 1935.

6- البصائر (الأولى):دار البعث قسنطينة،عدد24 ليوم 19 جوان 1936.

7- البصائر (الثانية):عدد85 ليوم4 جويلية 1935.

8- جريدة البصائر:(السلسلة4)،عدد262 ليوم(14-21 نوفمبر2005).

9- جريدة البصائر:(السلسلة4)،عدد263 ليوم(21-27 نوفمبر2005).

10- جريدة البصائر:(السلسلة4)،عدد264 ليوم(28 نوفمبر إلى 05 ديسمبر2005).

11- مجلة الثقافة:وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر،عدد72 نوفمبر،ديسمبر1982.

12- مجلة الثقافة:وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر،عدد83 سبتمبر،اكتوبر1983.

13- مجلة الثقافة:وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر،عدد86 مارس،افريل1985.

14- جريدة الشريعة النبوية المحمدية:دار الغرب الإسلامي،بيروت،عدد7 ليوم 28 أوت 1933.

15- جريدة الصراط:دار الغرب الإسلامي،عدد 3 ليوم 25 مارس1933.

16- جريدة الصراط:دار الغرب الإسلامي،عدد 5 ليوم 16 أكتوبر1933.

17- مجلة العلوم الإنسانية:عدد 09،جامعة منتوري،قسنطينة،1998.

18- مجلة العلوم الإنسانية:عدد 23،جامعة منتوري،قسنطينة،جوان 1998.

19- مجلة الفيصل:السعودية،عدد109،مارس- أفريل1986.

20- مجلة المصادر:المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية،عدد10،الجزائر 2004.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني: مضامين المقاومة في شعر محمد العيد آل خليفة

الفصل الثالث: الدراسة الفنية

ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة
(دراسة فنية)

ملخص البحث:

حاولت في هذا البحث رفع اللبس عن جزء من شعر أحد رواد النهضة الشعرية المحسوبين على الحركة الاصلاحية،خلال مسار الحركة الوطنية الجزائرية،فكانت مادة بحثي النصوص التي أبدعها هذا الشاعر الذي تفتقت موهبته،وتبلورت شاعريته في ظل الخصوصية العربية الاسلامية، وكشف عن وعي تاريخي وفني كبير في شعره،وهو يدافع به عن شعبه وقيم وطنه،وقد حاولت قراءة هذه النصوص قراءة تبعدها عن التبجيل أو الاقصاء.

وربطا للعمل الأدبي بأسبابه التاريخية وظروفه الموضوعية التي نشأ فيها بدأت بالحديث عن سيرة محمد العيد،وعن مسيرته وحركة المجتمع الجزائري من العشرينيات حتى قيام ثورة التحرير المباركة،فأوضحت العوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شكلت شخصية الأدبية.

كما رصدت في شعره مظاهر المقاومة التي تعددت جبهاتها بتعدد أوجه الاستعمار،واختلفت حدتها تبعا للظروف، فتجاوزت إطار المرحلة الآنية،وكانت بعيدة المدى تجلت في ثلاث جبهات.

مقاومة ثقافية تجلت في محاولة ربط الجزائر بجذورها التاريخية من خلال الدفاع عن اللغة العربية وعن الدين الإسلامي وفي الدعوة إلى نشر العلم ومحاربة سياسة التجهيل.

ومقاومة سياسة تجلت في الحديث عن مفهوم الوطن الجزائري ومحاولة ترسيخ فكرة الوطنية،ومباركة كل مجهود سياسي وطني تقوم به جمعية العلماء - التي ينتمي إليها - وبقية الأحزاب السياسية المتفاعلة في الساحة،وفي التغني بالحرية والاستقلال.

ومقاومة ثورية تأرجحت بين التلميح أحيانا وبين التصريح أخرى مبثوثة في الكثير من قصائد الشاعر،تجلت بشكل أكثر وضوحا بعد أحداث الثامن ماي 1945 على الرغم من قلة إنتاج الشاعر في هذه المرحلة.

وبغرض إعطاء صورة عن اتجاه الشاعر الفني،تحدثت بالتمثيل عن مصـــادر التشـــكيل الشعري، وعن عناصره الفنية عند محمد العيد،فأوضحت أن القرآن الكريم كان المنهل العـــذب الذي نهل منه الشاعر معنى ومبنى،كما نهل من الأدب العربي القديم.

وكانت أدواته الفنية في ذلك الصورة الشعرية بالمفهوم القديم،والتمسك بعمود الشـــعر العربي الأصيل كنوع من أنواع الانتماء الحضاري،وشكل من أشكال مقاومة الاستعمار.

ثم ختمت البحث بجملة من النتائج قوامها أن محمد العيد سخر قواه المضمونية والفنيـــة لمقاومة الاستعمار كما أوحت إليّ النصوص التي تعاملت معها،وأنا لا أزعم أنني قلت الكلمـــة الأخيرة في هذا الموضوع،بل بالعكس،فهي بداية لموضوع جديد، أرجو أن يتابعه بشكل أفضل وبتفصيل أكثر من يأتي بعدي.

features of resistance to colonialism in the poetry of Mohammed Eid Al Khalifa

(Artistic study)

Abstract:

This thesis aims at examining the features of resistance to colonialism in the poetry of Mohammed Eid Al Khalifa ,a pioneer of Renaissance poetry, affiliated to the Reform tendency, during the course of the Algerian National Movement. It attempts to remove doubts about parts of the works of the poet whose poetic talent grew and developed within the very specificity of Arabo- Islamic culture, demonstrating a historical and artistic awareness while defending his people and the values of his homeland, The thesis has tried to read these works in a manner that neither venerates him nor excludes him.

In order to link the literary work to its historical causes and its objective circumstances, the thesis starts by talking about the poet's life and the movement of the Algerian society from the 1920s until the glorious Liberation Revolution, explaining the social, cultural and political factors that have shaped his personality. The thesis also observes in his poetry the different manifestations of resistance, which may be summed up into three.

A cultural resistance which is exemplified by his attempts to link Algeria to its the historical roots through the defense of Arabic and Islam and through his calls to spread learning and fighting

illiteracy. A political resistance embodied in his concept of the modern Algerian nationhood, his attempts to consolidate the idea of nationalism, and his support for every national political effort undertaken by the Association of Algerian Scholars -to which he belonged -,and the rest of the political parties in the interactive arena, in praising freedom and independence. A revolutionary resistance which alternated implicit and explicit militancy until the events of May 8^{th}, 1945 when it became clearly overt, despite the poet's little production at this stage.

In order to give an image of the artistic direction of the poet, the thesis speaks with representation about the sources of Mohammed Eid's poetic structure and artistic elements, explaining that Koran and ancient Arab literature were his major sources of inspiration. His artistic tools were figurative language and his adherence traditional Arab poetry as a kind of cultural belonging, and some form of resistance to colonialism.

The thesis concludes that Mohammed Eid devoted his poetry to resist colonialism as demonstrated by the texts upon which, this research has been based. The author does not pretend to have said the final word on this topic. On the contrary, this could be the beginning of a new research.

Les aspects de la résistance au colonialisme dans la poésie de Mohamed Eid Al Khalifa

(Etude artistique)

Résumé:

Cette thèse vise à examiner les aspects de la résistance au colonialisme dans la poésie de Mohamed Eid Al Khalifa,un pionnier de la poésie de la Renaissance, affilié à la tendance de réforme, pendant le Mouvement National Algérien. Elle vise à enlever le doute sur une partie des travaux de ce poète dont le talent s'est développé dans la spécificité de la culture Arabo- islamique, démontrant une conscience historique et artistique dans sa défense de son peuple et les valeurs de sa patrie. La thèse essaye de lire ces travaux de manière objective loin de toute vénération ou exclusion.

Afin de lier le travail littéraire à ses causes historiques et à ses circonstances objectives, la thèse commence par parler de la vie du poète et du mouvement de la société algérienne à partir des années 20 jusqu'à la glorieuse révolution de libération, expliquant les facteurs sociaux, culturels et politiques qui ont formé sa personnalité. La thèse observe également dans sa poésie les différentes manifestations de résistance, qui peuvent être résumées en trois :

Une résistance culturelle marquée par ses tentatives de lier l'Algérie à ses racines historiques à travers la défense de la langue arabe et de l'Islam,et par ses appels à combattre l'analphabétisme.

Une résistance politique qui était évidente dans son concept de la nation algérienne moderne,ses tentatives de consolider l'idée du nationalisme,et son soutien de chaque effort politique national entrepris par l'Association des Oulémas Musulmans Algériens dont il était membre, ou par le reste des parties politiques.

Une résistance révolutionnaire qui était tantôt implicite et tantôt explicite,et ce jusqu'aux événements du 8 mai 1945 quand elle est devenue clairement manifeste,malgré le peu de production du poète pendant cette période.

Afin de donner une image de la direction artistique du poète, la thèse parle avec représentation sur les sources de la structure poétique de Mohamed 'Eid et ses outils artistiques,démontrant que le Coran et la littérature arabe étaient ses sources principales d'inspiration. Ses outils artistiques étaient la langue figurative et la poésie arabe traditionnelle employées comme moyen d'appartenance culturelle, et une forme de résistance au colonialisme.

La thèse conclut que Mohamed 'Eid a consacré sa poésie pour résister au colonialisme comme démontré par les textes sur lesquels, ce travail a été basé. L'auteur ne prétend avoir dit le mot final sur cette matière. Au contraire, ce travail peut être le commencement d'une nouvelle recherche.